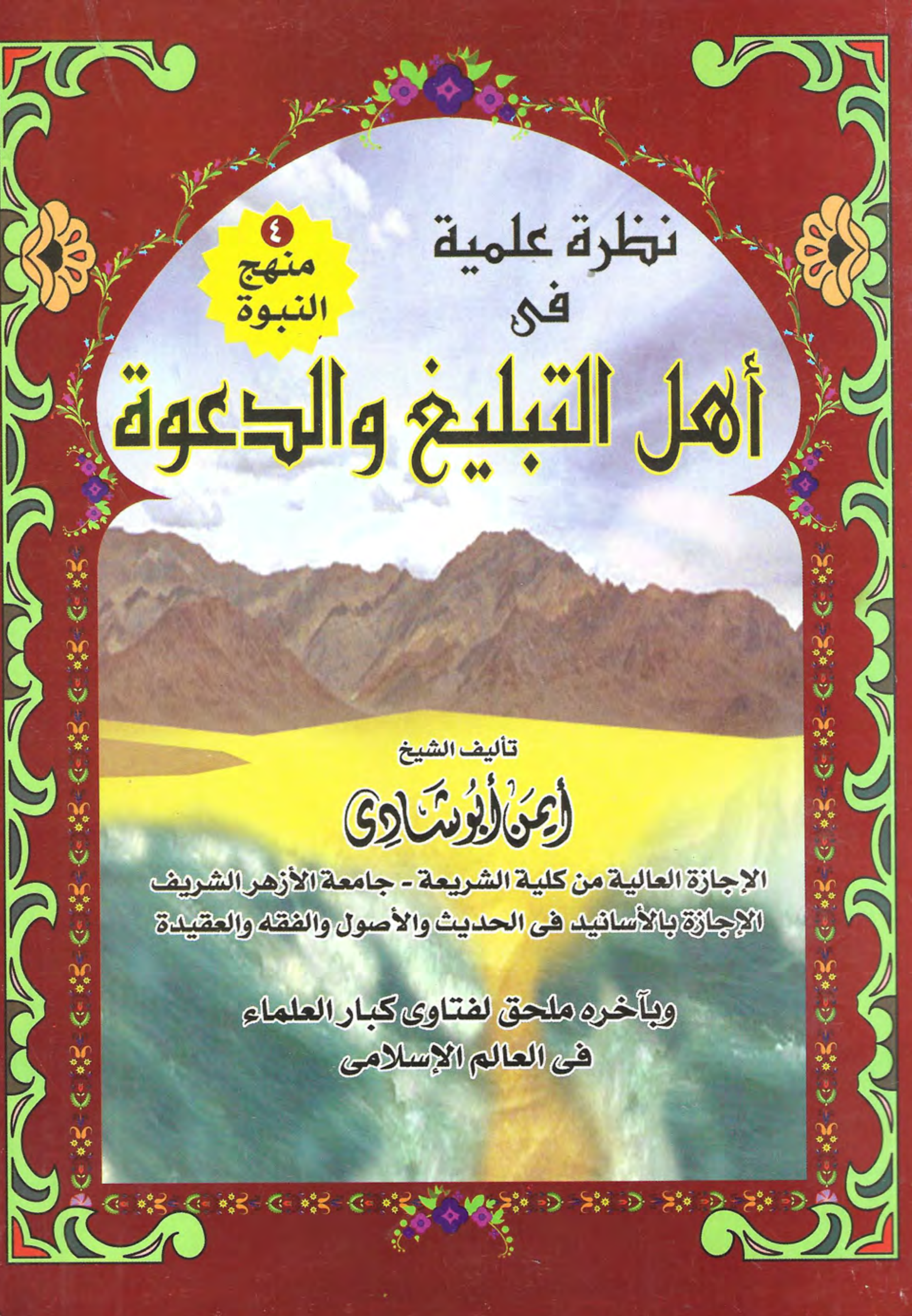


٤
منهج
النبوة
نظرة علمية
فى
أهل التبليغ والدعوة
تأليف الشيخ
أيمن أبو شادى
الإجازة العالية من كلية الشريعة - جامعة الأزهر الشريف
الإجازة بالأسانيد فى الحديث والأصول والفقه والعقيدة
وبآخره ملحق لفتاوى كبار العلماء
فى العالم الإسلامى

نظـرة علمية



في

أهل التبليغ والدعوة

وبآخره ملحق لفتاوى ورسائل كبار العلماء

في العالم الإسلامي

في أهل التبليغ والدعوة

تأليف

الشيخ أيمن أبو شادي

الإجازة العالية من كلية الشريعة ـ جامعة الأزهر الشريف

الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول والفقه والعقيدة

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م
الجزء الرابع
رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٢/٧٧٩١
الطبعة الثانية
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

لطلب الكتاب خارج مصر
ت: ٦٣٥٣٤٣٦
عنوان المراسلة: ١٣ شارع بركات - طومانباي - القاهرة
ج.م.ع

كتابنا هذا..

«أينقص الدين وأنا حي».
كلمة هتف بها الصدِّيق.
وتنبض في كل قلب شفيق.
ولكن كيف يحيا الدِّين؟
بالسعي نحو المطلوب منا؟ أم الموعود لنا؟
بطريق النبوة أم بطريق الملك أم بأي طريق؟
في أي وقت من الأوقات لم يستخدم الله عزّ وجلّ
منهج الملك لإحياء الدين......
بل قام الدين على منهج النبوة
فاهتزت القلوب، وربت، وأنبتت من كلِ زوجٍ بهيج
فيا دعوة النبوة ليبقى الصهيلُ يهز الوجودَ
ويأتي الزئيرُ وراء السدود
ويبكى الصغيرُ مع الخائفين، ويعدو الكبيرُ وراء السنين
ومنك عرفتُ اليقينَ القديم، ومنكِ بدأتُ أعيدُ الحنين،
وأمضي أمامًا إلى السالمين..
وأحي كلامًا جرى منذ حين عن المسلمين،
سعوا بنيِّات المرسلين، وقصد الهدى للعالمين...
وعند المساء تلوحي ضياءً، وعند الصباح تتوهجين،
وفي كلِ عين أراك الوفاء، ومن كل صوت تترددين،
وأرفعُ فيكِ إباءً سماءً، وأبدو أمامكِ تتهللين..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحمد العميم على ما أولانا من نعمه

والصلاة والسلام على أعظم وأكمل رسله

سيدنا محمد ﷺ شمس البلاد وقمر المهاد

وشفيع المذنبين ليوم التناد

وبعد..

هذا بائع الآمال، يُفتشُ في سلال الصمت عن كلمة،

لهذا الظل والإيمان يمضي إليه، يُلوّح بالأسفار خلف الغيب،

وفي عينيه، حياة الصحابة ورياض الصالحين، وفي قدميه تدور آلاف من السنين، خلف خطى المرسلين، وراء النبي ﷺ الصادق الأمين.

يعيش العمر لا يهدأ، يروح يجيء، يواصل التغريب منغمساً،

بكل الحب في دربه، درب النبوة وسبيل المرسلين..

ولم ندخر وسعا أن نتقدم على أئمتنا، وصنَعْنَا من أتوالنا عواصف ضجيج، تهدر على أقوالهم، فسكن صوتهم، وضاع نداؤهم..

وما من قرن مرَّ على أمتنا، إلا وهم المشاعل للأمة،

وطرق الهداية في الظلمة...

ونحن نأبى أن يخفت صوت أئمتنا، ونحن لم نزل هناك بدعوتنا،

أو تسكت عن نصر علومهم كلمتنا...

ونبدأ بـأول القضايـا وأعظمهـا، القضية الـتي انسكـبت بها الـعبرات، وسقـطت حقـوق الإسلام عن أنـاس، وكانـت الاستطـالة في أحـكام أكثرها مغلوطة، بل أغلبها مجهول لعموم المسلمين...

واقتُطِعَت العـبارات عن مدلـولها، وتُركت الـنصوص الظـاهرة البيـنة لأئمة ديننا بـلا التفات، ولا توقف وتعقيب، وتلقـف الناس العبارات المجملة، المفتقرة إلى التفصيل، حـسب قول قائلها، وعلى وفق منهجه، لمن درسه وعرفه، وقاموا لهذه النصوص المجـملة، يحرفونها عن مدلول الأئمة، لـينشروا فكرتـهم التي أرادوا، ولو بـالمخالفة للقـول أو النص الذي نقلوا، ولو بالمنازعة للإمام الذي به قاموا واحتجوا...

وقد تعجبنا لحجم هذه الجراءة، والعجب لن يجدى وحده،

وقد قام الأئمة لأبواب هذه المسائل شارحين ومـظهرين لها، فلم يتركوا قيـدا من القـيود إلا بيـنوه، ولا محـذورا إلا حذروا منـه، ولا تفصـيلا لغامـض إلا فصلوه، ولا تفـسيرا لمجمـل إلا فسروه، فجاءت أقـوالهم شافية كافية، لمن شاء أن يذكر، أو أراد شكورا، وكانت أقوالهم في هذه العلـوم، على وفق مـنهج ودعوة الـنبوة، فأرشـدوا التائهـين، وأخذوا بأيدي الحائرين...

فيا دعوة النبوة.. ولو قد يضيع الشروق
وإن جئت أبكي لكي ينصروكِ، وأبقي رمادا لريح قوية
ولو ضاع مني عتادي وسيفي، ورحتُ وحيدا أدقُ القيودَ
فلن يتركوك
وإن بعتُ نفسي، بهذا السهاد لسوق العبيد
ولو قلتُ أن جوادي ونصري، وزحفي المجلل خلف السدود
وأن السماء ستظلم حتما، وأن الوباء سيغزو الحدود
فلن يطلقوك، وإن صُغتُ كل الحروف غراما،
وعدت هياما أُحدِّث عنك، فلن يسمعوك
وإن غاب عني صهيل القرون، وأقسمت أَني بكل الحصون
أُشير إليك فلن يُحضروك، وضاع النداء مع العابثين
وظل الإباء يُعيد الحنين، من المخلصين لكي يذكروكِ
يا دعوة النبوة... ولو قد يسود العقوق
وتُقطع منك حبال السكينة، ويُشرد عنك السنين الطويلة
ويُقهر فيك لكي يبغضوكِ، وجئت إليك من الجامدين،
وعدتُ أُحَدِّثُ عن العائدين، من الأولين إلى الآخرين،
أحاطوا ركابك بالياسَمين، وصاروا أمامك حينا وحين،
ووحدي أقومُ لكي يقبلوكِ..
ويأتي صراخك خلال الضحايا، ويأتي نداؤك من الصامتين
وتبقى عيونك ظلال الحنايا، وتمضي أمامك رؤى الناظرين
وأعلو جوارك بكل الجباة، ويغدو حنانك عيون الحياة
وأجثو أمامكِ لكي يعرفوكِ.. يا دعوة النبوة

أيمن أبو شادي

الشبهة الرابعة:

أهل الدعوة

لا يرغبون في قيام الدين

وظهور المجتمع الإسلامي

يقولون: أهل الدعوة لا يرغبون في قيام الدين، وظهور المجتمع الإسلامي، هذا ما يقوله أهل زماننا، وقد تأخر بنا الزمان عن الأزمنة الفاضلة، حيث تغيرت على الناس الأحوال...

وقد كان أبو الدرداء ﷺ يقول في زمانه «**كان الناس ورقا لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا ورق فيه، إن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، فأقرضهم من عرضك ليوم فقرك**».

وكان رضي الله عنه يقول: «**كل يوم أصبح لا يرميني الناس فيه بداهية، أعده من نعم الله تعالى عليَّ**».

فنقول مستعينين بالله تعالى ومجيبين على ذلك:

مشيئة الله تعالى غالبة، وحكمته تامة، وإرادته نافذة، وقد قدَّر سبحانه وتعالى في ملكه المقادير، وقضى بعلمه المشيئات، فلم يتأخر أو يتقدم على ما قضى أمر من الأمور، ولم تتحول وتتغير إرادته في شيء من المقدور، بل ما قضاه فيما مضى كان، وما أراده فيما بقى سيكون﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون**﴾[1].

وعلى هذا بنى أئمة أهل السنة والجماعة معتقدهم، وأسسوا منهجهم، وقرروا أصولهم وقواعدهم، مصطلحات عُرفوا بها، وقاموا لها، حتى صارت لهم علامة وشارة، وأساسا ومرجعا، يعودون في كل أمورهم إليها، وينطلقون في سيرهم نحوها، فهي سبلهم المضيئة، ومشاعلهم الهادية، وقد مرت أجيالهم عبر الأيام على ذلك...

---

١ ـ سورة الأنبياء: آية ٢٣.

الفرق بين منهج أهل السنة
ومنهج المعتزلة والخوارج
في سنن الملك والتمكين

وقد كان من هذه الأصول التي أسسها أهل السنة والجماعة واعتمدوها، أن الملك والتمكين أمر قدري بيد الله تعالى وحده، يؤتيه من يشاء، وليس لمن يستحق، وهو قائم على أسباب غيبية من الإيمان والأعمال الصالحة، فهو قدري بمعنى أن الله تعالى قدَّره وقضاه قبل خلق الملوك وقبل خلق الممالك، وفق مشيئته وإرادته، فقد شاء الله تعالى أن يحكم النمرود وهو القائل ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وهو المناظر للخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وشاء الله عزّ وجلّ أن يحكم فرعون وهو أكفر الناس في عصره ووقته، وهو القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2] فأنكر وجود الله تعالى، وادعى خصوصيته وحده بالربوبية، شقاوة وغباوة، وعتوا وتمردا، وهو القائل: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[3] ففجر في كلامه، وتحدى بطول أيامه...

والله عزّ وجلّ يُظهر أمره، ويعلي أحكامه، ويبدي بيانه، ويأمر حبيبه ﷺ بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]. لكن في القدر المقدور، والوقت المسطور..

---

١ ـ سورة البقرة آية: ٢٥٨.
٢ ـ سورة القصص آية: ٣٨.
٣ ـ سورة النازعات آية: ٢٤.
٤ ـ سورة آل عمران: ٢٦.

قال الإمام ابن كثير في تفسيرها ج١ ص٣٥٦: «يقول تبارك وتعالى قل يا محمد معظما لربك وشاكرا له ومفوضا إليه ومتوكلا عليه «اللهم مالك الملك» أي لك الملك كله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي أنت المعطي وأنت المانع وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الاطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله وخصه بخصائص لم يعطها نبيا من الأنبياء ولا رسولا من الرسل في العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية والآتيه وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها واظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

وقال الإمام الطبري في تفسيرها ج٣ ص٢٢٣: قوله ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ الآية أي أن ذلك بيدك لا إلى غيرك «إنك على كل شيء قدير» أي لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك» انتهى.

قلت: وقد بين الله عزّ وجلّ في هذه الآية، منهج أهل السنة والجماعة في الملك والتمكين، وأنه لمن شاء الله تعالى، اختيارا وإرادة وتدبيرًا وقضاءً...

أما المعتزلة والخوارج، فقد ذهبوا إلى أن الملك، ليس بإيتاء الله تعالى لمن شاء، وأنه ليس باختيار الله عزّ وجلّ واصطفائه، بل قرروا أن الملك هو بالاستحقاق، وأن من استحقه ناله، وذهبوا إلى أن من

يؤتيه الله تعالى الملك، إنما هم ملوك العدل، لا ملوك الظلم، والإيتاء مختص بهم وحدهم، دون سواهـم، لأنه لا جائز أن يؤتى الله تعالى الظالمين الملك، بعد أن ألزمهم أن لا يتملكوه، ومنعهم من ذلك لقوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ولقد نافحوا عن هذه الطروحات، وأسسوا عليها جانبا من مذهبهـم، واحتجوا لها بكل قوتهم، وساقوا الأدلة على تـدعيمها، وتبعهـم في ذلك جمع من المتـأخرين، لاتحاد المشرب، ولميل النفوس إلى مجمل ما طرحوه..

ولقـد أورد الإمام الجليـل الفخر الـرازي شبهـتهم في ج٧ المجـلد الرابع ص١٥٨ ـ ١٥٩ من تفسيره فقال:

(واعلم أن للـمعتزلة ههـنا بحثا، قال الـكعبي قوله تـعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ ليس عـلى سبيل المخـتارية، ولكن بالاستحـقاق فيؤتيه من يقوم به، ولا ينزعـه إلا ممن فسق عن أمر ربه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤) وقال في حق العبـد الصالح: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧) فجعله سببًا للملك.

وقال الجُبَّائي: هذا الحكـم مختص بملوك العدل، فأما مـلوك الظلم فلا يجوز أن يكون ملكهم بإيتاء الله تعالى، وكيف يصح أن يكون ذلك بإيتاء الله، وقد ألزمهم أن لا يتملكـوه ومنعهم من ذلك، فصح بما ذكرنا أن الملوك العادلين هم المختصون بأن الله تـعالى آتاهم ذلك الملك، فأما الظالمون فلا.

قالوا: ونظيـر هذا ما قلناه في الرزق أنه لا يدخـل تحته الحرام الذي زجره الله عن الانتفاع بـه، وأمره بأن يرده على مالكه فكـذا ههنا، قالوا: وأما الـنزع فبخـلاف ذلك لأنه كـما ينـزع الملك من المـلوك العـادلين لمصلحة تقتـضى ذلك فقد ينزع الملك عن الملوك الـظالمين. ونزع الملك يكون بـوجوه.. منهـا: بالموت، وإزالة العـقل، وإزالة القـوى، والقدرة

والحواس، ومنها: بورود الهلاك والتلف على الأموال، ومنها: أن يأمر الله تعالى المُحقّ بأن يسلب الملك الذي في يد المتغلب المبطل ويؤتيه القوة والنصرةَ، فإذا حاربه المحق وقهره وسلب ملكه جاز أن يضاف هذا السلب والنزع إليه تعالى، لأنه وقع عن أمره، وعلى هذا الوجه نزع الله تعالى ملك فارس على يد الرسول ﷺ هذا جملة كلام المعتزلة في هذا الباب)انتهى كلام الإمام الرازي.

قلت: وقد رد الإمام الرازي على المعتزلة وإمامهم الجُبَّائي شبهتهم، ودحض حجتهم، وأبان الحق أبلجا واضحا، فقال رضي الله عنه في التفسير الكبير ج٧ المجلد ٤ ص١٥٨ ـ ١٥٩:

«واعلم أن هذا الموضع مقام بحث مهم وذلك لأن حصول الملك للظالم، إما أن يقال: إنه وقع لا عن فاعل وإنما حصل بفعل ذلك المتغلب، أو إنما حصل بالأسباب الربانية، والأول نفى للصانع والثاني باطل لأن كل أحد يريد تحصيل الملك والدولة لنفسه ولا يتيسر له البتة، فلم يبق إلا أن يقال بأن ملك الظالمين إنما حصل بإيتاء الله تعالى، وهذا الكلام ظاهر، ومما يؤكد ذلك أن الرجل قد يكون بحيث تهابه النفوس، وتميل إليه القلوب، ويكون النصر قرينا له، والظفر جليسا معه فأينما توجه حصل مقصوده، وقد يكون على الضد من ذلك، ومن تأمل في كيفية أحوال الملوك أضطر إلى العلم بأن ذلك ليس إلا بتقدير الله تعالى، ولذلك قال حكيم الشعراء:

ولو كان بالحيل الغنى لوجدتني ... بأجلِّ أسباب السماء تَعَلُّقي
لكن من رُزق الحَجَا حُرم الغنى ... ضدان مفترقان أي تفرقِ
ومن الدليلِ على القضاءِ وكونه ... بُؤس اللبيب وطيب عيْش الأحمقِ

القول الثاني: أن قوله تعالى ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ محمول على جميع أنواع الملك، فيدخل فيه ملك النبوة، وملك العلم، وملك العقل، والصحة والأخلاق الحسنة، وملك النفاذ والقدرة وملك المحبة، وملك الأموال، وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لا يجوز» انتهى كلام الإمام الرازي.

قلت: فانظر إلى قوله رضي الله عنه: «حصول الملك للظالم إما أن يقال: إنه وقع لا عن فاعل وإنما حصل بفعل ذلك المتغلب» أي أن تملك الظالمين وحصولهم على الممالك، إما أن يقال إنه وقع بعيداً عن فاعلية الله تعالى ومشيئته وتقديره، وإنما حصل بقوة وفاعليه ذلك الظالم المتغلب على الملك، برغم أن الله تعالى شاء خلاف ذلك، تقدماً لمشيئة وفاعلية ذلك المتغلب المخلوق الظالم، على مشيئة وفاعلية الخالق العادل سبحانه وتعالى، أو أن الله تعالى لا مشيئة له، في تولي الملوك الممالك، وقيام الدول، وأن ظهور الدول وفنائها، خارج عن فعله وتقديره وتدبيره، بل هو فقط بتغلب الملوك بعضهم على بعض، واستطالة القوى منهم على الضعيف والكبير على الصغير.

وقد أبطل الإمام الرازي هذا القول، لأنه نفى للصانع سبحانه وتعالى، ورد لقيوميته على خلقه، وتكذيب لما أكده سبحانه لنفسه في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[1] فقرر تعالى أن الملك بيده، يؤتيه لمن شاء وليس لمن يستحق..

فقد شاء الله تعالى أن يملك النمرود، وهو أكفر وأظلم أهل زمانه، وهو المخاصم لخليله إبراهيم عليه السلام، نبي زمانه حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[2] فكان ملك النمرود بإيتاء الله تعالى له، رغم ظلمه وجبروته..

---

١ ـ سورة البقرة: آية ٢٤٧.   ٢ ـ سورة البقرة: آية ٢٥٨.

وهذه الآية حجة على المعتزلة والخوارج، الذين منعوا ايتاء الله تعالى الملك للكافرين أو الظالمين، **قال الإمام البيضاوي في تفسيرها ج١ ص٥٥٩: «أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك الكافر من المعتزلة»انتهى.**

وقال الإمام أبو السعود في تفسيره ج١ ص٢٩٢: ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتى إياه حيث أبطره ذلك وحمله على المحاجة أو حاجه لاجله وضعا للمحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر كما يقال عاديتني لأن أحسنت إليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك للكافر»انتهى.

قلت: وقد شاء الله تعالى لفرعون أن يملك، وشاء لجالوت أن يملك، وشاء لغيرهما من الظالمين المتجبرين أن يملكوا، وهذا بعيد عن الاستحقاق لكل منهم، في أعين الناظرين، بحسب النظرة القاصرة، والفكرة العقيمة، لسنن التمكين والملك، ولتصور الإرادة النافذة، والقدرة القديرة، لمالك الملك، أي مالك جنس الملك على الإطلاق، يؤتي الملك من يشاء، امتحانا وابتلاءً، وينزع الملك ممن يشاء، عقوبة وإذلالا، عند نفاد الفترة، وانتهاء المدة، لتبدو للمعتبرين العظة، ولتكون آيات للمتوسمين، وإنها لبسبيل مقيم...

ثم قرر الإمام الرازي رحمه الله تعالى الأمر الثاني الذي افترضه في حصول الملك وهو الأسباب الربانية فرده أيضا حيث قال «حصول الملك للظالم إما أن يقال: إنه وقع لا عن فاعل وإنما حصل بفعل ذلك المتغلب، أو إنما حصل بالأسباب الربانية، والأول نفى للصانع والثاني باطل لأن كل أحد يريد تحصيل الملك والدولة لنفسه ولا يتيسر له البتة، فلم يبقى إلا أن يقال بأن ملك الظالمين إنما حصل بإيتاء الله تعالى، وهذا الكلام ظاهر» انتهى كلام الإمام الرازي.

قلت: فانظر إلى قوله رحمه الله عن الأمر الثاني، الذي افترضه في حصول الملك، وهو الأسباب الربانية، حيث قال عنه: «والثاني باطل لأن كل أحد يريد تحصيل الملك والدولة لنفسه ولا يتيسر له البتة» وهذا مشاهد معلوم، حيث إن الناس على مر العصور والأجيال، يسعون في تحصيل الأسباب، للحصول على الملك والسلطان، ولا يتيسر لهم ذلك، ويقعون في البلاء والفتنة، رغم تناولهم لكل الأسباب التي تمكنهم من ذلك، وتعينهم عليه، فتخذلهم الأسباب، وتسير بهم ضد ما يريدون..

فلم يبق إلا الإقرار بالأمر الصحيح، وهو الثالث، الذي تؤيده الأدلة النقلية المتواترة، والعقلية المترادفة..

وهو أن يقال بأن ملك الظالمين، إنما حصل بإيتاء الله تعالى، وهذا ما عليه أدلة الكتاب والسنة، **وهو منهج أهل السنة والجماعة،** وقد أكد الله تعالى ايتاءه الملك لمن شاء، ظالمين أو صالحين، وقرر ذلك في آيات الذكر الحكيم، وقصص الأنبياء والمرسلين..

وهو يرشد أهل الإسلام بذلك، عن طريق كتابهم، المقروء بين أيديهم، الخالد بأحكامه وشرائعه وأصوله فيهم. .

وقد بين فيه أن سبل الاستخلاف، وطرق التمكين، إنما هي سنن ثابتة، أجراها على الأولين، المصطفين والمرسلين، ويمضيها في الآخرين، إن استنوا بسننهم، ووافقوا هديهم، ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[1].

وهذا ما عليه أئمة أهل السنة والجماعة، أن الملك والتمكين إنما هو بقدر الله تعالى ومشيئته، فهو قدري لا كسبي.

---

١ ـ سورة الأنعام: آية ٩٠.

وقد أورد الإمام الرازي في تفسيره المجلد١٢ ص٢٨٧:

شبهة أخرى لـلمعتزلة وإمامهـم الجبائي مقررا مذهب أهـل السنة والجماعة في أن الملك بيد الله تعالى يؤتيه من شاء وذلك في سورة القصص فقال: {أما قوله تعالى ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[1].

فاعلم أن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبرياء الشأن، قال عليه السلام فيما حكى عن ربه «الكبرياء ردائي والعظمة إزراي، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار»[2] وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق.

(المسألة الثانية) قال الجُبَّائي: الآية تدل على أنه تعالى ما أعطاه الملك وإلا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب، لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم أن ملكهم من الله تعالى فإن الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله أنه أخذ ذلك بغير حق.

واعلم أن هذا ضعيف لأن وصول ذلك الملك إليه، إما أن يكون منه أو من الله تعالى، أولا منه ولا من الله تعالى، فإن كان منه فَلِمَ لَمْ يَقدر عَليه غيره، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح الفرض وإن كان من سائر الناس فلِمَ اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟ واعلم أَن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل} انتهى كلام الإمام الرازي

---

١ ـ سورة القصص: آية ٣٩.

٢ ـ رواه الإمام أبو داود في السنن ج٤ ص٥٩ باب ما جاء في الكبر، والإمام ابن ماجه في السنن ج٢ ص١٣٩٧ باب البراءة من الكبر والتواضع، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص٢٤٨، ٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢، والإمام ابن حبان ج٢ ص٣٥، ج١٢ ص٤٨٦ باب التواضع والكبر والعجب.

قلت: فانظر إلى ادعاء الجُبَّائي إمام المعتزلة، أنَّ إيتاء الملك لفرعون لم يكن من الله تعالى، وأنه ما أعطاه الملك، وإلا لكان ذلك بحق، ومثل فرعون كل متغلب بالقوة للحصول على الملك، لأن الله تعالى قد بين، في كل غاصب لحكم الله، أنه أخذ ذلك بغير حق مستدلا بقوله تعالى: ﴿**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾.

وقد رد الإمام الرازي على الجُبَّائي في ادعائه هذا، بأن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وحده، وهو المتكبر في الحقيقة، أي المبالغ في كبرياء الشأن..

واستدل على ذلك بقول النبي ﷺ فيما حكى عن ربه: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار**» وكل مستكبر سواه، فاستكباره بغير الحق..

فقرر الإمام الرازي أن الاستكبار بالحق، إنما هو من الخالق سبحانه وحده، لا من المخلوق، وكل استكبار من المخلوق فهو بغير الحق..

على أي صفة كان إيتاء الله تعالى له ملكه، متغلبا أم ليس بمتغلب، مستحقا للملك أم ليس بمستحق، عادلا في ملكه أم ظالمًا، يصلح للملك أو لا يصلح، وأن وصول ذلك الملك إليه، إنما هو من الله تعالى عل كل حال...

وانظر إلى كلامه رحمه الله تعالى، وهو يرد على الجُبَّائي إمام المعتزلة شبهته، حيث يقول: «**واعلم أن هذا ضعيف لأن وصول ذلك الملك إليه، إما أن يكون منه أو من الله تعالى، أو لا منه ولا من الله تعالى، فإن كان منه فَلِمَ لم يقدر عليه غيره، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح**

الفرض وإن كـان من سائر النـاس فلمَ اجتـمعت دواعي النـاس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟

واعلم أن هذا أظـهر من أن يرتاب فيـه العاقل» انتهـى كلام الإمام الرازي.

فبيَّن رحمه الله تعالى، أن وصول المـلك إلى هذا الظالم، إما أن يكون منه، وفي هذه الحالة لمَ لم يقدر عليه غيره؟!

حيث إن سواه ممـن يطلب الملك، ويـعجز عنه، قد يـكون أقوى وأعقل بكثير منه، ومع ذلك هو الذي يحصل على الملك دونهم..

وأما أن يكـون وصول الملك إلـيه من الله تعالـى، وحينئـذ يصح الفرض الذي قـرره من قبل، وهو أن الملـك بيد الله تعالى يـؤتيه من يشاء، مستحقا كان أم غير مستحق، وينزعه ممن يشاء، فهو أمر قدري من الله تعالى لمن شاء..

وأما أن يكون وصـول الملك من سائر الناس، وهـنا أجاب الإمام الرازي بإنه إن كان الأمـر كذلك، فِلمَ اجتمعت دواعـي الناس، على نصرة أحدهما وخذلان الآخر؟

فبان من هـذه الفروض التي افتـرضها، صحة ما ذهـب إليه أهل السنـة والجماعة، أن المـلك بيد الله تـعالى يؤتـيه من يشـاء، لا من يستحق، وهو قدري لا كسبي، وهذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل، أو يتحير فيه الناظر.

ولنستمع الآن إلى الإمام الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١٣ ص٤٥٨ وهو يقرر مذهب أهل السنة في ذلك، ويرد على المعتزلة شبهتهم في إيتاء الملك، وأنه لمن شاء الله تعـالى، مستـحقا كان أم ليـس بمستحق، يـصلح للـملك أم لا يصلـح، من غير رعـاية استحقـاق، ولا وجوب ولا أصلح، بـل يؤتى

الملك من يكفر بـه، ويكفر نعمته حتى يهلكه، وهـذا حدث مع كثير من الكـفار، مثـل نمرود والفـراعنة، ويؤتـيه إذا شاء وأراد، مـن يعدل فـيه ويرحـم، ويؤمن بـه سبحانـه ويدعو إلـى دينـه، كالصـفوة من المـلوك الأنبـياء، مثل يـوسف وداود وسلـيمان عـليهم الـسلام، وأنه فـي كلا الأمرين، إنما يمضي علمه وحكمته، وكامـل تقديره وقـيومـيته، فـقال رحمه الله تعالى مـتحدثا عن المعتزلة، الذيـن زلُّوا في ذلك: «وقالوا في قوله تعالى ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي يعطِي من اقتضته الحكمة الملك، يريدون أن الحكمة تـقتضي رعاية المصلحة ويـدعون وجوب ذلك على الله، تعالى الله عن قـولهم، وظاهر الآية أن يعطي المـلـك من يشاء سواء كان متصفا بصـفات من يصلح للملك أم لا من غيـر رعاية استحقاق ولا وجوب ولا أصلح بـل يؤتي الملك من يكفـر به ويكفر نعمـته حتى يهلكه ككثير من الكفار مثـل نمرود والفراعنة، ويؤتيه إذا شاء من يؤمن به ويـدعو إلى ديـنه ويرحـم به الخلق مـثل يوسـف وداود وسليـمان، وحكمته في كـلا الأمرين علمه وأحكامه بإرادته تخـصيص مقدوراته» انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

قلت: وقـد قرر ذلك أيضًا الإمام الـنسفي فـي تفسيره، حـيث بين زلل المعتزلـة ومن تبعهم، في إيتاء الله تـعالى الملك، وأنه سبحـانه يؤتيه من يشاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿أن آتاه الله الملك﴾وجعل ذلك دليلاً على المعتزلة في الأصلح..

فقال رحـــمه الله تعالى في ج١ ص١٧٢ «أن آتاه الله الملك» لأن آتاه الله. يعني أن إيـتاء الملك أبطره وأورثه الـكبر فحاج لذلـك. وهو دليل على المعتـزلة في الأصلح أو حاج وقت أن آتاه الله الملـك». انتهى كلام الإمام النسفي.

وقال الإمام القرطبي في تفسيره، وهو يبين منهج أهل السنة والجماعة في إيتاء الملك وأنه أمر قدري وهبي، لمن شاء الله تعالى لا لمن يستحق، وإنما هو باصطفاء واختيار الله عزّ وجلّ، وذلك في ج٢ ص١٠٥٤ فقال: (قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾[1] أي كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه؟ جروا على سنتهم في تعنيتهم الأنبياء وحيدهم عن أمر الله تعالى فقالوا: «أنى» أي من أي جهة، فـ «أنى» في موضع نصب على الظرف، ونحن من سبط الملوك وهو ليس كذلك وهو فقير، فتركوا السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، حتى احتج عليهم نبيهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ﴾ أي اختاره وهو الحجة القاطعة، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت، وهو بسطته في العلم الذي هو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو مُعينه في الحرب وعدته عند اللقاء، فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس وأنها متقدمة عليه، لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته، وإن كانوا أشرف منتسبا» انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فانظر أخي الصالح، إلى هذا الإمام المجتهد، وهو يقرر حال المتعنتين على الأنبياء، الحائدين عن أمر الله تعالى في سنن التمكين والنصرة..

المعترضين على تمكين واستخلاف غيرهم، مع كونهم مستحقين لأسباب التملك، لذلك استبعدوا الأمر من نبيهم في ذلك، وحاولوا دفعه بكونهم أحق بالملك، وأجدر للتمكين..

---

١ ـ سورة البقرة: آية ٢٤٧.

وكيف تعجَّب الإمام القرطبي من قولـهم، وعاب سبيلهم بقوله: **«فتركوا السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، حتى احتج عليـهم نبيهم بـقوله «إن الله اصطفاه» أي اخـتاره وهو الحجة القـاطعة»** انتهى.

فيا من غفل عن السبب الأقوى لـلتمكين والاستخلاف، وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، في الاصطـفاء أو الاختيار، احذر من تنكب الجادة، ومـن الزلل فـي مصـادمة المشـيئة الـنافـذة، والإرادة الحكيـمة، والاعتراض والمخالفة والمصادمة لما لا يتحول ولا يتبدل..

حيـث أن الاصطـفاء والاخـتيار هـو من الله تـعالـى، وهو الحـجة القاطعة، لأنه مالك الملك على الإطلاق، فله أن يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء..

وهذا الـذي أكده الإمام الـشوكانـي في فـتح القـدير ج١ ص٣٩٣ حيث قال: «وقوله اصطفـاه عليكم» أي اختاره واختـيار الله هو الحجة القاطـعة ثم بين لهـم مع ذلك وجه الاصـطفاء: بأن الله زاده بـسطـة في العلم الذي هـو ملاك الإنسان ورأس الفضائل وأعظم وجـوه الترجيح وزاده بسطة فـي الجسم الذي يظهـر به الأثر في الحروب ونحـوها فكان قويا فـي دينه وبدنـه وذلك هو المعـتبر، لا شرف الـنسب. فإن فـضائل النفس مقـدمة عليه «والله يؤتى ملكـه من يشاء» فالملك ملكـه والعبيد عبـيده، فـما لـكم والاعـتراض عـلى شـيء ليـس هو لـكم ولا أمـره إليكـم»انتهى.

قلت: فانظر إلى قوله رحمه الله واخـتيار الله هو الحجة القاطعة، فلا اعتراض مـن المخلوق على اختـيار الخالق، لأنه سـبحانه وتعالـى جعل اختياره حجة قاطعة على أي مخلوق..

حتى لا يسلك سبيل الاعتراض والرد والتشغيب على اختياره أحد، لأن هذا شيء ليس لنا، ولا أمره إلينا، فالملك ملكه والعبيد عبيده.

والله تعالى هو الحاكم في ملكه، يفعل ما يشاء بعلمه وحكمته، وهو المقرر من يليق بالملك، ممن لا يليق ﴿لا يسأل عما يفعل وهو يسئلون﴾.

قال الإمام ابن كثير مقررا مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك. ج١ ص٣٠٢ «والله يؤتى ملكه من يشاء» أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ولهذا قال والله واسع عليم أي هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

قلت: لذلك لما خالف بنو إسرائيل، في ذلك ولم يخضعوا لما قدره الله تعالى وقضاه، في سنن الملك والتمكين، كان الرد عليهم «والله يؤتى ملكه من يشاء».

قال العلامة القرطبي في تفسيرها: «ذهب بعض المتأولين إلى أن هذا من قول الله عزّ وجل لمحمد ﷺ وقيل: هو من قول شمويل وهو الأظهر. قال لهم ذلك لما علم من تعنتهم وجدالهم في الحجج، فأراد أن يتمم كلامه بالقطعي، الذي لا اعتراض عليه فقال الله تعالى: «والله يؤتي ملكه من يشاء» انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فكانت الآية ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾ من القطعي الذي لا اعتراض عليه، أن أمر التمكين والملك، إنما هو بقدر ـ الله تعالى ـ لمن شاء، في الوقت الذي يشاء..

والخطاب على الاحتمال الأول، وهو أنه من الله تعالى، إلى النبي محمد ﷺ هو إرشاد لأمته، وبيان لسنته في ذلك..

وعلى الاحتمال الثاني، أنه من النبي شمويل إلى بني إسرائيل، فيكون لأمة الإسلام عبرة وعظة، وسنة تُحتذى، حتى لا يتقدم أحد من الأمة، على غير منهج الأنبياء، وسبل الأصفياء، في سنن التمكين.

وقال الإمام الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج٢ ص١٦٧ وهو يشير إلى أصول أهل السنة والجماعة في ذلك:

«والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم» رد عليهم بأبلغ وجه وأكمله كأنه قيل لا تستبعدوا تملكه عليكم لفقره وانحطاط نسبه عنكم أما أولا فلأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اصطفاه واختاره وهو سبحانه أعلم بالمصالح منكم، وأما ثانيا فلأن العمدة وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية وجسامة البدن ليكون أعظم خطرا في القلوب وأقوى على كفاح الأعداء ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم وقد خصه الله تعالى بحظ وافر منهما، وأما ثالثا فلأنه تعالى مالك الملك على الإطلاق وللمالك أن يمكن من شاء من التصرف في ملكه بإذنه، وأما رابعا فلأنه سبحانه واسع الفضل يوسع على الفقير فيغنيه (عليم) بما يليق بالملك من النسيب وغيره» انتهى كلام الآلوسي.

قلت: فتأمل قوله رحمه الله تعالى «وأما ثالثا فلأنه تعالى مالك الملك على الإطلاق وللمالك أن يمكن من شاء من التصرف في ملكه بإذنه».

كيف أكد مذهب أهل السنة والجماعة، أن الملك بيد مالك الملك على الإطلاق، وهو الله تعالى، الذي يؤتيه من يشاء لا من يستحق، فللمالك أن يمكن من شاء من التصرف في ملكه بإذنه..

خلافا للمعتزلة والخوارج، الذين قصروا الملك وإيتاءه على أهل العدل والإحسان، ولم يُسلموا أنه بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء، عدلا كان أم ليس بعدل، مستحقا أم ليس بمستحق، لأن وراء ذلك علمه وحكمته، التي لا يحيط بها عباده وخلقه..

قال الإمام القرطبي في تفسيره ج١ ص٤٩٤ وهو يحذر من مذهب المعتزلة والخوارج في ذلك: الحادية والعشرون ـ استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل، مع القوة على القيام بذلك وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمر أهله، على ما تقدم من القول فيه. فأما أهل الفسوق والجور فليسوا بأهل، لقوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمين﴾ ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التي أوقعها بهم عقبة بن مسلم. والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض. والأول مذهب طائفة من المعتزلة، وهو مذهب الخوارج فاعلمه» انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فانظر إلى المعتزلة والخوارج، كيف قصروا الإمامة والملك على أهل العدل والإحسان والفضل، مع القوة على القيام بذلك، وزعموا أن هذا الصنف هو الذي أمر النبي ﷺ ألا يُنازعوا في الملك والأمر، أما أهل الفسق والجور، فلا يجوز عندهم أن يؤتيهم الله الملك، لكونه منعهم ابتداءً منه بقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمين﴾.

وعلى هذا أجازوا الخروج عليهم.

وقد أجاب شيخ الإسلام الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم ج١٢ ص٢٢٩ على شبهة المعتزلة والخوارج في ذلك، عند كلامه على حديث عبادة بن الصامت «دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويُسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[١] .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه للحديث «إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم من الله فيه برهان» هكذا هو لمعظم الرواة وفي معظم النسخ بواحا بالواو وفي بعضها بواحا والباء مفتوحة فيهما ومعناهما كفرًا ظاهرًا والمراد بالكفر هنا المعاصي ومعنى عندكم من الله فيه برهان أي تعلمونه من دين الله تعالى ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم مُنكرًا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فانكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل وحُكي عن المعتزلة أيضًا فغلط من قائله مخالف للإجماع قال العلماء وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه» انتهى كلام الإمام النووي.

---

١ ـ أخرجه الإمام البخاري ج٦ ص٢٥٨٨ باب «قول النبي ـ ﷺ ـ: «سترون بعدي أمورا تنكرونها» وقال عبدالله بن زيد قال النبي ـ ﷺ ـ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»، وأخرجه الإمام مسلم ج٣ ص١٤٧٠ باب «وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في معصية»، وأخرج الإمام أحمد ج٥ ص٣١٤ .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى أيضًا في شرح صحيح مسلم ج١٢ ص٢٢٩ وهو يجيب على شبهة المعتزلة والخوارج في ذلك: «وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يُخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك بل يجب وعظه وتخويفه للأحاديث الواردة في ذلك قال القاضي وقد ادَّعى أبو بكر بن مجاهد في هذا الإجماع وقد رد عليه بعضهم هذا بقيام الحسن[1] وابن الزبير وأهل المدينة على بني أمية وبقيام جماعة عظيمة من التابعين والصدر الأول على الحجاج مع ابن الأشعث وتأول هذا القائل قوله أن لا ننازع الأمر أهله في أئمة العدل وحجة الجمهور أن قيامهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق بل لما غير من الشرع وظاهر من الكفر قال القاضي وقيل أن هذا الخلاف كان أولا ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم والله أعلم» انتهى كلام الإمام النووي.

قلت: فانظر إلى جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، «أن الإمام لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه للأحاديث الواردة في ذلك»..

وذهاب الإمام أبي بكر بن مجاهد إلى الإجماع على ذلك، وكيف رد عليه من ذهب إلى رأي المعتزلة والخوارج في هذا، بقيام الحسين رضي الله عنه وابن الزبير رضي الله عنه وقيام أهل المدينة على بني أمية..

وقيام جماعة عظيمة من التابعين والصدر الأول على الحجاج مع ابن الأشعث، وتأول هؤلاء قوله صلى الله عليه وسلم : **«أن لا ننازع الأمر أهله»** في أئمة العدل لا الجور..

---

١ ـ كذا في الأصل والصحيح الحسين.

وكيف أجاب الجمهور من أهل السنة والجماعة، على هؤلاء فيما ذهبوا إليه، بأن قيام من قام على الحجاج لم يكن لفسقه وظلمه، بل لما غير من الشرع، وظاهر من الكفر..

وكيف أجاب القاضي على بقية كلامهم السابق، في خروج الحسين ﷺ وابن الزبير ﷺ وأهل المدينة على بني أمية، أن هذا كان تحت الخلاف في جواز ذلك أولا، ثم ارتفع الخلاف بعد ذلك، وأجمعت الأمة على منع الخروج عليهم، واستمر هذا الإجماع بعد ذلك، وهو الذي نقله الإمام النووي في شرح صحيح مسلم، ونقله غيره من أئمة أهل السنة..

وهذا الذي قرره الإمام النووي عن جماهير أهل السنة والجماعة، هو الذي أكده الإمام القرطبي رحمه الله في النص السابق، الذي أوردناه عنه وذلك **بقوله: «والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض. والأول مذهب طائفة من المعتزلة، وهو مذهب الخوارج فاعلمه».**

وها هو الإمام الشوكاني في السيل الجرار ج٤ ص٥١١ مؤكداً مذهب أهل السنة والجماعة، فقال رحمه الله: «وقد قدمنا أنها قد تواترت الأحاديث في النهي عن الخروج على الأئمة ما لم يظهر منهم الكفر البواح أو يتركوا الصلاة فإذا لم يظهر من الإمام الأول أحد الأمرين لم يجز الخروج عليه وإن بلغ في الظلم أي مبلغ لكنه يجب أُمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بحسب الاستطاعة وتجب طاعته إلا في معصية الله سبحانه وتعالى»انتهى.

وقال الإمام ابن عبدالبر في التمهيد ج٢٣ ص٢٧٨ مقررا مذهب أهل السنة السابق: «وأما قوله وأن لا ننازع الأمر أهله فاختلف الناس في ذلك فقال قائلون أهله أهل العدل والإحسان والفضل والدين فهؤلاء لا يُنازعون لأنهم أهله وأما أهل الجور والفسق والظلم فليسوا له بأهل ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

وإلى منازعة الظالم الجائر ذهبت طوائف من المعتزلة وعامة الخوارج. وأما أهل الحق وهم أهل السنة فقالوا هذا هو الأختيار: أن يكون الإمام فاضلا عدلا محسنًا فإن لم يكن، فالصبر على طاعة الجائرين من الأئمة أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ولأن ذلك يحمل على هراق الدماء وشن الغارات والفساد في الأرض، وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه، والأصول تشهد والعقل والدين أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك. وكل إمام يقيم الجمعة والعيد، ويجاهد العدو ويقيم الحدود على أهل العداء وينصف الناس من مظالمهم بعضهم لبعض وتسكن له الدهماء وتأمن به السبل فواجب طاعته في كل ما يأمر به من الصلاح أو من المباح» انتهى كلام الإمام ابن عبدالبر.

قلت: فتقرر من كلام أئمة أهل السنة، أصولهم الوثيقة وقواعدهم الثابتة، في سنن الملك والتمكين، وأنه أمر قدري لمن شاء الله تعالى لا لمن يستحق: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾[2].

وأن هذا الأمر قائم على أسباب غيبية من الإيمان والأعمال الصالحة، وأن أصل السعي فيه هو للمطلوب منا لا للموعود لنا ...

---

١ ـ سورة البقرة: آية ١٢٤.
٢ ـ سورة آل عمران: آية ٢٦.

أصل السعي فيه للمطلوب منا من قيام الإيمان والأعمال الصالحة، وكمال الإمتثال والتقوى، ثم يأتي بعد ذلك دور الأسباب المحسوسة، من اتخاذ أسباب القوة المأمورين بامتلاكها والاعداد لها، وليس أصل السعي فيه للموعود لنا من الاستخلاف وحصول الملك، بدون قيامنا على مقصد وجودنا والمطلوب منا..

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

قال الإمام ابن زيد في قوله تعالى ﴿أوفوا بعهدي أوفوا بعهدكم﴾[2] قال: «أوفوا بأمري أوف بالذي وعدتكم»انتهى.

فالاستخلاف والتمكين أمر وهبي لا كسبي، مرتبط بالمشيئة العليا للمولى عزّ وجلّ، وفق علمه وتقديره وحكمته، فهو تعالى يؤتى ملكه من يشاء..

وكما قال الحافظ ابن حجر في شرح صحيح البخاري: «سواء كان متصفا بصفات من يصلح للملك أم لا من غير رعاية استحقاق ولا وجوب ولا أصلح بل يؤتى الملك من يكفر به ويكفر نعمته حتى يهلكه ككثير من الكفار مثل نمرود والفراعنة، ويؤتيه إذا شاء من يؤمن به ويدعو إلى دينه ويرحم به الخلق مثل يوسف وداود وسليمان، وحكمته في كلا الأمرين علمه وأحكامه بإرادته تخصيص مقدوراته».

انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

وفي ما قال البيان الشافي الكافي، لمن أراد الوقوف على مذهب أهل الحق أئمة أهل السنة والجماعة في ذلك..

نسأل المولى عزّ وجلّ أن يتوفانا على هديهم وآثارهم، وأن يحشرنا معهم، في زمرة النبي المصطفى ﷺ وأصحابه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. آمين.

---

١ ـ سورة النور: آية ٥٥. ٢ ـ سورة البقرة: آية ٤٠.

التمكين أمر قدري وهبي
لمن شاء الله تعالى
لا كسبي

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾[1].

ودار زمان الرجاء بالمستضعفين من بني إسرائيل، قبل مجيء النبي الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم، وكلما اشتدت الآلام أضاءت الآمال، أن نبيهم أوشك زمانه، وحلت أيامه..

حتى بلغ موسى عليه السلام أشده واستوى، وآتاه الله حكما وعلما، وأوحى الله عزّ وجلّ إليه بالرسالة، المبينة لسنن النبوة..

وقد قضى الله تعالى في سننه، أن صور الأعمال ليس عليها وعده بالنصرة والتأييد، بل وعد نصرة الله تعالى على الحقيقة لا على الصورة، فكل موعودات الله تعالى تكون على الحقائق، لا على الأسماء والأشكال والصور. ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[2].

فللحصول على صور الأعمال لا نحتاج إلى جهد كثير، أما إذا أردنا الحصول على حقائق الإيمان والأعمال، فهذا يحتاج منا إلى بذل الجهود الكثيرة، عندها مع اتصافنا بحقيقة الدين والإيمان، لا تقف أمام هذه الحقيقة أي قوة من قوى المادة، أما إذا لم نتصف بحقيقة الدين والإيمان، وكان الذي معنا الصورة لا الحقيقة، فالصورة لا تقف أمام الماديات. . .

---

١ ـ سورة القصص: آية ١ : ٦.   ٢ ـ سورة النور: آية ٥٥.

فالموعود يكون على حقيقة الإيمان، وحقيقة الأعمال، لا شكل الإيمان وشكل الأعمال، قال ﷺ: **«رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر»**[1].

وفي رواية البخاري رحمه الله قال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجه في أن يدع طعامه وشرابه»[2].

هذه أشكال الأعمال، في الصلاة والصوم لاحقائقها، لذا لم تؤت ثمارها، وهي غير مطلوبة بذاتها، بل المطلوب هو حقائقها، نحن نسعى لطلب حقائق الإيمان والأعمال، لا أشكالها وأسمائها، فالأشكال والأسماء كانت في المنافقين أيضًا، ولم يكن معها وعد نصره الله تعالى، بدفع وإزهاق الباطل ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[3].

فصورة الحق لا تزهق الباطل، بل حقيقة الحق هي التي تبطل الباطل، فإذا كان الإيمان موجودا بالحقيقة، فهو يزهق الباطل، أما إذا كان الموجود صورة الإيمان، فالباطل يغلب..

فرعون أولاً كان عنده حقيقة الباطل، وعند بني إسرائيل صورة الإيمان، فكان يغلبهم ويقهرهم، وعندما أرسل موسى عليه السلام، أجتهد على بني إسرائيل، حتى جاء فيهم حقيقة الإيمان، فأبطلت الباطل..

---

١ ـ رواه الإمام ابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه الإمام أحمد ج٢ مسند أبي هريرة، ورواه الإمام الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وصححه الإمام السيوطي في الجامع الصغير.

٢ ـ رواه الإمام البخاري كتاب الصوم باب (من لم يدع قول الزول والعمل به في الصوم)، ورواه الإمام الترمذي ج٢ أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ باب (ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح.

٣ ـ سورة الأنبياء: آية ١٨.

وظل موسى عليه السلام يعمل لأكثر من أربعين عامًا، حتى يوقظ فيهم حقيقة الإيمان والأعمال، التي تتغلب على الباطل، والتي فيها فلاحهم، وبها يستعمل الله قدرته في نصرتهم، ويكسر أسباب المادة المخالفة لهم، والتي هي بمجملها في يد فرعون وحده..

وقد أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام بأغرب المطالب، وأعز الإرادات والمقاصد ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1] طاغية الزمان، أمر البعثة إليه لين البيان، وتأمل الرسالة فيه أن يتذكر أو يخشى..

وقد كان أمام موسى عليه السلام، مصاعب جمة، في دعوة فرعون الذي يبحث عنه، ويطلبه لقتل القبطي، ومصاعب ترك الزوجة والمال، ومع هذا قال الله تعالى له ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾[2]، ولم يكن ذلك عائقا له، عن مسئولية الدعوة وطلب النصح والهداية له..

ولم يكن الأمر إلى موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، للاستيلاء على ملكه، أو الحصول على سلطانه، وما كان كلام موسى عليه السلام على الحكم والحكام، بل عن التقوى والإيمان ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[3]، وأظهر له دلالة على صدقه الآيات، وأبان له بإذن ربه المعجزات ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾[4].

---

١ ـ سورة طه: الآية ٤٣، ٤٤.

٢ ـ سورة النازعات: آية ١٧.

٣ ـ سورة النازعات: آية ١٨، ١٩.

٤ ـ سورة النازعات: آية ٢٠: ٢٦.

وهذا هو باب نصرة الله تعالى، الموعود في منهج النبوة، حين يطلب النصح وهداية من أمامه، ويطلب من أمامه هلاكه وبواره، هنا تأتي نصرة الله الماضية، وتحنو عليه اليد الحانية﴿ **لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾**﴾[1].

وبدأت الدعوة تتوجه، وتشق طريقها إلى بني إسرائيل، وآمن بها المستضعفون منهم، والملأ من قوم فرعون يكيد لهم الأباطيل﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾[2].

وتعاظم البلاء ببني إسرائيل، وتكلموا مع الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم، فماذا كان جوابه لهم، وكيف كان خطابه معهم، هل أمرهم بالمصادمة، والوثوب على الظالمين، هل حفزهم لتغيير الملوك والسلاطين، هل رغبهم في الملك، وأخبرهم أن الحكم هو غاية المؤمنين..

فلنستمع إلى ما قاله الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[3].

فلم يتكلم عليه السلام إلا بمنهج النبوة والرسالة، حيث ربطهم ووصلهم بالخالق، أن يستعينوا به على المخلوق، وحثهم على الصبر فيما يلاقون..

١ـ سورة طه: آية ٤٦.

٢ ـ سورة الأعراف: آية ١٢٧.

٣ ـ الأعراف: آية ١٢٨.

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية المجلد٧ ص٢٤٣: فهنا أمرهم بشيئين وبشرهم بشيئين: فأما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما: فالأول: الاستعانة بالله تعالى.

والثاني: الصبر على بلاء الله، وإنما أمرهم أولا بالاستعانة بالله، وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله تعالى، انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره، واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

وأما اللذان بشر بهما:

فالأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومه في أن يورثهم الله تعالى فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث، وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: المراد أمر الدنيا فقط وهو: الفتح، والظفر، والنصر على الأعداء، وقيل المراد مجموع الأمرين.

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة» انتهى كلام الإمام الرازي.

وقال الإمام الطبري في تفسيره ج٩ ص٢٧: «قوله إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده» يقول إن الأرض لله لعل الله أن يورثكم إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون واحتسبتم ذلك واستقمتم فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين يقول والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه فخافه باجتناب معاصيه وأدى فرائضه»انتهى.

قلت: وكأني أنظر إلى كلام رسولنا الأكرم والنبي الأعظم، سيدنا محمد ﷺ، عندما أخبر صحابته ﷺ ماذا يفعلون عند تحقق الأمور المنكرة، وكأن صوته يتردد لنا ولهم، كما ورد في رواية عبدالله ابن زيد قال النبي ﷺ: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**» وهي التي ساقها الإمام البخاري في ترجمته [باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أموراً تنكرونها**» فكلمة الأمر بالصبر هي الكلمة، والوحي هو الوحي، والهدي هو الهدي، والوصية هي الوصية، ولكن الآذان بعيدة، تتخبط في حروف الهوى، وتتبع كل ناعق.

ثم أورد الإمام البخاري بعد هذه الترجمة حديث النبي ﷺ: «إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم»[1].

قال الإمام ابن حجر العسقلاني في الفتح ج١٣ ص٨ في شرحه على الحديث: قوله «وسلوا الله حقكم» وفي رواية الثوري «وتسألون الله الذي لكم» أي بأن يلهمهم إنصافكم أو يبدلكم خيراً منهم، وهذا ظاهره العموم في المخاطبين، ونقل ابن التين عن الداودي أنه خاص بالأنصار وكأنه أخذه من حديث عبدالله بن زيد الذي قبله، ولا يلزم من مخاطبة الأنصار بذلك أن يختص بهم فإنه يختص بهم بالنسبة إلى المهاجرين ويختص ببعض المهاجرين دون بعض، فالمستأثر من يلي الأمر ومن عداه هو الذي يستأثر عليه، ولما كان الأمر يختص بقريش ولاحظ للأنصار فيه خوطب الأنصار بأنكم ستلقون أثرة، وخوطب

---

١ ـ رواه الإمام البخاري ج٣ ص١٣١٨ «باب علامات النبوءة في الإسلام»، ورواه الإمام مسلم ج٣ ص١٤٧٢ «باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول»، ورواه الإمام ابن حبان ج١٠ ص (٤٤٧).

الجميع بالنسبة لمن يلي الأمر، فقد ورد ما يدل على التعميم، ففي حديث يزيد ابن سلمة الجعفي عند الطبراني أنه قال «يا رسول الله إن كان علينا أمراء يأخذون بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي لنا أنقاتلهم؟ قال: لا، عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»[1].

وأخرج مسلم من حديث أم سلمة مرفوعًا «سيكون أمراء فيعرفون وينكرون، فمن كره برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا»[2] ومن حديث عوف بن مالك رفعه في هذا المعنى «قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا الصلاة» وفي رواية له «بالسيف» وزاد وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة»[3] وفي حديث عمر في مسنده للإسماعيلي من طريق أبي مسلم الخولاني عن أبي عبيدة بن الجراح عن عمر رفعه قال: «أتاني جبريل فقال: إن أمتك مفتتنة من بعدك، فقلت: من أين؟ قال: من قبل أمرائهم وقرائهم، يمنع الأمراء الناس الحقوق فيطلبون حقوقهم فيفتنون، ويتبع القراء هؤلاء الأمراء فيفتنون. قلت: فكيف يسلم من سلم منهم؟ قال بالكف والصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه» انتهى كلام الإمام ابن حجر.

---

١ ـ رواه الإمام مسلم ج٣ ص١٤٧٤ «باب في طاعة الأمراء وإن منع الحقوق»، ورواه الإمام الترمذي ج٤ ص٤٨٨ «باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم».

٢ ـ رواه الإمام مسلم ج٣ ص١٤٨٠ «باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك»، ورواه الإمام أحمد ج٦ ص(٣٠٢).

٣ ـ رواه الإمام مسلم ج٣ ص١٤٨١ «باب خيار الأئمة وشرارهم» ورواه الإمام أحمد ج٦ ص(٢٨).

وقد أكد الإمام ابن كثير المعاني السابقة، في وجوب الطاعة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله فقال رحمه الله ج٣ ص٢٩٩: وقال قتادة في هذه الآية ﴿أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبيا بدريا أحد نقباء الأنصار أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك؟ قال: بلى قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله. وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

قلت: ولقد كان الصبر الذي أوصى به موسى عليه السلام بني إسرائيل، سببا في وراثتهم الأرض، وتمام كلمة الله الحسنى عليهم، ونجاتهم من فرعون، حين أجابوه إليه وصبروا، وكان هذا تعليما لأمة الإسلام، أن هذا هو السبيل، وتلك هي الجادة، مع الابتلاء من السلطان، وإظلام المكان..

وهو ما أورده العلامة الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج٩ ص٣٩ عن الحسن رحمه الله تعالى حيث قال: «بما صبروا أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه وحسبك بهذا حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى إليه ومن قابله بالصبر ضمن الله تعالى له الفرج.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن الحسن قال: «لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم بشيء صبروا ودعوا الله تعالى لم يلبثوا أن يرفع الله تعالى ذلك عنهم، ولكنهم يفزعون إلى السيف فيوكلون إليه ثم تلى هذه الآية وفي رواية أخرى عنه قال ما أوتيت بنو إسرائيل ما أوتيت إلا بصبرهم وما فزعت هذه الأمة إلى السيف قط فجاءت بخير وأقول قد شاهدنا الناس سنة الألف والمائتين والثمان والأربعين قد فزعوا إلى السيف فما أغناهم شيئا ولا تم لهم مراد ولا حمد منهم أمر بل وقعوا في حرة رحيلة، ووادي خدبات، وأم حبوكر، ورموا لعمر الله بثالثة الاثافي، وقص جناح عزهم القدامى والخوافي ولم يعلموا أن عيش المضر حلوه مر مقر وأن الفرج إنما يصطاد بشباك الصبر.

وما أحسن قول الحسن: عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله سبحانه وتلا الآية ويعلم منها أن التحزن لا ينافي الصبر لأن الله سبحانه وصف بني إسرائيل به مع قولهم السابق لموسى عليه السلام ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1]» انتهى كلام الإمام الآلوسي.

---

١ ـ سورة الأعراف: آية ١٢٩.

قلت: ولقد كان ابتلاء السلطان عقوبة من الله تعالى، وعقوبة الله تعالى إنما تنكشف بالتوبة والتضرع إليه، وفعل الطاعات، والإقلاع عن المعصيات، والتذلل والافتقار إليه، أما إذا قابلنا العقوبة من الله تعالى، بالاصطلام معها بالسيف، فإنها لا تنكشف عند ذلك، بل تأتي بالمهالك، وتتشعب وتتعاظم وتزداد، ويخلى الله تعالى بيننا وبين السيف، ويكلنا إليه، فتكون الفتن والدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، ووقوع البلاء على المسلمين..

قال الإمام السيوطي في الدر المنثور ج٤ ص٤٩: [وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال إن الحجاج عقوبة فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف ولكن استقبلوها بتوبة وتضرع واستكانة..

وأخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال: كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانكم عقوبة.

وأخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال: قرأت في بعض الكتب «إني أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي فلا تشغلوا قلوبكم بسب الملوك وادعوني أعطفهم عليكم»] انتهى كلام الإمام السيوطي.

وبعد أن تشنفت الأسماع بكلام النبوة وهدْى الرسالة، في التقدم والتأخر، عند ظهور الأمور المنكرة في الشرع، نعود إلى الكليم موسى عليه السلام في نصحه لقومه، فقد عقب الكليم سيدنا موسى عليه الصلاة والتسليم بعد الأمر لهم بالصبر، ببيان منهج النبوة والدعوة، في سنن التمكين والنصرة، فقال عليه السلام: ﴿**إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾.

فالأرض لله تعالى وحده، وهو الذي يُورثها من يشاء بمشيئته، وينزعها بمشيئته ممن يشاء، وفق سننه التي قدّرها في الاستخلاف والتمكين، وانظر إلى قوله عليه السلام «يورثها» ولم يقل يتوارثها الناس، استلابا بسعيهم، وحيازة بتدبيرهم. . .

ثم بين عليه السلام أن أساس ذلك التمكين، وهذا الاستخلاف أسباب غيبية، تتمثل في الإيمان والأعمال الصالحة، وصفات التقوى، فالعاقبة للمتقين، والنصرة للخائفين من ربهم، الحذرين في أوقاتهم وأيامهم. . . .

وجاء قوم موسى عليه السلام يهتفون برسولهم، طلبا للعون والنجاة فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

قالوها شكاية وتألما وحزنا، ولم يتحاشوا في مجانبة الأدب الواجب، مع نبيهم ورسولهم، أو إصلاح العبارة وتنقية الحروف، فخرجت الكلمات فظة لاذعة قاسية، وكأنهم يعنون تلميحا، أن نبيهم هو سبب محنتهم، تشائما منه وإزراءً عليه، وصرحوا أن أسباب المعاناة في رسولهم الكريم عليه الصلاة والتسليم!!

فبسببه قبل ولادته كان الإيذاء والقتل والاستحياء، وكان فرعون يأخذ منهم الجزية، ويستخدمهم في الأعمال الشاقة، ويمنعهم من التنعم والترفه، وبسببه عليه السلام أيضًا بعد بعثته، كان الذبح والتنكيل والابتلاء، ولم يعلموا ما قدره الله تعالى وقضاه في ذلك..

أورد الإمام السيوطي في الدر المنثور ج٣ ص١٠٧ قال: «وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى: كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضا. فقال موسى: أي رب، أهلك فرعون حتى متى تبقيه. فأوحى الله إليه إنهم لم يعملوا الذنب الذي أهلكهم به» انتهى كلام الإمام السيوطي.

جميع الموعودات من الله تعالى على الإيمان والأعمال

وهذا الذي قاله بنـو إسرائيل، تضجرا لموسى علـيه السلام، هو قول البعض تلميحا، بعدم إظهـار سنة النبي ﷺ وإخفائها، والتأخر عن التزامـها، لدفع الضرر الناشـيء من ذلك بزعمهم، لأنـها تأخر دعوتهم، إذا ما عُرفوا بالانتساب لها...

على أن كل من يجتهد للدين هـو يتحمل المشقة، والله تعالى بين في قصـة موسى عليـه السلام مع قومه، فـي الكلام السابـق، أننا لا نشكـو للناس، فـرعون يفعل كـذا ويفعل كـذا، بل إن بني إسـرائيل عندما كانوا يشكون إلـى موسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

نهاهـم الله عن هذا، وأمرهـم بإقامة الصـلاة، والاستقامـة على أمره، وأن يجـعلوا بيـوتهم قبـلة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير في قـصص الأنبياء ص٣٤٩: «وقوله ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قيل مسـاجـد وقيل معناه كـثرة الصلاة فيها قالـه مجاهد وأبو مالك وإبـراهيم النخعي والـربيع والضحاك وزيد بـن أسلم وابن عبدالرحمن وغيرهم.

ومعـناه على هـذا: الاستعـانة على مـا هم فيـه من الضر والـشدة والضيق بـكثرة الصلاة، كما قـال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البـقرة:٤٥] وكان رسـول الله ﷺ إذا حزبه أمـر صلـى» انتهـى كلام الإمام ابن كثير.

---

١ ـ سورة يونس: آية ٨٧.

قلت: فالله تعالى جعل الصلاة سببًا في زوال ملك فرعون، وجعل الصلاة سببًا في نصرة بدر، وقال تعالى في ذلك ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾.

فأنى لنا الآن في صلاة، نستنصر بها من الله تعالى فينصرنا، بنو إسرائيل عندما سألوا موسى عليه السلام، أن يدعو على فرعون لأنهم أبناء الأنبياء وهو كافر بقولهم ﴿ **أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا** ﴾.

أجابهم موسى عليه السلام **بتغيير حياتهم أولاً**، من جهة المعصية إلى جهة الطاعة، وعندما فعلوا أهلك الله تعالى فرعون..

وهذا ما أكده القرآن، أن الله تعالى لا يغير ما بقوم من النعم والمنن، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الامتثال والطاعة، قال الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير ج٢ ص٣٢٠: «يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[2].

وقوله (كدأب آل فرعون) أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين» انتهى.

---

١ ـ الأنفال: آية (٥٣).

٢ ـ سورة الرعد: آية ١١.

وقال الإمام ابن كثير أيضًا في ج٢ ص٥٠٤: «وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك أنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون. ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ انتهى.

فإذا وجدت المصائب والعقوبات فهذا سببه التحول من جهة الطاعة إلى جهة المعصية، ولرفع العقوبات وازالتها كذلك لابد من التحول والتغير من جهة المعصية إلى طريق الامتثال والطاعة..

وبذلك ورد البيان وأفصح القرآن، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

قال الإمام القرطبي في تفسيره ج٩ ص٢٩٤: «وقال العلماء رضوان الله عليهم إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره والآخر قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ. قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير إما منهم أو من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم إلى غير هذا من أمثلة الشريعة فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما قال - ﷺ - وقد سئل

أنهلك وفينا الصالحون؟! قال نعم إذا كثر الخبث والله أعلم قوله تعالى ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ أي هلاكا وعذابا ﴿فلا مرد له﴾ وقيل إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مرد لبلائه وقيل إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه (وما لهم من دونه من وال) أي ملجأ وهو معنى قول السدي وقيل من ناصر يمنعهم من عذابه» انتهى كلام الإمام القرطبي.

وقال الإمام الرازي في تفسيرها في تفسيره ج٩ ص٢٠٩:

{أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد} انتهى كلام الإمام الرازي.

قلت: بنو إسرائيل تعلموا بسرعة، فجاءت معية الله معهم، بعد أن تغيروا ولكننا نحتاج إلى فترة طويلة ﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾.

نحن نحتاج إلى مدة، حتى نعلم أن تغيير أحوالنا، مترتب على تغيير أعمالنا، من جانب المخالفة والمعصية، إلى جانب الموافقة والطاعة.

وهذا الذي ذكره الإمام الطبري في تفسيره المجلد ٨ ص١٥٩ حيث قال: {يقول تعالى ذكره «إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره» انتهى.

لما تركنا أمر الله تعالى وسنة النبي ﷺ ولو معنا جميع الأسباب نكون أسفل من الآخرين ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

قال الإمـام القـرطبي ج٣ ص١٤٥٩ : «وأنـتم الأعـلون» أي لـكم تكون العاقبة بـالنصر والظفر إن كنتم مؤمنـين أي بصدق وعدي وقيل إن بمعنى إذ قال ابن عباس انـهزم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد فبينـا هم كذلك إذا أقبل خـالد بن الوليد بـخيل من المشركـين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبي ﷺ اللهم لا يعلن علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك اللـهم ليس يعبـدك بهذه البلدة غـير هؤلاء النفر فـأنزل الله هذه الآيات وبـات نفـر من المسلـمين رماة فـصعـدوا الجبـل ورموا خـيل المشركين حتى هزموهم فذلك قوله تعالى وأنتم الأعلون يعني الغالبين على الأعداء بعد أحد فلم يُخرجوا بـعد ذلك عسكرا إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهد رسول الله ﷺ وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ وكان فيه واحد من الصحابة كان الظـفر لهم وهذه البلدان كلها إنما أفتتحت عـلى عهد أصحاب رسول الله ﷺ ثم بعد انـقراضهم ما أفتتحت بلدة على الوجه كما كـانوا يفتتحون في ذلك الوقت وفي هذه الآية بيـان فضل هذه الأمة لأنـه خاطبهم بما خـاطب به أنبيـاءه لأنه قال لموسى إنك أنـت الأعلى وقال لهذه الأمـة وأنتم الأعلون وهذه الـلفظة مشـتقة من اسـمه الأعلى فـهو سبحـانه العـلي وقال للـمؤمنين وأنـتم الأعلون»انتهى.

١ ـ سورة آل عمران: آية ١٣٩.

قلت: لأننا تركنا أمر الله تعالى، فلا تكون معنا نصرته ومعيته، والذين يقولون لا نريد أن نتغير، ونريد تغيير أحوالنا أولا..

نقول لهم لابد من تغير حياة الأمة كلها، إلى حياة النبي ﷺ عند ذلك تتغير الأحوال، إذا صار المسلمون سببًا لتغير العالم إلى جهة الإيمان، فنسبة نيابة النبوة الآن موجودة فيهم..

أما إذا تركنا طريق الرسول ﷺ، واخترنا طريق أعداء الله، كيف لله تعالى أن يمدنا بتأييده ونصره في عموم الأمة، وإذا اخترنا شعار وصفة وظاهر غير المسلمين، ورفعنا أيدينا إلى الله تعالى، أنى لله تعالى أن ينظر إلينا أو أن يُجيبنا..

وإذا لم تكن العبادات والحياة عامة على طريقة المسلمين، بل على سنن غير المسلمين، كيف تكون مقبولة عند الله تعالى، وأنى لنا بنصرته وتأييده...

ولكن كيف كان جواب الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم على قومه، هل وافقهم في التطلعات؟، وسار بهم نحو الرغبات؟..

فلنستمع إلى النبي موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾**﴾[1].

فقرر عليه السلام على أسماعهم، فاعلية الله تعالى في الأرض، وأن بيده إهلاك الظالمين، واستخلاف المؤمنين، وأوضح العبارة عليه السلام في أن الله تعالى هو الذي يستخلف ويُمكن، وليس ذلك لمخلوق، بمشيئة شاءها، وإرادة يمضيها، ليس لأحد مع مشيئته مشيئة، ولو شاءوا الاستخلاف قبلها لم يُستخلفوا، وليس لأحد مع إرادته إرادة، ولو أرادوا غير إرادته لم تمض إلا إرادته..

---

١ ـ سورة الأعراف: ١٢٩.

وهذا الذي أكده عمر ﷺ فيما رواه أبو نعيم في الحلية ج١ ص٤٧ عن قيس قال: لما قدم عمر ﷺ الشام استقبله الناس وهو على بعيره فقالوا: يا أمير المؤمنين! لو ركبت برذونا تلقاك عظماء الناس ووجوههم! فقال لا أراكم ههنا إنما الأمر من ههنا ـ وأشار بيده إلى السماء ـ خلوا سبيل جملي».

قلت: وقد عقَّب الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم بعد ذلك بقوله: «فينظر كيف تعملون» وليدلل على أن أسباب التمكين والاستخلاف إنما هي بالإيمان، والتزام أوامر الله تعالى، وكذلك دوامها واستمرارها بالتقوى والصلاح..

حيث إن أعمال المستخلفين بعين الله تعالى وعلمه، فإن استقاموا أقامهم، وإن فرَّطوا وقصَّروا بدَّدهم وأضاعهم، فهم على سبيل الابتلاء والامتحان ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [1]. **أي مرجعها ومصيرها.**

وأوحى الله تعالى لنبيه وصفيه موسى عليه السلام بمنهج النبوة والدعوة، وطريق التمكين، وبدأ الكليم عليه السلام في إبلاغ قومه رسالته، التي اصطفاه الله تعالى بها، من توحيده وعبادته وتعظيمه، وطرح ما سواه من الأنداد والأغيار، وإسدال الأستار على المخلوقين، والنظر إلى الامتثال، وموعود رب العالمين، فما كان يؤمن منهم إلا العدد القليل، مع الخوف والتحذير: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [2].

---

١ ـ سورة الحج: آية ٤٠، ٤١.
٢ ـ سورة يونس: آية ٨٣.

وبدأ موسى عليه السلام في بيان ما أوحى الله إليه، ليبلغه إلى قومه: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وأخبرهم موسى عليه السلام أن جميع الموعودات من الله تعالى هي على الإيمان والأعمال إن كانت بحقيقتها ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ وهذا جواب لمن يسأل متعجلا متى نصر الله؟ ومتى يوفى الله تعالى بوعده؟،

نقول: عندما يكون الإيمان على حقيقته والأعمال على حقيقتها، فعندما يكون قلب الإنسان في الظلمة، بدون حقيقة الإيمان والأعمال، وبعيدا عن نور الهداية، هذه الظلمة في القلب تجلب له المصائب، لأنه بفقد نور الإيمان، لا يستطيع التمييز بين الضار والنافع، والخير والشر..

المصائب تقع
على أي أمة
لترك أعمال الإيمان

وفي منهج النبوة، تكون موعودات الله الغيبية موافقة لنا، والكون مسخر لخدمتنا، إذا كنا موافقين لأمر الله تعالى، وعلى سنن النبوة، أما إن كنا مخالفين لأمر الله تعالى، مصادمين لسنن النبوة فالكون كله يكون مسلطا علينا، وفي مخالفتنا..

فالأصل هو ربط الأحوال بالأعمال، عندما تصلح أعمالنا تصلح أحوالنا، وعندما تفسد أعمالنا تفسد أحوالنا، المصائب إذا أحاطت بالناس، فبدلا من أن يدفعوها بالامتثال والطاعة، ويردونها إلى الله تعالى، فهم يرجعونها إلى الأسباب وحدها، ويعالجون المصيبة بالمعصية..

وإذا لم تتسع طرق الحلال أمامهم لدفع المصائب، يعالجونها بالدخول في الحرام، وهي لا ترتفع بفعل ما نهى الله عنه، والمصائب لم تأت من المخلوق، حتى تدفع بالمخلوق، بل هي من عند الله تعالى، وحتى نحلها لابد من التوجه إلى الله عز وجل، لا إلى المخلوق..

وهذا ما أكده الإمام الرازي في التفسير الكبير ج٧ ص٢٤٨ ـ ٢٤٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾[١] حيث عرض القولين في الآية ثم قال بعدها: «واعلم أن على كلا القولين فالمعنى: أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الكل من الله تعالى، وذلك لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره، والحق أن الكل من الله، لأن كل موجود، فهو إما واجب الوجود لذاته أو ممكن لذاته، والواجب واحد وما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وبهذا الطريق يكون الكل من الله، فاسنادها إلى غير الله يكون جهلا بكمال الله تعالى» انتهى.

---

١ ـ سورة الأعراف: آية ١٣١.

قلت: فرعون لما أظلمت لياليه، وخاف من كليم الله المبعوث إليه، بدأ في ذبح بني إسرائيل لتغيير الأحوال، وتبديل ما قضى وكان، والمسطور لا يمحى، والمقدور لا يزول، وقد حاول فرعون أن يدفع مصيبته ويغير أحواله، فلم يستطع لكونها خارجة عن دائرة إدراكه، وسطوة سلطانه، فشرع في ذبح بني إسرائيل ليدفع مصيبته بمعصيته، والمصائب لا ترتفع بفعل المعاصي بل تتوالى تترا، وتتدافع بالردى، وبسبب أسباب فرعون الله سبحانه وتعالى أظهر قدرته..

ومنهج النبوة والدعوة عند ورود المصائب هو في الاستقامة، وامتثال أوامر الله تعالى، فالمخرج في التقوى ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾[1] والسبيل هو في التوبة إلى الله تعالى، والصبر على طاعته..

عندما نزلت المصيبة على فرعون وأرسل الله عليهم الطوفان، سئل موسى عليه السلام، أن يدعو لهم ليرفع هذه المصيبة، فلما رفع الله الطوفان بدعاء موسى عليه السلام، ما تاب فرعون بعد ذلك، فأرسل الله عليه مصائب أخرى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ**﴾[2].

قال الإمام الرازي في التفسير الكبير المجلد السابع ص٢٥٠: (المسألة الثانية) قال ابن عباس: إن القوم لما قالوا لموسى: مهما أتيتنا بآية من ربك، فهي عندنا من باب السحر، ونحن لا نؤمن بها ألبتة.

وكان موسى عليه السلام رجلاً حديداً فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله له فأرسل عليهم الطوفان الدائم ليلاً ونهاراً سبتا إلى سبت، حتى كان الرجل منهم لا يرى شمساً ولا قمراً ولا يستطيع

---

١ ـ سورة الطلاق: آية ٢.   ٢ ـ سورة الأعراف: آية ١٣٣.

الخروج من داره وجاءهم الغرق فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به فأرسل إلى موسى عليه السلام وقال اكشف عنا العذاب فقد صارت مصر بحراً واحداً فإن كشفت هذا العذاب آمنا بك.

فأزال الله عنهم المطر وأرسل الرياح فجففت الأراضي وخرج من النبات ما لم يروا مثله قط فقالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر، فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنكثوا العهد.

فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل النبات وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس، ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعًا، فأكلت النبات، فصرخ أهل مصر، فدعا موسى عليه السلام، فأرسل الله تعالى ريحًا فاحتملت الجراد فألقته في البحر.

فنظر أهل مصر إلى أن بقية من كلئهم وزرعهم تكفيهم، فقالوا: هذا الذي بقى يكفينا ولا نؤمن بك. فأرسل الله بعد ذلك عليهم القمل، سبتًا إلى سبت، فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلا أكلته، فصاحوا وسأل موسى عليه السلام ربه فأرسل الله عليها ريحًا حارة فأحرقتها واحتملتها الريح فألقتها في البحر فلم يؤمنوا.

فأرسل الله عليهم الضفادع بعد ذلك فخرج من البحر مثل الليل الدامس ووقع في الثياب والأطعمة، فكان الرجل منهم يسقط على رأسه ذراع من الضفادع، فصرخوا إلى موسى عليه السلام، وحلفوا بإلهه لئن رفعت عنا هذا العذاب لنؤمنن بك فدعا الله تعالى فأمات الضفادع، وأرسل عليها المطر فحملتها إلى البحر، ثم أظهروا الكفر والفساد.

فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دمًا فلم يقدروا على الماء العذب وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطيب حتى بلغ منهم الجهد، فصرخوا وركب فرعون وأشراف قومه إلى أنهار إسرائيل فجعل يدخل الرجل منهم النهر فإذا اغترف صار في يده دمًا ومكثوا سبعة أيام في ذلك لا يشربون إلا الدم، فقال فرعون ﴿لئن كشفت عنا الرجز...﴾ إلى آخر الآية.

فهذا هو القول المرضى عند أكثر المفسرين.

قلت: الله تعالى أذاق فرعون العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر حتى يرجع ويعود إلى الله عزّ وجلّ قال تعالى: ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون** ﴾.

قال الإمام الرازي في تفسيرها ج٧ ص٢٤٧: «ظاهر الآية أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريقة التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية، وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إيَّاه﴾ (الإسراء: ٦٧) وقوله تعالى: ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ (فصلت: ٥٤)} انتهى.

قلت: فالعذاب الأدنى رحمة وفرصة للعبد، حتى يتوب ويرجع إلى الله تعالى، وفرعون لم يفعل هذا فهلك، المصائب تقع على أي أمة لترك الأعمال والإيمان، وحال المسلمين في مصائبهم الآن، مثل حالة بني إسرائيل، هم كانوا أولاد الأنبياء، ولكن بسبب ترك الدين سلط الله عليهم فرعون، والآن أمة النبي ﷺ بسبب ترك أعمال الإيمان ومسئولية هذا الدين، وخلافة النبي ﷺ في البلاغ عن الله تعالى..

بسبب ترك أمانة الدعوة، ومقاصد الرسالة، وفرائض وأركان الدين، الله سلط علينا الكفار والقتل، ولكن هذا ليس معناه عدم محبة الله تعالى للمسلمين، ومحبته للكفار الذين يقتلونهم..

ولكن هذا مثل راعي الغنم، يربي الكلاب وعند خروجه من القرية إلى الصحراء، وأمامه الغنم تمشي، فإذا خرجت من القطيع واحدة، وابتعدت عن باقي الغنم، فالراعي يرسل عليها الكلب، فيخوفها فترجع إلى جماعة الغنم، ولا يأكلها الذئب، كذلك الله يسلط غير المسلمين والظالمين على المسلمين، يبتلونهم حتى يرجعوا إلى المقصد الذي من أجله بعث الله هذه الأمة، وحتى يرجعوا إلى دينهم، ولا يأكلهم الشيطان..

فعند الراعي قيمة الغنم لا قيمة الكلب، وعند الله تعالى ليست القيمة للكفار والظالمين بل القيمة هي للمسلمين، ولكن حتى يعودوا إليه، فالله ما سلط الظالمين على المسلمين لمحبته لهم وكراهيته للمسلمين، بل هو يستخدمهم لعودة هذه الأمة المحبوبة إليه..

المسلمون لما تركوا مسئوليتهم في حفاظة هذا الدين عاقبهم الله تعالى، وسلب منهم سلاح الدين والصلاة والدعوة والدعاء، ورفع عنهم نصرته، تماما كجندي الحراسة، إذا ترك مسئوليته وغفل عن الحراسة، يعاقب على ذلك، ويُنزع منه سلاحه ويُبتلي. . .

المسلمون الآن عندهم الذهب والفضة، والأشياء والملك، ولكن الله تعالى سلط عليهم الظالمين، لأنهم قلّلوا جهد الدين وكثروا جهد الدنيا، فالصحابة رضي الله عنهم اجتهدوا في جهد الدين، حتى كانت نصرة الله معهم، فالآن تأخير نصرة الله تعالى عنا، هل هي من الله أم منا؟، التأخير لهذه النصرة هو منا نحن لا من الله،

لو ننصر دين الله تكون نصرة الله لنا ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

فإذا ترك المسلمون القيام لمقصود بعثة هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2] صاروا إلى حال من لا يبالي الله به، في أي واد هلك، وإذا ترك المؤمن مطلوب الله سبحانه وتعالى منه، من الإيمان والأعمال الصالحة، خرج عن مقصد وجوده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾[3]. ولم يتحقق معه موعود الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[4].

قال الإمام ابن كثير في تفسيرها ج٣ ص٣٠٠ «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولاة عليهم؛ وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وحكما فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة: فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان

---

١ ـ سورة محمد: آية ٧. ٢ ـ سورة آل عمران: آية ١١٠.

٣ ـ سورة الذريات: آية ٥٦: ٥٨.

٤ ـ سورة النور: آية ٥٥.

والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه.
ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وهي بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهدها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر؛ ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصري ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة. ومنّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس.

وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته وقصر قيصر. وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية؛ وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ـ عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ـ ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها؛ ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص؛ وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين؛ وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية؛ وفتت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا؛ وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان ﷺ وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على

حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[1] فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

أقول: الشجرة إذا أثمرت اعتني بها صاحبها، وحرص على أن يُبعد عنها الحشائش والآفات، التي تحاول أن تؤذيها، وقام على سقايتها وتغذيتها، وأحاطها بالعناية والرعاية، لأنها قائمة على مقصد وجودها، أما إذا لم تثمر، وعقمت عن إنتاج ثمرها، خرجت بذلك عن مقصد وجودها، والمطلوب منها، فهنا يقوم لها صاحبها ليقطعها، ويصيرها إلى التنور، بعد أن كان يحامي عنها الليل والنهار، ويتفقدها ويصونها من أيدي الأشرار..

كذلك الفتن والبلايا لا تظهر في العالم إلا بتغير إيمان الناس وأعمالهم، وخروج المسلمين عن مقصد وجودهم، والمطلوب منهم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[2].

لذلك كان جهد أهل الدعوة في التضحية والبذل، والاجتهاد على إقامة أمة النبي ﷺ على الإيمان والأعمال، اللذين هما الأساس لرجوع هذه الأمة إلى مقصد وجودها والمطلوب منها..

---

١ ـ رواه الإمام مسلم ج٤ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب «هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض»، ورواه الإمام أبو داود ج٢ أول كتاب الفتن والملاحم ـ باب «ذكر الفتن ودلائلها»، ورواه الإمام الترمذي ج٣ أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ باب «سؤال النبي ﷺ ثلاثا في أمته» وقال هذا حديث صحيح، ورواه الإمام ابن ماجه ج٢ كتاب الفتن باب «ما يكون من الفتن»، ورواه الإمام أحمد ج٤ مسند الشاميين، ج٥ مسند الأنصار.

٢ ـ سورة الروم: آية ٤١.

منهج النبوة جاء
بنقض اليقين
على كل ما سوى الله تعالى

ولنرجع إلى الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [1].

فقد أقام الرسول موسى عليه السلام التقوى في قومه، وبث الإيمان في أصحابه، وهو في كل هذا مستمر في دعوته، سائر إلى مقصوده: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [2] ولم يستجب فرعون للإيمان، وتلثم بالطغيان، حتى رفع الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم يديه، يدعو عليه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3].

ولقد هتف الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم بهذه الدعوات، بعد أن وصلت الدعوة إلى منتهاها، وتوعر سبيلها ومعناها، وقامت الحجة الرسالية على المستكبرين، القائلين صداً لرسولهم ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [4]. المعلنين أمام نبيهم عدم الإيمان ولو جاءت الآيات، وظهرت على يديه المعجزات: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [5].

---

١ ـ سورة يوسف: آية ١١١.
٢ ـ سورة الإسراء: آية ١٠١، ١٠٢.
٣ ـ سورة يونس: آية ٨٨، ٨٩.
٤ ـ سورة يونس: آية ٧٨.
٥ ـ سورة الأعراف: آية ١٣٢.

ولقد أجاب الله عزّ وجلّ تعالى دعاء نبيه بقوله ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وأمر عزّ وجلّ رسوله عليه السلام بأمره الأعلى، وكلمته الكبرى، ولم يكن هذا الأمر بالمواجهة للظالمين، ولا طرح المستكبرين، بل أمره بالاستقامة مع المؤمنين، وفق سبل المرسلين، ما أمره عزّ وجلّ بعد قيام الحجة الرسالية، على فرعون وقومه وتجبره وعتوه، بأن يثب على سلطانه، أو يسعى للاستيلاء على مكانه..

فمنهج الأنبياء والدعوة لا يفتقر إلى السلطان، ولا يعوزه علو المكان، بل هو عالي الأركان، أشم الذرى..

لذلك فللاستفادة من أي شيء، فلابد من جهد الإيمان والأعمال، فالذين في مقابلة الأشياء المادية آمنوا بقدرة الله تعالى، فازوا ونجحوا، سواء أكان عندهم الأسباب أم لا، والذين كان عندهم التكذيب بالأعمال خسروا، ولو معهم جميع الأسباب المادية.

النبي ﷺ أقام أمته على أساس اليقين على دعوة الكلمة، التي تُصغِّر الدنيا وتعظم الله تعالى، في مقابلة جميع الأسباب المادية إلى يوم القيامة، وأن هذه الأسباب ليست هي الفاعلة الجاعلة الموجدة، فهي ليست باطلا محضا فننفيها، وليست حقا محضا فننغمس فيها..

الأسباب ليست هي المتحكمة في الكون، لأن فوقها مسببها وهو الله سبحانه وتعالى فنعمل بالأسباب والقلب متوكل على المسبب لها عز وجل القاهر فوق عباده..

والله سبحانه وتعالى جعل لنا الأسباب في هذه الحياة الدنيا للابتلاء والاختبار، هل نتوكل عليها وننسى الله تعالى، أم نتوكل على الله تعالى مسبب الأسباب وحده لا شريك له، ونرى أن له

عز وجل فيها مشيئة وسنة يمضيها، فنسير على الأسباب للسنة في ذلك، وليس من شرطها في سيرنا عليها أن تفي لنا بالمطلوب، بل قد يحدث معنا عكس ما أردنا، لذلك لو تحقق لنا في تناول الأسباب مرادنا أو لم يتحقق، فلا نعود باللوم على السبب، بل نفوض الأمر إلى مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، ونقول «قدر الله وما شاء فعل» فنضيف الأمر إلى المشيئة، حيث أن الأسباب لا تعطي ولا تمنع إلا بإذن الله تعالى.

والله سبحانه يريد منا أن ننشغل بالأسباب بجوارحنا، فنغرس الحب ونسقى الماء ونحرث الأرض، مع التوكل عليه بقلوبنا ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]..

في إخراج الزرع النتائج ليست في يد الأسباب، بل في يد الله تعالى، كما في قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾[2].

كذلك في انجاب الولد ليس التزاوج شرطا فيه، فعيسى عليه السلام جاء بغير أب، وقد يكون التزاوج ولا يكون الولد ﴿ويجعل من يشاء عقيما﴾ هناك فرق بين عطاء الله بالأسباب، وعطائه بذاته وهو المُسبب لها سبحانه، في قصة هاجر عليها السلام، عندما كانت مع رضيعها في واد غير ذي زرع، الله تعالى قرر فيما حدث معها، تأصيل الإيمان في النفس، بأن مع أمر الله تعالى لا يضيع الإنسان، بل تكون العناية والحفاظة والرعاية مع موافقة الأمر..

١ـ سورة الواقعة آية: ٦٣: ٦٤.

٢ ـ سورة القلم آية: ١٧: ٢٠.

إذا تيقنت قلوبنا أننا مع حفظنا لأمر الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإن الله يحفظنا، ومع استنفادنا جميع أسبابنا، لا يضيعنا الله عز وجل «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

النبي ﷺ أقام أمته مع الأشياء المادية، التي تتناول الأسباب الحسية، على أقوى ما يكون من الوسع والطاقة، على طريق الأسباب اليقينية الغيبية، كالصلاة والدعاء والصدقة والذكر والاستغفار.

﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣)**﴾[2].

هذه كلها طرق للمؤمنين، أما طريق غير المؤمنين فهو طريق الاعتماد على الأشياء، والأسباب غير اليقينية بمفردها، طريق التأثر والاعتماد على الحسيات وحدها، واليقين على المشاهد المحسوس، واضافة النفع والضر، إلى الأسباب الحسية بذاتها استقلالا، مع الغفلة والعصيان لرب البرية، وهذه الطرق مُفتَّحة الأبواب على كل الأشياء، من حلها ومن غير حلها: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[3].

---

١ ـ رواه الإمام الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

٢ ـ سورة نوح آية: ١٠ : ١٣ .

٣ـ سورة الأنعام آية: ٤٤ .

لذا إذا كثُر أهل الدين، وكان ترتيبهم أولا قضاء الحوائج، ثم متطلبات الدين، فالله تعالى لا يغير بهم الباطل، أما لو كانوا قليلا، وهم يقدمون أولا متطلبات الدين على الحوائج، فالله يغير بهم. .

الآن المسلمون جعلوا الحاجات مقصد حياتهم، وألقوا وراء ظهورهم الحقائق التي في القبر والحشر والصراط، وجعلوا أهواء وشهوات الدنيا مقصد حياة، فالله تعالى جعل الهموم على قلوبهم بذلك، أما من عرف منهم المقصد، فالله عز وجل يجعل له الطمأنينة ويستجيب دعاءه. .

غير المسلمين معهم أسبابهم، ولكن ينزع الله منهم الطمأنينة، وتتحول حياتهم ضنكا بسبب فقدها، وطريق المؤمنين لا يعتمد على الوسائط وحدها فيه، بل مفاتيحه الإيمان والتقوى، وثمراته بركات السماء والأرض ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾[1].

منهج النبوة جاء بنقض يقين الأكثرية، والحكومة والزراعة والصناعة والمال، وما كان من الاعتماد والثقة من الإنسان عليها، وأنها وحدها الفاعلة الجاعلة. .

فرسول الله ﷺ بين أن هذه الأشياء وحدها، ليس فيها الفلاح والفوز، وأن كل هذا في قدرة الله تعالى، وفاعليته وحده، ويكفي تناول المقدور من هذه الأسباب بعد استنفاد الوسع والطاقة، فينميها الله تبارك وتعالى، ويجعل فيها القوة والنصرة. .

١ـ سورة الأعراف آية: ٩٨.

النبي ﷺ ما ترك واحد من أمته، إلا وحوله إلى اليقين الصحيح، وجمعهم على الإيمان والكلمة، ورغبهم في الجهد والتضحية، لتحصيل هذا اليقين، والله تعالى بين مواعيد كلماته مع الأمم الأولى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ﴾[1]

الكون خلقه الله تعالى وأبدعه، وخلق فيه الأسباب وتأثيرها، فالنار تحرق والماء يغرق، وهذه الأشياء تحتاج في تأثيرها إلى أمر الله تعالى، فالله تعالى على كل شيء قدير، وهذه الأسباب لا تقدر على شيء بدون أمر الله تعالى، لذلك عندما تكون المقابلة بين أمر الله تعالى وبين السبب، فالمؤمن الحقيقي يختار أمر الله تعالى، فالتجارة جعلها الله سببا لحصول المال والمكاسب، ومن وراء التجارة هناك الأوامر والنواهي من الله تعالى فيها، فالتجارة التي تكون موافقة لأمر الله تعالى جعلها الله مباحة لنا، وأمرنا بتناولها، وجعل كسب الحلال

---

١ ـ سورة النجم: آية ٣٣: ٦٠.

لنا فيها فريضة بعد الفريضة، والتجارة التي تخالف أمر الله تعالى جعلها الله عز وجل لنا محظورة، غير مباحة أو محرمة ونهانا عنها، فالمؤمن لا ينقض أمر الله تعالى من أجل مكاسب التجارة، أما غير المؤمن فينقض أمر الله تعالى لأجل المكاسب والتجارة، المؤمن الحقيقي هو الذي يختار السبب الحلال الموافق لأمر الله عز وجل ويترك السبب الحرام..

ليس معنى السعادة أن تكون عندنا الأسباب، فإذا ما فقدناها فنحن في الخسارة بل الفائز من امتثل أمر الله تعالى، وعندما يمتثل الإنسان لأمر الله تعالى يكون في الطمأنينة، ولو في الظاهر أسباب الدنيا غير موجودة، لأن الله جعل الراحة في طاعته وليس في الأشياء والأسباب، فليس أساس قيام الدعوة للدين على وجود المال، وإلا لصير الله تعالى مع النبي ﷺ جبال مكة ذهبا وفضة، ولفهم الناس أن الدين لا يقوم إلا بالمال، ولكن الدين جاء بالمجاهدة والتضحية من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

فقد أبطل الله تعالى مع الأقوام التي سلفت، اليقين الفاسد على المال، أن فيه الفوز والفلاح، وذلك في قصة قارون لما أفسد فيه وطغى **﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾**[1]

---

١ ـ سورة القصص آية: ٨١: ٨٣.

وأبطل الله تعالى مع الأقوام التي سلفت اليقين الفاسد على الملك في قصة فرعون ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)** ﴾[1].

واليقين الفاسد على القوة مع قوم هود، الذين عصوا الله تعالى فيها واستكبروا بها ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦)** ﴾[2].

وعلى التجارة في قوم شعيب، الذين طففوا فيها المكاييل، وبخسوا الناس أشياءهم، وحادوا عن السبيل..

منهج النبوة كان في تغيير أسس اليقين، على الحياة المادية الباطلة، إلى حياة النبي ﷺ وجهد الإيمان والأعمال، فالنصرة من عند الله تعالى، وكذلك البركة، وهما على كمال الإيمان والتقوى ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)** ﴾[3].

باب من حيث لا يحتسب، هو باب اليقين على موعود الله تعالى الغيبي، غير المحسوب أو المحسوس، فكل الكذب الموجود الآن في العالم لأن يقين الناس قد تعاظم على المال وحده، وعندهم يقين أن تتغير حياتهم بالمال، والله تعالى لم يجعل اصلاح الدنيا والآخرة إلا بالدين وجهد الإيمان والأعمال الصالحة..

---

١ ـ سورة القصص آية: ٣٩: ٤٢. ٢ ـ سورة فصلت آية: ١٥، ١٦.

٣ ـ سورة الطلاق آية: ٢، ٣.

الاستعجال لا يصدر

إلا من الجهال

وقد يتصور البعض، بالحسابات البشرية المحدودة، عدم فاعليه: وقوة الإيمان والأعمال الصالحة، وضعف ووهن منهج الاستقامة، واتباع الوحي في ذلك، فيرون هذا دربا من السطحية، ودروشة غير مجدية، فيبدأون في التقدم على الوحي في هذا، متعللين بالحجج الواهيات، متبعين للنظريات العقيمات، للمغضوب عليهم والضالين، فيردون الأمر من الله تعالى، ومن رسولهﷺ ويخالفون النص وراء النص، بدعوى ترك الواجب إلى ما هو أوجب، والمطلوب على سبيل الحتم والإلزام، من أمر الله تعالى أو أمر رسولهﷺ مما هو طاعة من الطاعات، إلى ما هو أوجب وألزم في زعمهم، وهو قيام الحكم والتمكين للشرع..

ولم يدروا أو يتفطنوا إلى أن قيام الحكم، ووجوب الإمامة والخلافة، إنما هو فرض كفاية، كالجهاد وطلب العلم، أي أن فعل البعض كاف في الإتيان به، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط، ففرضها على الكفاية، وإن لم يقم بها أحد تعلق الوجوب بفريقين من الناس: **أولهما:** أهل الاختيار، حتى يختاروا إمامًا للأمة.

وثانيهما: أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة، ويتحمل مسئوليتها عن الأمة، وليس على أحد من الأمة غير هذين الفريقين السابقين، وهما أهل الاختيار أو أهل الإمامة، في تأخير الإمامة أو الخلافة حرج ولا مأثم..

وهو ما أورده الإمام الماوردي في «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» ص٥ حيث قال رحمه الله: «فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط ففرضها على الكفاية. وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان:

أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماما للأمة، والثاني أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة، وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج ولا مأثم، وإذا تميز هذان الفريقان من الأمة في فرض الإمامة وجب أن يعتبر كل فريق منهما بالشروط المعتبرة فيه..

فأما أهل الاختيار فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة:

أحدها: العدالة الجامعة لشروطها.

والثاني: العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها.

والثالث: الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف، وليس لمن كان في بلد الإمام على غيره من أهل البلاد فضل مزية تقدم بها عليه وإنما صار من يحضر ببلد الإمام متوليًا لعقد الإمامة عرفا لا شرعا؛ لسبوق علمهم بموته ولأن من يصلح للخلافة في الأغلب موجودون في بلده.

(فصل) وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة.

أحدها: العدالة على شروطها الجامعة.

والثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

والرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

والخامس: الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

والسابع: النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه»انتهى كلام الإمام الماوردي.

إذا فالتمكين في الأرض، إنما يكون بموافقة الأمر والشرع، وعدم الاستعجال في المقدور، لا بعكس ذلك، ولا بالمخالفة للأوامر العليا من الله تعالى، أو رسوله ﷺ بدعاوي بشرية، أو تصورات نفسية..

قال الإمام الرازي في تفسيره المجلد ٧ ص٤٣٤:

وأما قوله تعالى: ﴿فاستقيما﴾ يعني فاستقيما على الدعوة والرسالة، والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا قليلا، فلا تستعجلا، قال ابن جريج: إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة.

وأما قوله تعالى ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ ففيه بحثان: البحث الأول: المعنى: لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال، فربما أجاب الله تعالى دعاء إنسان في مطلوبه، إلا أنه إنما يوصله إليه في وقته المقدور، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [هود: ٤٦] وأعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ لا يدل على صدور الشرك منه»انتهى كلام الإمام الرازي.

قلت: فانظر إلى قوله رحمه الله تعالى، في تفسير الأمر من الله عز وجل في الآية، بأن معناه: «يعني فاستقيما على الدعوة والرسالة، والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح في قومه ألف سنه إلا قليلا، فلا تستعجلا، قال ابن جريج: إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة».

أقول: وهل يقوم أهل الدعوة في هذه الأيام، إلا بالاستقامة على الدعوة والرسالة، والزيادة في إلزام الحجة، وعدم الاستعجال بمسابقة المقدور من الله تعالى بل بالتسليم الكامل لإرداته وتدبيره، ثم بعد ذلك يُرمون بأنهم السلبيون الذين لا يتحركون، وهل الحركة والمسابقة والاستعجال إلا طريق الجهال؟!..

فمن يعرف الغيب المحجوب، ومن نظر إلى المقدور، فعلم بنظره فيه المشيئة العليا، وأن إرادة الله تعالى هي التغيير والتبديل، ومن يدعى أن هذا التغيير والتبديل إنما هو هذه الساعة، وتلك اللحظة، وأن الاجابة الفورية الآن مكفولة بمجرد الدعاء، وهذا شأن الذين لا يعلمون، كما قرر ذلك هذا الإمام الجليل بقوله: «وأما قوله تعالى ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ ففيه بحثان: **البحث الأول: المعنى: لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابا كان المقصود حاصلا في الحال، فربما أجاب الله تعالى دعاء إنسان في مطلوبه، إلا أنه إنما يوصله إليه في وقته المقدور، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال**»انتهى.

وقال الإمام القرطبي في تفسيره ج٥ ص٣٢١٤«قال الفراء وغيره: أمر بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان، إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة. قال محمد بن علي وابن جريج: مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا. وقيل:

«استقيما» أي على الدعاء، والاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستقامة السكينة فيه، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من الغيب» انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فانظر إلى قوله رحمه الله «والاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود»، فالله تعالى عندما أهلك فرعون، لم يهلكه بعدما نزع منه ملكه وسلطانه، وصيره فقيرا، ولكنه أهلكه في ملكه وسلطانه وغناه، وكذلك قارون والنمرود، لذلك عندما دعي موسى عليه السلام قال الله عزّ وجلّ له: ﴿**قد اجيبت دعوتكما فاستقيما**﴾.

أي عندما يعتمد أعداء الله، على الملك والقوة والمال والدنيا، لا تجعلوا أعتمادكم أنتم على ذلك فقط، وتجعلوه مقصد حياتكم، بل استقيما في جهد الإيمان والأعمال، فهو مقصد خلقكم الحقيقي، وأنا أنصركم بأقل أسباب الدنيا المنظورة، بعد أن أنميها، وأجعل نصرتي فيها، طالما أنكم أستنفدتم وسعكم في تناولها، وبذلتم جهدكم فيها، مثلما فعلت بالسابقين قبلكم، المصطفين الأخيار، واجعلوا نظركم إلى الدنيا على سبيل الوسائل، للوصول إلى المقاصد، فهي معبر وممر لا إقامة ومستقر..

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[1].

فالـذين لا يـعلمـون ضلوا عـن سبـيل الهـدى، وجهـد الإيمان والأعمال، وانقطعوا بالوسائل عن المقاصد ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[2].

لا يعلمون شيئا عن جهد الإيمان والإستقامة، القائم به الدعاة في الدنـيا، مـاذا يقع بـه من الأثـر في الآخرة، لا يـتصـورن ذلك ولا يعقلوه، فكل الذين اقتصروا على الأسباب المادية وحدها، ولم يمتثلوا الامتثال الـكامل لأوامر الشرع، ولم يحـتملوا الأعمال والتـكاليف، انحرفوا عن حقيقة الإيمان والأعمال، والإيمان عند هذه الحالة، مجرد ألفاظ، والأعمال عبارة عن صور وأشكال ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[3].

---

١ ـ سورة الإسراء: آية ١٦ : ٢١.

٢ ـ سورة الروم: آية ٣: ٧.

٣ـ سورة النمل: آية ٦٦.

منهج النبوة نفي لتأثير المخلوق في قدرة وإرادة الخالق

والآن لإحياء حقائق الإيمان والأعمال، لابد من تحقق الالتزام بالتابعية لسنن النبي ﷺ، ومن تغيير مقاصدنا والمسلمين، من الدنيا إلى الآخرة..

قال الإمام ابن كثير ج٣ ص٢٩٩ في قوله تعالى ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾: «أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله. وقوله تعالى ﴿فإن تولوا﴾ أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿فإنما عليه ما حمل﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿وعليكم ما حملتم﴾ أي بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية وقوله تعالى ﴿وما على الرسول إلى البلاغ المبين﴾ كقوله تعالى ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وقوله ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ قال وهب بن منبه، أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعياء أن قم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي فقام فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي فإن الله يريد أن يقضى شأنا ويدبر أمرا هو منفذه إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة والآجام في الغيطان والأنهار في الصحارى والنعمة في الفقراء والملك في الرعاة ويريد أن يبعث أميا من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القصب واليابس لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه بشيرا ونذيرا لا يقول الخنا أفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، وأسدده بكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره، والحكمة منطقه؛ والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته والعدل سيرته، والهدى

إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء مشتتة، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به الرسل. رواه ابن أبي حاتم» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

الآن في كل الدنيا صارت التحولات في الإرادة، لليقين والتوكل على كل ما سوى الله تعالى، وصارت الإرادة لليقين بالمال، والكثرة والمادة والقوة، فنجتهد على تحول هذا الإيمان الفاسد، من كل ما سوى الله تعالى، ومن الأغيار، إلى اليقين والتوكل على الله تعالى وحده لا شريك له، وعلى ذاته وصفاته وقيوميته..

في كل الدنيا هناك العمل على تعظيم المخلوق، والتأثر والخوف من المخلوق، فنعمل على تبديل هذا إلى اليقين، على الغيب الموعود من الله تعالى، ونغير الطلب والقصد، من غير الله إلى الله تعالى وحده..

كما قال تعالى ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾** ﴾[1].

قال الإمام الرازي في تفسيره المجلد الثاني عشر ص١٢٧:

«أما قوله تعالى ﴿فأتبعوهم﴾ أي فلحقوهم، وقرئ فأتبعوهم مشرقين داخلين في وقت الشروق من أشرقت الشمس شروقا إذا طلعت أما قوله تعالى ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي رأى بعضهم بعضا، قال أصحاب موسى ﴿إنا لمدركون﴾ أي لملحقون ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ [الأعراف: ١٢٩] كانوا يذبحون أبناءنا، من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا، أي في الساعة فيقتلوننا وقرئ ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ إنا لمدَّرِكون» بتشديد الدال وكسر الراء من ادّارك الشيء إذا تتابع ففنى، ومَنه قوله تعالى ﴿بل ادَّارك علمهم في الآخرة﴾ [النمل: ٦٦].

قال الحسن: جهلوا علم الآخرة.

والمعنى: إنا لمتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه.

ثم قوى نفوسهم بأمرين:

أحدهما: قوله «إن معي ربي» وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة.

الثاني: قوله «سيهدين» والهدى هو طريق النجاة والخلاص، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه، فقد بلغ النهاية في النصرة»انتهى.

قلت: قوم موسى عليه السلام لما قالوا «إنا لمدركون» كان ذلك ضعفا في إيمانهم، حيث رأوا قدرة المخلوق، وقوة المخلوق، بخلاف الكليم عليه الصلاة والتسليم، فقد أنكر بقوله «كلا» قدرة فرعون، وقدرة البحر، وفاعلية كل منهما، وهذا هو معنى كلمة التوحيد وكلمة التقوى، فلا إله إلا الله نفي وإثبات، نفي لقدرة وقوة كل ما سوى الله مع الله، نفي لقدرة وقوة كل من البحر وفرعون، وإبطال لفاعلية المشاهد المحسوس أمام الغيب الموعود، نفي لقوة ما يُدرك أمام ما لا يُدرك، وما يُرى أمام ما لا يُرى، وما يُحس أمام ما لا يُحس، نفي

لتأثير المخلوق في قدرة وإرادة الخالق، وإثبات القدرة والقوة والتأثير والفاعلية كلها لله تعالى وحده لا شريك له، إثبات الاستعانة والاستغاثة والطلب والتوكل والقصد له سبحانه وحده لا سواه وهذا يقين الكلمة الذي كان في قلب الكليم عليه الصلاة والتسليم، وهذا هو اليقين الصحيح على لا إله إلا الله، فلا معبود بحق يخضع له ويطاع إلا الله.

أصحاب موسى عليه السلام عندما قالوا «إنا لمدركون»، خافوا على أنفسهم لأنهم بين موتين، موت بيد فرعون أو الغرق في البحر، ولكن موسى عليه السلام رفض ما تراه العيون، ورد الظنون، وهدى الحائرين، فقال زجراً لهم «كلا إن معي ربي سيهدين»..

أي لا يقتلنا فرعون وجنوده، ولا يغرقنا البحر بأمواجه، لأن الغرق في يد الله تعالى، والقتل في يد الله أيضا، ولما رأى الله تعالى في قلب كليمه عليه السلام، عدم التأثر من المنظرين، منظر جند فرعون من ورائهم، والبحر من أمامهم، وأن في قلبه التوكل واليقين الراسخ عليه، أعطاه الله تعالى معجزته، وسخر له أسباب المادة، وفلق له البحر طرقا كالجبال، فظهرت الآية الكبرى، وخضع الماء الهائل لسلطان الله العظيم..

وهو ما ذكره الإمام الطبري في تفسيره المجلد١١ ص٩٩ قال «حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنى محمد بن إسحاق، قال: أوحى الله فيما ذكر إلى البحر: إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضا فرقا من الله، وانتظار أمره، وأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه، فانفلق»انتهى.

قلت: امتثـل موسى علـيه السلام الأمـر من الله تعالـى، في أن يضرب بعصاه البحر على خلاف المـعقول، حيث يقول القائل، وماذا تؤثر العصا في ضرب البحر، بمقـياس العقل والفهم، ولكن لا تقدم للعقل على أمر الله تعالى، وعندما أمتثل الكليم عليه الصلاة والتسليم للأمـر، وإن كان المشاهـد المحسوس علـى خلاف ذلك، الله تعـالى جعـل له البـحر اثنـى عشر طـريقًا، لأنـه امتثـل أمره علـى خلاف المعقول، فجاءت الـنصرة من الله تعالى مخالفة للـمعقول، أصحاب العقول يقولون: الأولى ألا يضرب البحر، وماذا ينفع تطاير حفنة من الماء، بل الأولى أن يضرب رأس فرعون، ولـكن الأمر من الله تعالى كان مـخالفا لحـكم العقـل، وأمره تعالـى أن يضرب البـحر، لا أن يضـرب رأس فرعـون، وكانت يـد موسـى علـيه السـلام هي الـتي ضربـت، ولكن مـعهـا قوة الله تعـالى، تشـق الأمواج فـانفلـقت، وصارت الأمواج جبـالاً شامخة، أمام الأنظـار واقفة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1].

---

١ ـ سورة الأنفال: آية ١٧.

قال الإمام ابن كثير في قصص الأنبياء ص٣٥١ في وصف هلاك فرعون ونصرة الله تعالى لرسوله وكليمه موسى عليه السلام:

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة. فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون «إنا لمدركون» وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدده وعُدده وهم منه في غاية الخوف والذعر، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر.

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ وكان في الساقة، فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول: ها هنا أمرت. ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحي الله إليه وجعله نبيا بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ومعهم أيضا مؤمن آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف. ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا في البحر هل يمكن سلوكه؟

فلا يمكن ويقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله.. ها هنا أمرت؟ فيقول: نعم.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم. وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى موسى الكليم ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ فلما ضربه. يقال إنه قال له: انفلق بإذن الله ويقال: أنه كناه بأبى خالد.. والله أعلم»انتهى كلام ابن كثير.

وقال الإمام الرازي المجلد ١٢ ص١٢٩: فأما قوله تعالى: ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ فالفرق الجزء المنفرق منه، وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء.

وهو معجز من وجوه:

أحدها: أن تفرق ذلك الماء معجز.

ثانيها: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لأنه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الإعجاز.

ثالثها: أنه إن ثبت ما روي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني إسرائيل فهو معجز ثالث.

رابعها: أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع.

خامسها: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس»انتهى كلام الإمام الرازي.

ولقد صدق الله وعده رسوله وكليمه موسى عليه السلام، وأمضى أمره وقدره في الوقت المعلوم، ودمَّر ما كـان يصنع فرعون وقومه وما كانـوا يعرشـون، وأورث القوم الـذين كانـوا يُستضـعفون، مـشارق الأرض ومغاربها، التي بارك فيها، وتمت كلمته الحسنى، بالاستخلاف والتمكين على المؤمنين بما صبروا، وتيقنوا على وعده ووعيده، ووافقوا مشيئته وتدبيره، واستقاموا عـلى الإيمان ودعوة المرسلين، ولم يتعجلوا أو يتذمروا لطـول البلاء، وشدة المحنة، بل صبـروا وقاربوا وسدَّدوا، حتى أنـفذ الله تعالى لهـم وعده، بعد أن سلَّموا لإرادتـه وأمره، أنه يؤتى المـلك من يشاء، وصبـروا حتى يحقق فـي المستكبريـن وعيده، وينـزع الملك ممـن يشاء، وبـالإيمان كانـت عزتهـم، يُعز من يـشاء، وبمعصيـة عدوهم كانت ذلته، ويـذل من يشاء، كل ذلك فـي تقديره وتحت سلطانه يبسط ويقبض وهو على كل شيء قدير..

سنن النصرة في الصبر
والقيام لتبليغ الرسالة

وقد قدَّم موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم، قوة الخبر على قوة البصر، قبل أن يرى وفاء الله تعالى له بموعوده، ووقف أمام البحر داعيا الله تعالى قائلا: «**يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء**» فأثنى على الله تعالى الثناء العميم، وتذلل بكامل العبودية للعليم الحليم، حتى أهلك الله تعالى له عدوه أمام بصره، وأمده بعونه وتأييده ونصره..

وهو ما أورده الإمام الطبري في تفسيره المجلد١١ ص١٠٢ قال: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين قال: ثنى حجاج، عن أبي بكر بن عبدالله قال: أقبل فرعون فلما أشرف على الماء، قال أصحاب موسى: يا مكلم الله إن القوم يتبعوننا في الطريق، فاضرب بعصاك البحر فاخلطه، فأراد موسى أن يفعل، فأوحى الله إليه: أن اترك البحر رهواً: يقول: أمره على سكناته ﴿إنهم جند مغرقون﴾ إنما أمكر بهم فإذا سلكوا طريقكم غرقتهم؛ فلما نظر فرعون إلى البحر قال: ألا ترون البحر فرق مني حتى تفتح لي، حتى أدرك أعدائي فأقتلهم فلما وقف على أفواه الطرق وهو على حصان، فرأى الحصان البحر فيه أمثال الجبال هاب وخاف، وقال فرعون: أنا راجع فمكر به جبرائيل عليه السلام، فأقبل على فرس أنثى، فأدناها من حصان فرعون، فطفق فرسه لا يقر، وجعل جبرائيل يقول: تقدم، ويقول، ليس أحد أحق بالطريق منك، فتشامّت الحصن الماذيانه، فما ملك فرعون فرسه أن ولج على أثره، فلما انتهى فرعون إلى وسط البحر أوحى الله إلى البحر خذ عبدي الظالم وعبادي الظلمة، سلطاني فيك، فإني قد سلطتك عليهم قال: فتغطغطت تلك الفرق من الأمواج كأنها الجبال وضرب بعضها بعضًا فلما أدركه الغرق ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾

وكان جبرائيل عليه السلام شديد الأسف عليه لما رد من آيات الله ولطول علاج موسى إياه، فدخل في أسفل البحر، فأخرج طينا فحشاه في فم فرعون لكيلا يقولها الثانية فتدركه الرحمة قال: فبعث الله إليه ميكائيل يعيره: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ وقال جبرائيل: يا محمد ما أبغضت أحداً من خلق الله ما أبغضت اثنين أحدهما من الجن وهو إبليس. والآخر فرعون ﴿قال أنا ربكم الأعلى﴾ ولقد رأيتني يا محمد وأنا أحشو في فيه مخافة أن يقول كلمة يرحمه الله بها»انتهى.

قلت: ولقد أبقى الله تعالى، ما فعل بفرعون آية للمعتبرين، المكذبين رسلهم المفسدين، ودلالة على حسن العناية، والرعاية للمرسلين، ومن صار على هديهم إلى يوم الدين، حيث النجاة والتأييد والمعونة والنصرة..

وهو ما أورده الإمام الطبري في تفسيره المجلد١١ ص١٠٣ قال: وقوله: ﴿إن في ذلك لآية﴾ يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلت بفرعون ومن معه تغريقي إياهم في البحر إذ كذّبوا رسولي موسى وخالفوا أمرى بعد الإعذار إليهم، والإنذار لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سنتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة أن ادّكروا واعتبروا أن يفعلوا مثل فعلهم من تكذيبك مع البرهان والآيات التي قد آتيتهم فيحلّ بهم من العقوبة نظير ما حلّ بهم، ولك آية في فعلي بموسى، وتنجيتي إياه بعد طول علاجه فرعون وقومه منه، وإظهاري إياه وتوريثه وقومه دورهم وأرضهم وأموالهم، على أني سالك فيك سبيله، إن أنت صبرت صبره، وقمت من تبليغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه قيامه، ومظهرك على مكذّبيك، ومعليك عليهم» انتهى كلام الإمام الطبري.

قلت: فانظر معي إلى إشارة هذا الإمام الجليل، إلى أسباب النصرة والنجاة، والعلو والتمكين التي أرشد الله تعالى إليها رسوله وحبيبه محمد ﷺ، والتي بها نجى ونصر كليمه موسى عليه السلام، والتي وعده أن يسلك به في سبيلها، ويورثه أرض أعدائه وأموالهم بها..

والتي تتلخص في صبر الحبيب محمد ﷺ كصبر الكليم عليه الصلاة والتسليم، وأن يقوم الحبيب القريب ﷺ على تبليغ الرسالة، كما قام عليها الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم، وهو ما فعله رسولنا الأعظم ونبينا الأكرم، على أكمل وجه وأتمه، فأورثه الله تعالى وأمته، مشارق الأرض ومغاربها، لما صبروا وقاموا على مسئولية البلاغ لهذا الدين، وكانوا كرسولهم رحمة للعالمين..

ولما تبدل النهج، وتحولت السبل، وحارت الأقدام، وعم الزلل ارتفعت النصرة، وزال التمكين، واتبعنا سنن غير المسلمين، في النصرة لهذا الدين، فكانت الفتن العمياء، والمحنة والبلاء، ولو صدَّقنا كما كنا لصُدقنا ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾** ﴾[1].

فبقى أمامنا الصدق في طلب معية الله، وتأييده ونصره، والتي هي مع القائمين له الدالين عليه، المظهرين المبلغين لدينه، الداعين إليه، ﴿ **لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾، هذه النصرة المؤيدة بالفتح المبين، الموعود بها سيد المرسلين ﷺ والتي تتفتح بها أبواب الهداية، للناس جميعا، للدخول في دين الله أفواجا، نصرة الفتح والصفح الجميل، والنصح والإصلاح للعالمين ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾** ﴾[2].

---

١ ـ سورة الصافات: آية ١٧١ : ١٧٣.   ٢ـ سورة النصر: آية ١ : ٣.

تأكيد الوحي

أن أول طرق التمكين

إقامة الإيمان في المسلمين

وقد كان أمر الوحي على خلاف ما يتوقعه البسطاء المتسرعون، وكانت غريبة الأمور، في القدر المقدور من الله تعالى، أن يجعل الوحي طريق التمكين إقامة الصلاة من المؤمنين، وصعود الدعاء من الداعين، والحرص على المعروف، والانتهاء عن المنكر، والالتزام بالتقوى والإيمان..

ولهفا وحزنا على المتأخرين، الذين حرصوا على وسائل المغضوب عليهم والضالين، واتبعوا سنن غير المسلمين في التمكين، وأهملوا أوامر الوحي، وسبل وأسباب النصرة، فرغبوا عنها، وزهدوا فيها، نظرا للمحسوس، وتغليبا للمشاهد، فضاعت الصلاة وأركان الإسلام في الأمة، ولم يسع العاملون للتمكين لإقامتها، حتى لم يبقى يحافظ الآن على صلاة الفجر في الجماعة، إلا نادر النادرين، ومع هذا نطلب الاستخلاف!، ونريد التمكين!..

وإذا سعى الدعاة الصادقون لتبليغ الرسالة، وإحياء أعمال النبوة، وتحصيل صفات الإيمان في الأمة، التي هي أساس النصرة، قام المرجفون، يلوكون العبارات ويُزيفون المعاني، وترفع الشعارات المحمومة، إن الإسلام ليس صلاة وصيامًا، ولا ترتيلا وقيامًا، إن الإسلام ليس دعوة ودعاء، وعمامة وحجابًا، إن الإسلام ليس حجًا وزكاة، ومعاملة وأخلاقا، يعنون كونه السلطة والحكومة..

ونقول وهل يصح الإسلام بغير الأركان، وهل يسمى الإسلام إسلامًا، مع فقد أركانه وقواعده؟، وإذا ضُيعت الأركان في الأمة هل يبقى للإسلام بناء، تُشيد على قمته حكومة، وتنصب على أطلاله راية!، ويُقام من بقاياه سلطة؟، ونقول لقائل هذا القول، أولا أخرج صنم الحكومة من قلبك، حطم في داخلك أصنام الباطل، تتكسر أمامك أصنام الظاهر فالإسلام ينفع بالحكومة، وينفع بغير الحكومة.

فالذي معه الإيمان المطلوب من الله عز وجل هو الذي يمكنه الله تعالى وينصره، ولو لم يطلب ذلك أو يسعى إليه، إذا قبضني الله تعالى وتوفاني قبل التمكين، مع وجود الإيمان والأعمال الصالحة، والحرص على إقامتها في نفسي وعموم الأمة، يعطيني الله تعالى ثواب الخلافة وإقامتها، لأني قُبضت على سبيل قيامها، بتحصيل أسبابها من التقوى والأعمال الصالحة في مجموع الأمة، ويُحمِّل غيري أمانة الخلافة ومسئوليتها..

اليقين الفاسد في القلب ظلمة، بسببها يظن الإنسان الفوز والفلاح في الملك والمال، وصاحب هذا اليقين الفاسد، يرى به الفوز في الأسباب المشاهدة المحسوسة، ولا يعرف أن الكون كله في خلافه، والله عز وجل لا يسلبه الأسباب، بل يجعل ذله فيها، والأمر في حقيقته أنه إذا أتى الله تعالى، وليس في يده الحكومة، وفي يده الإيمان والصلاة وسائر الأركان نجى، وإن أتى إلى الله تعالى وفي يده الحكومة، وليس في يده الإيمان وسائر الأركان هلك، مع تأكيد أن التمكين والنصرة بغير قيام أركان الإسلام، ودعائمه في الأمة عامة، درب من المحال، وزلل آمال..

فأصل القيام الآن لتكميل الإيمان، وتكميل التقوى، ونفي غير الله تعالى من الأشياء وجميع المخلوقات من القلوب، ويكون تأثر القلوب فقط بقدرة الله تعالى وقيوميته، والتوكل والاعتماد عليه وحده فتكميل الإيمان إنما يكون بكثرة الدعوة والدعاء، واخراج علاقة الدنيا وأثرها من القلوب، وتكميل التقوى حتى يكون كل واحد في الأمة تحت أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، فمع وجود أعمال الدعوة والدعاء وحلقات التعليم، وبأمتثال أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ يكون الإيمان الكامل والتقوى الكاملة وتتأكد في الأمة أركان الإسلام.

فهذه الأمة عليها مسئولية إقامة أوامر الله تعالى وهي على قسمين:

أولاً: انفرادية. ثانيًا: اجتماعية.

فإذا قامت أوامر الله تعالى في الأمة انفراديا، تأتيها نصرة الله تعالى الانفرادية، وإذا قامت أوامر الله تعالى في الأمة اجتماعيا، أتتها نصرة الله الجماعية...

أما أوامر الله تعالى الانفرادية، فقد كانت مسئولية المكلفين في الأمم السابقة، إذ ليس عليهم إلا الصلاة والصوم والعبادة، ولا شيء أكثر من ذلك، فإذا أضيف إلى هذه الأوامر الانفرادية، إقامة هذه الأوامر في الناس عامة، فيلتزم بها المجموع لا الأفراد، كانت هذه مسئولية انبيائهم عليهم السلام، فقبل بعثة النبي ﷺ كانت مسئولية الأوامر الاجتماعية، وإقامتها في عموم الناس، هي مهمة ووظيفة الأنبياء السابقين عليهم السلام..

حتى بعث الله تعالى النبي الأكرم، والرسول الأعظم، بهاتين المسئوليتين، مسئولية إقامة الأوامر الانفرادية والأوامر والاجتماعية في الناس، وبُعثت بذات الوظيفة، وعين المسئولية، أمته من خلفه، وكان هذا بسبب ختم النبوة والرسالة..

فلا نبي بعد رسولنا الأعظم ونبينا الأكرم ﷺ وأصبحت نيابة القيام على الأوامر، انفرادية كانت في الأفراد، أم اجتماعية في المجتمعات، هي وظيفة هذه الأمة، وقد أكد ذلك منطوق النبي ﷺ في حديثه: «**إنما بعثتم ميسرين لا معسرين**»[1] فأضاف البعثة لعموم

---

١ ـ رواه الإمام البخاري ج١ كتاب الوضوء باب «صب الماء على البول في المسجد» ورواه الإمام الترمذي ج١ أبواب الطهارة باب «ما جاء في البول يصيب الأرض» ورواه الإمام أبو داود ج١ كتاب الطهارة باب « الأرض يصيبها البول» =

أمتـه بأوامر الله تـعالى عـامة، علـى سبيـل الانفراد، وعـلى سبـيل المجموع، وقد عبَّر صـحابته ﷺ عن خصوصية هذه الأمـة، في نيابة رسولها في هذه الوظـيفة بقولهم: «**إن الله ابتعثنا لـنخرج من شاء من عبـادة العباد إلـى عبادة رب العـباد ومن ضيـق الدنيا إلـى سعة الدنـيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**».

لذلك فإذا قامت هذه الأمة، بأوامر الله تعالى انفراديا فقط، أتتها نصرة الله انفراديا وارتـفعت عنها نصرة الله الجماعـية، وإذا هي قامت بأوامر الله تعالـى جماعيا، بحيث تكـون الأمة بمجملها طائعـة ممتثلة لأوامر الله، أتتها نصرة الله تعالى جماعية على العموم..

= ورواه الإمام النسائي ج١ كتاب الطهارة «ترك التوقيت في الماء»
وروواه الإمام أحمد في المسند ج٢ مسند أبي هريرة.

الأمثلة على نصرة

الله تعالى

الانفرادية والجماعية

والمثال لـهذه النصرة الانفـرادية، ما رواه البخاري رحـمه الله في شأن رفع عامر بن فهيرة ﷺ بعد قـتله إلى السماء، من طريق عروة قال: «**لما قُتل الذيـن ببئر معونة وأُسـر عمرو بن أمية الضـمري، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فـهيرة، قال: لقد رأيـته بعد ما قتـل رفع إلى السماء حـتى إني لانظـر إلى الـسماء بـينـه وبين الأرض، ثـم وضع، فأتـى النـبي ﷺ خبرهم، فنـعاهم، فقال: «إن أصحابـكم قد أصيبوا، وإنهـم قد سألوا ربهم، فـقالوا: ربنـا أخبر عنـا إخواننا بمـا رضينا عـنك ورضيت عـنا، فأخبرهم عنهم**»[1] وأصيب يـومئذ فيهم عـروة بن أسماء بن الـصلت فسمـى عروة به، ومنـذر بن عمرو وسمـى به مُنذرا. هكـذا وقع في رواية البخاري مرسلا عن عروة.

ومن ذلك مـا أخرجه البخـاري عن أنس ﷺ: «**أن رجلين من أصحاب الـنبي ﷺ خرجـا من عند الـنبي ﷺ (في لـيلة مظـلمة) ومعهما مثل المصباحين (يُضيئان) بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله**»[2].

ومن ذلك ما أخبر المولى عز وجل في كتابه عن مؤمن آل فرعون وهو يدعـو قومه للنجـاة ويدعونه للـنار، وكيف أنجاه الله منـهم قال مؤمن آل فرعون ﴿**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ**

---

١ ـ رواه البـخاري ج٢ ص٥٨٧ «كتاب المـغازي باب غـزوة الرجيع ورعـل وذكوان وبئر معونة».

٢ ـ رواه الإمام البـخاري «كتاب المناقـب» والرجلان هما أسيد بن حضير وعـباد بن بشر رضي الله عنهما.

﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ
فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

والمثال للنصرة الجماعية، نصرة الله تعالى للمهاجرين والأنصار في غزوة بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2].

كذلك نصرة الله تعالى للمؤمنين في غزوة الأحزاب، حيث رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزا وأورث المؤمنين أصحاب النبي ﷺ أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم يطؤها، وكان الله على كل شيء قديرا.

وقد امتن الله تعالى على المؤمنين، بنعمته عليهم في الريح التي نصرتهم، والجنود التي أيدتهم..

وهو ما أورده الإمام القرطبي في تفسيره حيث قال ج٨ ص٥٢٢٥: قوله تعالى: ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ يعني الأحزاب ﴿فأرسلنا عليهم ريحًا﴾ قال مجاهد: هي الصَّبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم، قال والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ، وقال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي لنصرة النبي ﷺ فقالت الشّمال: إن مَحْوةً[3] لا تسري بليل. فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبّا. وروي سعيد بن جُبير عن ابن

---

١ ـ سورة غافر: آية ٤١: ٤٦.

٢ ـ سورة آل عمران: آية ١٢٣.

٣ ـ محوة: من أسماء الشمال، لأنها تمحو السحاب وتذهب بها.

عباس قال قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[1] وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريبا منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق وكانوا في عافيه منها، ولا خبر عندهم بها ﴿وجنودا لم تروها﴾ وقرئ بالياء، أي لم يرها المشركون. قال المفسرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، حتى كان سيّدُ كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إلى فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب ﴿وكان الله بما تعملون بصيرا﴾.

والمثال على هذه النصرة الجماعية واضح في كل النصرات التي أيد الله بها رسله وأنبياءه وأقوامهم أمام المكذبين المعرضين.

---

١ ـ رواه الإمام البخاري كتاب الاستسقاء باب «قول النبي ﷺ نصرت بالصبا» ورواه الإمام مسلم ج٢ كتاب صلاة الاستسقاء باب «في ريح الصبا والدبور» ورواه الإمام أحمد في المسند ج١ مسند عبدالله بن عباس، ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين.

الأمثلة لعقوبة الله تعالى

لمن ترك أمره

انفراديا وجماعيا

أما إذا تُركت أوامر الله تعالى انفراديا، فتنزل عقوبة الله وبطش الله انفراديا، والمثال لذلك في السامري الذي صنع لبني إسرائيل عجلا جسدا له خوار، وأمرهم بعبادته زاعما أنه إله موسى وقد نساه عنده، وذهب يطلبه في الطور، فأخبر الله تعالى كليمه عليه السلام بخبره، فرجع إليه متوعدا إياه، بعقاب رب العالمين، جزاء الإفك والكذب المبين..

قال الإمام ابن كثير في قصص الأنبياء ص٣٨٢: «ثم أقبل موسى على السامري» قال فما خطبك يا سامري» أي ما حملك على ما صنعت؟ «قال بصرت بما لم يبصروا به» أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرسا «فقبضت قبضة من أثر الرسول» أي من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه، وكلما وطئت بحوافرها على موضع أخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان...

ولهذا قال: ﴿فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحدا، معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه، هذا معاقبة له في الدنيا ثم توعده في الأخرى فقال: ﴿وإن لك موعدا لن تخلفه﴾ وقرئ: ﴿لن نخلفه﴾ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا، لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا» انتهى.

والمثال الآخر لمن عصى الله تعالى انفراديا، فأتته عقوبة الله انفراديا، هو قارون الذي قال الله تعالى فيه: **﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ**

الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾»[1].

قال الإمام ابن كثير في قصص الأنبياء ص٤٢٠: «قال ابن جرير: وهذا قول أكثر أهل العلم: أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق أنه كان عم موسى. قال قتادة: وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر ابن حوشب: زاد في ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه.

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد، وقد قيل إنها كانت من الجلود وأنها كانت تحمل على ستين بغلاً.. فالله أعلم.

---

١ ـ سورة القصص: آية ٧٦: ٨٣.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: «لا تفرح» أي لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة فإنه خير وأبقى، ومع هذا ﴿لا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال. ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي ولا تُسئ إليهم ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك. ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾.

فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم. ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه، وأني أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالى ردا عليه فيما ذهب إليه: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ من قَبْله منَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ منْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1] أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلو كان ما قال صحيحًا لم نعاقب أحدا ممن كان أكثر مالا منه. ولم يكن ماله دليلا على محبتنا له واعتنائنا به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا

١ ـ سورة القصص: آية ٧٨.

٢ ـ سورة سبأ: آية ٣٧.

نمدُّهم به من مَّال وبنين (٥٥) نُسارع لَهُمْ فِي الْخَيْرَات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾[1].
وهذا الرد عـليه يدل على صـحة ما ذهبنـا إليه من معنـى قوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾[2].

وأما من زعم أن المراد من ذلـك أنه كان يعرف صنـعة الكـيمياء، أو أنه كان يـحفظ الاسم الأعظـم فاستعملـه في جمع الأموال، فـليس بصحـيح، لأن الكيمـياء تخييـل وصنعة، لا تحـيل الحقائق، ولا تـشابه صنعة الخالق. والاسم الأعظم لا يصـعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافـرًا في الباطن منـافق في الظاهر. ثـم لا يصح جوابه لهـم بهذا على التقدير، ولا يبقى بين الكلامـين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير، ولله الحمد.

قال الله تعـالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾[3] ذكر كـثيـر من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم، من ملابس ومراكب وخدم وحشم. فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن كانوا مثله، وغبطوا بما عليه وله، فلما سمع مـقالتهم العلماء، ذوو الفهم الصـحيح الزهاد الألباء، قالوا لهم ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾[4] أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجـل وأعلى. قال الله تعالى: ﴿ وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ أي وما يلـقى هذه النصـيحة وهذه المقـالة، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده، وأيد لبه وحقق مراده.

---

١ ـ سورة المؤمنون: آية ٥٥: ٥٦.

٢ ـ سورة القصص: آية ٧٨.

٣ ـ سورة القصص: آية ٧٩.

٤ ـ سورة القصص: آية ٨٠.

وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات!.

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[1].

لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال: بينا رجل يجر ازاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[2].

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد. عن سالم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه. وقد ذكره عن ابن عباس والسدي: إن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا فيقال أنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها فاستحلفها من دلك على ذلك، وما حملك عليه. فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه. فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون. فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه. فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره. فكان ذلك. والله أعلم.

---

١ ـ سورة القصص: آية ٨١.

٢ ـ رواه الإمام البخاري ج٢ كتاب الانبياء باب «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم» ورواه الإمام مسلم ج٣ كتاب اللباس والزينة باب «تحريم التبختر في المشي مع اعجابه بثيابه» ورواه الإمام الترمذي ج٤ أبواب صفة القيامة وقال حسن صحيح ورواه النسائي ج٨ كتاب الزينة، ورواه الإمام أحمد ج٢ مسند عبدالله بن عمر.

وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام. وهو يذكر قومه بأيام الله. فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه فدعاه موسى عليه السلام فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة. فقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علي ولأدعون عليك.

فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: ندعو أو أدعو أنا؟ قال: أدعو أنا. فدعا قارون فلم يجب له في موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم، فأوحى الله إليه: إني قد فعلت. فقال موسى: يا أرض.. خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم. ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم. ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي، فاستوت بهم الأرض. وقد روي عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة. وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

كذلك من الأمثلة على عقوبة الله تعالى الانفرادية لمن ترك أمره انفراديا ما ذكره الله تعالى عن بلعم ابن باعوراء في سورة الأعراف وهو قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[١].

---

١ ـ سورة الأعراف: آية ١٧٥ : ١٧٧.

قال الإمام ابن كثير في تفسيرها الجزء الثاني ص٢٦٥: وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بلعم - بنو عمه وقومه فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها فأتبعه الشيطان﴾ الآية. انتهى.

وأما الأمثلة على عقوبة الله تعالى الجماعية، لمن ترك أمره جماعيا فكثيرة وعديدة في القرآن الكريم، وهي بينة واضحة في سنة الله تعالى في ذلك، وقد ظهرت لائحة في إهلاك الله تعالى وعقوبته لفرعون وقومه، لما كذبوا موسى عليه السلام، ولم يُذعنوا للإيمان قال تعالى واصفا ذلك ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي

---

١ - سورة القصص: آية ٣٩: ٤٠ ٢ - سورة يونس: آية ٩٠: ٩٢.

فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

وهذا بيان الله تعالى لمن تركوا أمره جماعيًا وكيف كانت عقوبته لهم جماعية منهم قوم نوح قال الله تعالى في حقهم ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2].

ومنهم ثمود قوم صالح عليه السلام قال الله تعالى فيهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[3].

ومنهم عاد قوم هود عليه السلام قال الله تعالى فيهم: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[4].

ومنهم قوم لوط عليه السلام قال الله تعالى فيهم: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ

---

١ ـ سورة الدخان: آية ١٧ : ٢٩.
٢ ـ سورة يونس: آية ٧١: ٧٣.
٣ ـ سورة فصلت: آية ١٧ : ١٨.
٤ ـ سورة القمر: آية ١٨ : ٢٢.

لُوط بالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إنَّا أَرْسَلْنا عليْهِمْ حَاصِباً إلاَّ آلَ لُوط نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عندنا كَذَلكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرهُم بطْشَتَنا فَتَمَارَوْا بالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِه فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ومن الأمثلة على عقوبة الله تعالى الجماعية لمن ترك أمره جماعيا قصة أصحاب القرية الذين كانوا يعدون في السبت.

كما أورد ذلك الإمام القرطبي في تفسير الآيات في سورة الأعراف ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[2].

قال الإمام القرطبي ج٤ ص٢٧٤٢: «وسئل الحسين بن الفضل: هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا، والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا؟ قال: نعم، في قصة داود وأيلة ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ﴾ وروي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد. وروى أشهب عن مالك قال زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطًا ويضع فيه وَهَقَة[3]، وألقاها في ذنب الحوت، والطرف

١ ـ سورة القمر: آية ٣٣: ٤٠. ٢ ـ سورة الأعراف: آية١٦٣.

٣ ـ الوهق: الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ.

الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع هذاَ لا يُبتلى حتى كثُر صيد الحوت ومُشى به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده، فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهرت بالنهي وإعتزلت. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا، فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسبها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتَشُمُّ ثيابه وتبكي فيقول: ألم ننهكم! فتقول برأسها نعم، قال قتادة: سار الشبان قردة والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم» انتهى كلام الإمام القرطبي.

نقول: فالآن ما هو حال أمة النبي ﷺ في القيام على أوامر الله تعالى هل القائمون من الأمة بالأوامر أفراد أم جماعات؟ وهل عموم الأمة في الأوامر على الامتثال التام أم الأوامر بمجملها ضائعة في الأمة مع الأحكام؟.

كم نسبة الإيمان في عموم الأمة، وكم نسبة الصلاة والزكاة والصيام والمعاملات والمعاشرات الإسلامية، والذين قاموا اليوم للالتزام بجميع أحكام الإسلام كم هم في الأمة، وهل يندرجون تحت وصف الخصوص أم العموم؟.

إن كانوا يندرجون تحت وصف الخصوص فنصرة الله اليوم تأتي للخاصة من الأمة، وإن كانوا يندرجون تحت وصف العموم فنصرة الله تأتي على العموم للأمة، كذلك الترك لأوامر الله تعالى هل هو عام أم خاص. إن كان الترك عامّا من الأمة لأوامر الله تعالى فالعقوبة تنزل من الله تعالى شاملة لعموم الأمة، فيتسلط عليها الكفار

والظالمـون، ويظهر الـفساد في البـر والبحر حـتى نعود ونـرجع إلى الامتثال لأوامر الله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٤١﴾﴾[1].

وإن كان الترك خاصا لأوامر الله تعالى من بعض الأفراد في الأمة لا من عمومـها كانت عقوبة الله تـعالى خاصة لا عامة، وتـبقى هذه التساؤلات تبـحث عن إجابات، لمن أرادوا لهذه الأمة أن تـتعافى من كبوتها، وأن تـأخذ كما كانت في جبـين الدنيا مكانتهـا، ما هو واقع الامتثال لأوامر الله تعالى في المسـلمين؟ وكم مسافة الإقبال أو الإدبار عن الدين؟ وهل الإيمان والتوكل التـام موجود على أن الفوز والنجاة في امتثال أوامر الله على هدي النبي ﷺ وفي القيام على نشر وتبليغ هذا الامتـثال في عمـوم الأمة، وإن كان المشـاهد المحسوس بـخلاف ذلك، وهل نحن نقدم متطلبات الـدين على قضاء حوائج الدنيا؟، أم نقدم حوائج الدنيا على متطلبات الدين؟!!

---

١ ـ سورة الروم: آية ٤٠: ٤١.

في أي وقت

إذا تركت الدعوة

فالخلافة لا تكون خلافة!!

أخرج أبو نعيم في الحلية ج١ ص٢١٦ عن جبير بن نفير ﷺ قال: لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض ورأيت أبا الدرداء ﷺ جالسا وحده يَبكى فقلت: يا أبا الدرداء؟ ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره؛ بينا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى. وأخرجه ابن جرير في تاريخه ج٣ ص٣١٨ عن جبير نحوه وزاد بعد قوله: «فصاروا إلى ما ترى فسلط عليهم السباء وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة»...

لذلك كان جهد الدعوة على منهج النبوة، وليس على سبيل الحكومة، هذا المنهج الذي هو طريق الأنبياء، لا يتحرك أو يسير إلا بأعمال الإيمان، لا يتحرك بالحكومة والقوة، ولا يسير بالحكومة أو القوة، أو الكثرة أو المال، ولا تتوقف فاعليته على هذه الأشياء وحدها.

منهج النبوة هو بيان أهمية الإيمان والأعمال أمام الناس، وترغيبهم وتشويقهم للقيام بهذه الأعمال، وتعظيم الخالق لا المخلوق والكلام عن الخالق لا عن المخلوق، والدلالة والقصد للخالق لا المخلوق..

وتوجيه قلوب الناس إلى الله سبحانه وحده والدار الآخرة، إصلاحا للنقص في يقين وتوكل القلوب على غير الله تعالى، وفي توجهها لغير الله تعالى وإلى الدنيا، لا التفات منه إلى حكومة أو إمارة، ولا نظر منه إلى ملك وسلطان..

كل الأنبياء جاءوا بإصلاح الإيمان أولا، ثم العبادات والمعاملات والمعاشرات، ثم السياسات أخيرا، فنحن الآن رأينا الصدع في الحكم والملك، ولم نلحظ الانثلام في الدعوة والإيمان، والعبادات والمعاملات والمعاشرات، وكل أحكام الإسلام..

فالله سبحانه وتعالى لم يجعل الدين شيئا ثقيلا على الإنسان لا يطيقه، بل لم يجعل علينا في ديننا من حرج، وجعله لنا أسلوب حياة شرط أن نقيمه بالترتيب الصحيح، هنالك يكون سهلا وميسرا، فنبدأ أولا بتصحيح الإيمان والتوكل على الله تعالى ثم العبادات والأعمال الصالحة، ثم أخيراً المعاملات والمعاشرات والأخلاق..

إذن لابد من تحقق الدين كاملا فينا حتى تأتي نصرة الله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ فمثل الذي يريد اصلاح الدنيا بفكر الملك والحكومة، وليس بترتيب الدين وأوامر الله تعالى، مثل الذي يريد بناء بيت، فيقوم بصب سقفه قبل الأعمدة والأساس، فبعد رفع الأخشاب يقع عليه السقف فيهلكه..

فأول السير هو على هذا الطريق، طريق النبوة وسبيل الأنبياء، أما الحكومة فأول طريق لها هو طريق القوة، والتحصل على الأسباب والأشياء، فإذا عملت للدين، نشرت الدين بالقوة..

ودين الإسلام لا يمشي ويتحرك بالأسباب الدنيوية وحدها، ولكنه يمشي ويتحرك بطريق الأنبياء، بتشويق الناس للأعمال والإيمان، وبيان أحوال الآخرة وتوجيههم إلى الله تعالى وحده، فتتولد فيهم القناعة الذاتية لامتثال الأوامر، والقيمة العظمى للدين في حياتهم الدنيا وفي الآخرة.

الخلافة لما كانت على طريق النبوة، ازدهر الإسلام وانتشر الدين، حيث إن أغلب معانيها، تدور علي ما بينه الفقهاء بقولهم «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»..

وهو التعريف الذي أورده الإمام الماوردي لها في الأحكام السلطانية ص٥..

وحينـما كانت الخلافـة مسئولة عن حـراسة الدين، والدعـوة إليه، كانت تـتنزل البركات والـنصرة، وعندمـا استمرت الخلافة، وأهـملت فيها الـدعوة رفع الله النصرة والبركـة، وجاء نقصان الدين بـسبب ترك الدعوة، ومع أن الخلافة كانت موجودة، فـإن الناس كانوا يبتعدون عن الإسلام، ويتشككون منه ولا يدخلون فيه..

فهذه الأمة ازدهرت في البداية بالدعوة، وتعلو في النهاية كذلك.

وفي الوقت الـذي قامت فيه الأمة بالـدعوة، كان الطريق مـفتوحا للدخول في الإسلام لا الخروج منه..

وعندما تركت الأمة سبيل الدعوة إلى دينها، وتقديس ملتها، ونشر شريعتـها، كان هذا فتح لطـرق الخروج على أحكام الإسـلام، فالدعوة للأمة مثل السور الذي يحيط بها ويـحفظها، فإذا تُركت الدعوة فالسور الذي يحرسها ويرعاها ينقض ويتساقط..

في أي وقت إذا تُركت الدعوة، الـتي تحفظ وتحرس وترعى الدين، فالخلافـة لا تكون خلافة، ولـكن حكومة، والخلافـة ليس المقصـود بها الحكومة فقط ﴿إني جاعل في الأرض خـليفة﴾ هذه الآية نزلت في آدم عليه السلام وما كان عنده حكومة ولا وزارة..

قال الإمام القرطبي موضحا لها في تفـسيره: «وهو خليـفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره لأنه أول رسـول إلى الأرض»انتهى كلام الإمام القرطبي.

فالخليـفة الذي يقوم برعايـة أوامر الله، والذي يأمر خلـق الرحمن بأوامر المولى عز وجل فيمتثـلون لأمره، وفي أي وقت بسبب الحكومة ما انتشر الإسلام، وبسبب المال ما انـتشر الإسلام، ولكن الإسلام انتشر بسبب الدعوة والتضحية، والجهد لهذا الدين.

وعندما نكون غير داعين لديننا، تعجبنا أديان الآخرين، في الطعام والشراب واللباس، والمعاملات والمعاشرات وكل شيء، حتى طريقتهم في الحياة، تكون هي المطلوبة والمرغوبة لطوائف كثيرة من المسلمين..

الذي يسير على أوامر الدين وليس عنده دعوة، هو في خطر لأنه معرض أن يُدعى إلى أديان الآخرين، وتصورات الآخرين، والإنسان عندما يكون داعيا إلى الله ورسوله لا يكون مدعوا من الشاردين، بل يكون محفوظا ببيئة الدعوة والدين..

الحي يمشي بنفسه، والميت لا يمشي إلا بالآخرين، لا يمشي إلا على أكتاف الرجال، الأديان المحرفة المنسوخة لا تمشي إلا بقوة الحكومة، ولكن دين الإسلام دين حي، يمشي بنفسه، ولا يحتاج لحمل الرجال، لا يحتاج لقوة الحكومة وقوة المال، ديننا حي إلى يوم القيامة، هو يمشي بقدرة وحفاظة الله تعالى..

فإذا كانت في يدك الحكومة، وليس معك صفات الإيمان والأعمال الصالحة، وأردت أن تقيم الدين، ولم تكن أهلا لذلك، فالدين ينكسر من كل الجهات، ينكسر من أمامه ومن خلفه، ويفقد بهاءه وقوته..

وإليك ما ساقه العلماء مثلا لذلك في «قصة صقر لأحد الملوك»، في يوم من الأيام، جاءت ريح عاصفة، وأمطار غزيرة، فترك هذا الصقر قصر الملك، وطار على عريش لبيت امرأة عجوز، فأخذته ونظرت فإذا منقاره منحني ومقوس، ففكرت وقالت: كيف يأكل هذا؟ لابد أن أكسر منقاره حتى يأكل بسهولة، فكسرت منقاره، ثم نظرت فوجدت أظافره طويلة، فقالت مسكين هذا الصقر، كيف يمشي وأظافره طويلة فقطعتها، ثم نظرت فإذا له جناحان كبيران ثقيلان، فقالت مسكين هذا الصقر كيف يطير، وهاذان الجناحان ثقيلان،

فقصت جناحيـه، وفي هذه الأثناء بعث الملك رجاله وجنـوده، ليبحثوا عن الـصقـر، فوجـدوه عنـد العجـوز، فجـاءوا به وبـها، فـقال المـلك للعجوز، عندمـا نظر إلى الصقر، فرآه على هذه الصـورة، أيتها العجوز ماذا فعلت؟، فقالت وجدت منقاره منـحني، فقلت في نفسي، مسكين هذا الصقر كيف يأكل بهذا المنقار، فكسرت منقاره، ثم نظرت فوجدت أظافره طويلة، فقـلت مسكين هذا الصقر، كيف يمشـي وأظافره طويلة إنه لا يسـتطيع أن يمـشي بسهولـة، فقطعت أظـافره، ووجدت جنـاحيه ثقيلين، لا يستطيع أن يطير بهما بسهولة فقصصتهما، ولم أفعل هذا إلا رحمة له وشفقه عليه، فقال الملك مـعلقا على فعلها: إن الشيء إذا جاء في يد من هم ليسوا أهلا له هكذا يصبح حاله» انتهى.

كذلك من ينـادون الآن بالحكومة لقيام الدين، ولـم يكونوا أهلا لذلك، إذا أرادوا للـدين أن يمشي بقوة الحـكومة، هم يكسـرونه من أمامه ومن خـلفه، ويسيرونه حـسب أهوائهم، ويُقطِّعون مـنه جوانب قوته، وأسباب حياته، كما فعلت هـذه العجوز بهذا الصقر، ويصبح الدين معـهم، منكسرا ضـعيفا ذليلا، بـعد تجريده من أسبـاب بقائه، وأساس قوته، هذه العجوز لم تعرف لماذا خـلق النسر فقصته من كل جانـب، كذلك هـذا الدين جـاء من عـند الله، فالـذين لا يعـرفون حقيقته ومقاصده يُقطعونه من كل جانب..

قبل الحكومـة العبد يحتاج إلى الهـداية والإيمان، وإلا صار ضالاً مضلا، فرعون بغـير الهداية ضال مضل، مع أن الحكـومة كانت معه **﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾.**

لذلك لو نتفكر في حياة الأنبياء، لـوجدناهم كلهم إلا قليلا منهم، بسـطـاء ليس عندهم الأمـوال، ولا الحـكومات، ما عدا قليـل منهم، مثل النبي داود وسليمان ويوسف عليهم السلام، ورغم ذلك معهم قام الدين، وبهم انتشرت الرحمة في العالمين...

فالذي عـنده الأشياء، أو لـيس عنده، هـذا عند الله سواء، وعـلاقة الفوز والفلاح ليست بالكثرة، فنوح عليه السلام ما آمن معه إلا القليل، وقد أسعد الله الأقلية، وأهلك الأكثرية..

والفوز والفلاح لا علاقة له بالملك والحكومة، ففرعون ونمرود كان معهما الملك والحكومة، وبالملك حصدوا الخسارة..

والفـوز والفلاح لا علاقـة له بالقـوة والضعف بـحسب المشـاهد، فليس الذي عنده القوة يفوز، والذي لـيس عنده القوة يخسر، قوم عاد كانت عندهم القوة، وظنوا أن فوزهـم وفلاحهم في امتلاك هذه القوة، حتى قالوا مفتخرين «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» قال الله تعالى مجيـبا عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[1] وبالقوة هم حصدوا الخسارة..

الأنبيـاء جاءوا إلى الضـعفاء، ولما آمـنوا بهم فـازوا، والآخرون أصحاب القوة خسروا **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾**[2].

علاقة الفـلاح والتمكين ليسـت بالمال والأشياء، ولكـن بالدين، والناصر في كل حال هو الله تعالى، وينصر عن طريق الدين..

فكمـا أن غير المسلـمين في كل مكان، يـظهرون دعوتهـم، أنهم بالملك والمال والأشياء يتحصلـون على كل شيء، نحن نبين أن بدعوة الإيمان نتحصل على كل شيء..

---

١ ـ سورة فصلت: آية ١٥.

٢ ـ سورة القصص: آية ٥، ٦.

المسلمون الآن عندهم المال والدنيا والملك، ولكن الله تعالى سلط عليهم الظالمين فهزموهم، والصحابة ﷺ ضحوا حتى كانت أوامر الإسلام في كل شعب حياتهم، وكانوا ربانيين في أعلى مراحل العبودية، فنصرهم الله تعالى على كل ملوك الأرض..

ثم تراجع المسلمون بعد ذلك، فأضاعوا أوامر الله تعالى وسنن النبي ﷺ حتى أصبحوا في أدنى مراتب العبودية، وسقطت أحكام الإسلام، من أعلى مرتبة حيث الصحابة ﷺ، إلى أدنى مرتبة حيث نحن الآن، فتكسرت وتحطمت..

ولو كان الذي ضاع منا بعض الدين، أو جزء الدين، لم يكن الخطر، أما معنا فقد ضاع جذر الأوامر، وسقطت أحكام الإسلام في النفوس، واستوحشت منها الأرواح..

لذلك لم يجعل الله تعالى تمكين الدين، إلا لمن كان أهلا له، حتى لا ينثلم الدين في يده، فقال تعالى واصفا الذين قضى لهم بالتمكين ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾[1].

فكل الذين فقدوا أعمال الرسول ﷺ في النصح والهداية والرحمة، وتركوا منهج النبوة في ذلك، ليس عندهم الفوز والفلاح حتى لو كان عندهم الأشياء والملك والمال، والذين عندهم أعمال الرسول ﷺ ودعوته وجهد النصح والهداية، يفوزون ولو لم تكن عندهم الأشياء..

---

١ ـ سورة الأنبياء: آية ١٠٥: ١٠٧.

فعندما يكون التمكين مصحوبا بالإيمان والأعمال الصالحة، مُتحليا بصفة العبودية الخالية من شوائب طلب غير الله تعالى، وعلى هدي النبي ﷺ حينئذ لا خوف على الدين، فالإيمان يحرسه ويحرس الإمارة، والأعمال الصالحة تهذب الملك والحكومة، والعبودية الخالصة وطلب نظر الخالق في كل الأشياء لا المخلوق، تصون العباد والبلاد، وبهذا مدحهم الله تعالى في كتابه وأظهر أمرهم، ليتأخر من ليس منهم، فأخبر الله عز وجل عنهم أنهم ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴿٤١﴾﴾[1].

---

١ ـ سورة الحج: آية ٤١.

نجاة الأمة

من كهف المحنة

وهذا حديث النبي ﷺ في الثلاثة الذين آواهم الغار عن أبي عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم. قال رجل منهم. اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالاً فنأى بي طلب الشجر يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما. فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالاً، فلبثت ـ والقدح على يدي ـ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر. والصبية يتضاغون عند قدمي ـ فاستيقظا فشربا غبوقهما: اللهم إنه كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم إن كان لي ابنة عمّ كانت أحب الناس إلي وفي رواية: «كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها» وفي رواية فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحبُّ الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبدالله أدِّ إلي أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك من**

الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي، فقلت: لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» متفق عليه.

قلت: فهؤلاء الثلاثة الذين هم أمة، أحاط بها البلاء والفتنة، ولم يجدوا لهم ملاذا في الخروج من كهف البلاء والمحنة، إلا صالح أعمالهم، وخالص إيمانهم، فقام أولهم يسأل الله تعالى بصالح عمله، وهو بره بوالديه، فانكشفت المحنة بقدر نسبة صلاحه، بالمقابلة لصاحبيه، فهو يمثل ثلث هذه الأمة، التي أوت إلى الغار، فانحبست في كهف المحنة، ورغم صلاح ثلث الأمة، المتمثل في إجابة الله تعالى لدعائه، بانفراج الصخرة، إلا أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا، فالفتنة والصخرة ما زالت تحبس الأمة كلها، وتمنع انطلاقها وتحررها فلما قام الثاني يسأل الله تعالى بصالح عمله، المتمثل في الكف عن المحرمات، وبذل الصدقات لأهل الحاجة، بغير مقابل، إلا رضاء وجه الله تعالى، لكونه عف عن ابنة عمه، بعد أن ألمت بها الحاجة وقام عنها وهي أحب الناس إليه، فانكشفت الصخرة ولكنهم لا يستطيعون أن يخرجوا، ثلثا الأمة على الصلاح واجابة الدعاء، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا من كهف الفتنة، وسجن المحنة..

ويا تلهف القلب على المتأخرين، الذين لا يخفى عليهم الآن حال الأمة، من قلة الصالحين، وكثرة اللاهين العابثين، حتى ضاعت الأركان، وأظلم المكان، ومع هذا يدندنون على التمكين، ويؤكدون على أنه آن أوان زوال المحنة..

والمحنة لا تزول بالـشعارات والكلمات، بل بأعـمال الصالحين، ونيات الصادقين، ودعاء المخلصين . .

لذلك لما قام الـرجل الثالث، يدعو بصالح عـمله، وهو رد أجر الأجير بعد أن ثمَّره لـه، وساقه الأجير كله، فلم يدع مـنه شيئا، ولما سأل هذا الـرجل الثالث الله تـعالى بهذا الـعمل، الذي كان ابـتغاء مرضاة وجهـه، انفرجت الصخرة، وخـرجوا يسعون، فزالـت عنهم المحنة، لما كانت الأمة بأكملها على الصلاح، وأعمال الإيمان . .

ولما كان ثـلث الأمة فقـط على الصـلاح، عندما دعـا الأول، ما انفرجت الصخـرة، كذلك عندما كان ثلثا الأمة علـى الصلاح عندما دعى الثاني، ما انفرجت الصخرة، حـتى كانت الأمة بمجملها صالحة مؤمنة، وذلك عند دعاء الثالث، فـانفرجت الصخرة، وزالت المحنة، ونقول لمن يدندن الآن بالشعارات، مع ما يراه من أحوال الأمة البعيدة الشاردة عن أسـباب النصرة، يا أخـانا هب أن هذا الكهـف كان فيه أربعة رجال لا ثلاثة، وأنك أنت الرابع في هذا الكهف، وجاء الدور الآن عليك للدعاء، حتى تخرج أنت والثلاثة الآخرون؟

فبربك لو رفـعت يديك، ودعوت بكل ما تـعرف من شعارات، هل تنكشف الـصخرة؟، وهل تنجلي المحنة؟ وهـل تكون أنت سبب نجاة هذه الأمة في الغار، وهؤلاء الثلاثة؟

أم أنت حـابس الأمة في المحـنة لقلـة الصلاح، وضـياع حقيـقة الأعمال، والآن الـذين يريدون لمحـن المسلمين أن تـنجلي، مـع فقد الصـلاح وأعمال الإيمان فـي مجمـوع الأمة، إنما يـتبعون الـسراب، ويتوشـحون السواد، حـزنا في طرق المنـى الطويلـة، التي لا تنـتهي بأقدام السائرين، ولا تضيء سبلها أعين الناظرين .

وقد أورد ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور ج٤ ص٤٩ قال وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه قال بلغني أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام لما أسرع قومه في المعاصي قال لهم اجتمعوا إلي لأبلغكم رسالة ربي فاجتمعوا إليه وفي يده فخّارة فقال إن الله تبارك وتعالى يقول لكم إنكم قد عملتم ذنوبا قد بلغت السماء وإنكم لا تتوبوا منها ولا تنزعوا عنها إلا إن كسرتكم كما تكسر هذه فألقاها فانكسرت فتفرقت ثم قال وأفرقكم حتى لا ينتفع بكم ثم أبعث عليكم من لاحظ له فينتقم لي منكم ثم أكون الذي أنتقم لنفسي بعد».

قلت: وها نحن نرى الآن ذلك، مع أمة النبي صلى الله عليه وسلم، حين ظهرت المعاصي، وقلت الطاعات، ثم لا إقلاع عنها في عموم الأمة، ولا توبة منها. .

كيف سلط الله عليها المحن فانكسرت، وتفرقت على غير انتفاع منها، وبُعث على الأمة في مشارق الأرض ومغاربها من لاحظ له عقوبة من الله تعالى، يقتل ويمزق ويشتت ويفرق، ثم نتساءل «أنى هذا»، فيأتي الجواب ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ ونضع أيدينا على قلوبنا ونحن نتأمل الأثر السابق الذي أورده الإمام السيوطي عند قوله «ثم أبعث عليكم من لاحظ له فينتقم لي منكم ثم أكون الذي أنتقم لنفسي بعد». فبعد أن تسلط علينا من لاحظ له في الشرق والغرب، وتقطعت أوصال الأمة، وانعدم الانتفاع منها، لذاتها ولغيرها، أخشى ما نخشاه هذه المرحلة الأخيرة التي صرح بها الأثر وهي «ثم أكون الذي أنتقم لنفسي بعد» فنسأل المولى عز وجل ألا تكون أمة النبي صلى الله عليه وسلم محلا لانتقامه، وأن يُنعم عليها بالتوبة والطاعات، والإقلاع عن المعصيات، لتنجو بين يديه، وحتى يرتفع تسليط من لا حظ له عليها، بعد عودتها وأنابتها إليه. .

وقد رأينا أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي، تؤكد المعاني السابقة، منها ما روته كتب الآثار عند غزو التتار لبلاد المسلمين، أن أميرة تتارية أُبلغت أن في الأسرى أحد كبار علماء المسلمين وهو مفتي الناحية، فقالت عليَّ به، وأنزعوا عنه عمامته، واجعلوه حاسر الرأس، وضعوا الأغلال في يديه وقدميه، وعجِّلوا لي به، ففعلوا ما أمرت ووقف هذا العالم أمامها، يرفع رأسه، ولا يرف طرفه..

فقالت له الأميرة: أرأيت ما أنت فيه من الهوان؟، لو كان دينكم دين حق، وإلهكم إله حق أكان ترككم لنفعل بكم ما فعلنا؟

ألا ترى كيف مزقناكم وقطَّعناكم، فسكت العالم ولم يتكلم، فسألت مترجمها: لم لا يُجيبني؟ ألا يقدر على الإجابة؟ هل ألجمته المحنة؟ هل أخرسته المصيبة؟

فسأله المترجم فقال العالم: أنا لا أتحدث إلى هذه الأميرة إلا أن أعتم بعمامتي، وتُحل القيود من يدي وقدمي، وأنتعل بنعلي، وبعد ذلك أتحدث عن ديني وإلهي، فنظرت الأميرة إلى من حولها ثم قالت أجيبوه إلى ما طلب حتى نسمع ما يقول..

فلما لبس عمامته، ونُزعت أغلاله، رفع رأسه فقال: أيتها الأميرة أرأيت لو أنك أتيت على أفضل أثوابك فخلعتيه، ووهبتيه لأفضل جواريك، لتتشرف به، وتتزين وتتعاظم فيه، فأخذته هذه الجارية فمزَّقته وقطَّعته، وألقته وراء كل خبيث، وأزالت به القاذورات..

ماذا أنتِ فاعلة فيها؟

قالت الأميرة: كنت أرسل إليها حرسي وقوادي، فيمزِّقُونها بسيوفهم وحرابهم إربا، ويلقونها للوحوش والسباع ينهشونها.

قال العــالم: فإن الله تعــالى قد كسانــا هذا الدين، ثــوب رفعة وعزة، نعــلو به علــى العالمين، فمــزّقناه وقطّعــناه، وألقيــناه وراء كل خبيث، فسلطكــم علينا سوط عذاب، تقتلوننا وتقطّعوننا وتذبحوننا، حتى نرجع إلى ديننا، فإذا رجعنا إليه، نصرنا عليكم ورفعنا فوقكم، فهزمناكم وكانت الغلبة لنا عليكم. .

فأطلقت الأميرة وثاقه، وقالت: صدق الرجل فدعوه يذهب.

وهذه الشــبهة التــي استحوزت عــلى هذه المرأة الــتتارية، عــندما سلطهم الله على المسلمين، فرأت دين المسلمين بذلك التسليط، يكون باطلا، لغلبة الكفار عليهم، هــو الذي استعاذ منه المؤمنون مع موسى عليه السلام بقولهم «ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين».

قال الإمام الرازي في تفسيرها ج٨ ص٤٢٥ وفيه وجوه:

«الوجه الأول: أن المراد لا تفتن بنا فرعــون وقومه لأنك لو سلطهم علينا لوقــع في قلوبهم أنا لو كنا علــى الحق لما سلطتهم علينــا، فيصير ذلك شبهة قويــة في إصرارهم على الكفر فيــصير تسليطهم علــينا فتنة لهم» انتهى كلام الإمام الرازي.

وقد كان ما أخــبر به هذا العالــم، فرجع المسلمــون إلى الصلاح والإيمان والتقــوى، فخرجوا من المحنة، وكــسروا التتار حتــى لم يبق لهم باقــية في ديار المسلمين، حــين جعلوا المواجهة بــين عدوهم وبين رب العالمــين، القاهر فوق عبــاده، والغالب على أمــره، بعد أن ذاق منهــم المسلمون الــويلات العظام، وارتــكبوا في ديار الإســلام ما لم تعرفه الإنسانيه في تاريخها، ولا سطرته قبل ذلك في محنها. .

وقد ذكر العلامة ابن الأثير في تاريخه الكامل نبذة عن فظائعهم وشرورهم، والمآسي التي خلّفوها وأصطنعوها في بلاد المسلمين، وكان خير شاهد على ما فعله هؤلاء المجرمون، حتى أنه نعي بمصيبتهم الإسلام والمسلمين وإليك ما سطره ج١٠ ص٣٩٩ قال رحمه الله: «ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائه ـ ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام»

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها، فأنا أقدّم إليه رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمِّي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيا، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعًا، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة، منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجّال، فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد،

بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقُّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قومًا خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى، وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ـ ما نذكره ـ ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلاً ونهبًا، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حدِّ العراق، ثم بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله، ثم لمَّا فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربندشروان، فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم.

وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهبًا وتخريبًا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عددًا فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير، ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة، وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد، هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتّفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقًا وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها

إلا وهو خائف يتوقعهم، ويترقب وصولهم إليه، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئًا، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحًا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه، ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها، هؤلاء التتر ـ قبحهم الله ـ أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى»انتهى.

وقد ذكر العلامة ابن الأثير أيضا في الكامل بعضا من فظائع هؤلاء التتار بالمسلمين واستخفافهم بدينهم، لما في المسلمين من وهن وضعف، وقلة إيمان وتقوى وامتثال لأمر الله تعالى، مما أدى إلى تسلطهم عليهم أيما تسلط فقال ج١٠ ص٤٩٣: «وحُكي لي عن رجل منهم أنه قال: أخفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بي، وكنت أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول: «لا بالله فيقتلونه، فلما فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول: (لا بالله)]انتهى.

وقال في ص٤٩٤: [ولقد حُكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قلوب

الناس منهم حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب، وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس، ولقد بلغني أن إنسانا منهم أخذ رجلا، ولم يكن مع التترى ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التترى فأحضر سيفا فقتله به.

وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلا في طريق، فجاءنا فارس من التتر، وقال لنا: حتى يكتف بعضنا بعضا، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب، فقالوا نخاف، فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته، وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير} انتهى.

قلت: فلما تبدل حال المسلمين، ورجعوا إلى الإيمان والتقوى ولجأوا إلى الله تعالى نصرهم وأيدهم، وأقام لهم سيف الدين قطز في موقعة عين جالوت فهزمهم وكسرهم بإذن الله تعالى، عندما كان اعتماده التام عليه وعلى نصرته سبحانه..

وهو ما ذكره العلامة ابن كثير في البداية ج١٣ ص٢٢٢ حيث قال عن الملك المظفر قطز رحمه الله تعالى «وقد كان رجلا صالحا كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى المسكر ولا شيئا مما يتعاطاه الملوك وكانت مدة ملكه من حين عزل ابن أستاذه المنصور على بن المعز التركماني إلى هذه المدة، وهي أواخر ذي القعدة نحوا من سنة، رحمه الله وجزاه عن الإسلام وأهله خيرا»انتهى.

قلت: وقد ذكر العلامة ابن كثير في البداية عن الملك المظفر قطز كيف كان إيمانه بنصرة الله تعالى لهذا الدين، وأن ذلك من الله تعالى مكفول تحقيقا لموعوده، وتأكيدا لأمره، وأنه مع الإيمان لا يضيع الإسلام، لأن الله تعالى يقيم في كل وقت لدينه من يحفظه، شرط أن يقوم الناس على المطلوب منهم، من الإيمان والأعمال الصالحة، وأن يتحقق فيهم المقصود الذي أراده الله من هذه الأمة﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فقال رحمه الله في ج١٣ ص٢٢٥ في ترجمته (الملك المظفر قطز بن عبدالله سيف الدين التركي) أخص مماليك المعز التركماني أحد مماليك الصالح أيوب بن الكامل لما قتل أستاذه المعز قام في توليه ولده نور الدين المنصور علي فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة كما تقدم ثم سار إلى التتار فجعل الله على يديه نصرة الإسلام كما ذكرنا، وقد كان شجاعا بطلا كثير الخير ناصحًا للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيراً.

ذكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قتل جواده ولم يجد أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب، فترجل وبقي واقفًا على الأرض ثابتًا، والقتال عمال في المعركة وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب فلامه بعض الأمراء وقال: يا خوند لم لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن

بعض الأعداء رآك لقتـلك وهلك الإسلام بسببك فقـال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسـلام فله رب لا يضيعه، قد قـتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقا من الملوك، فأقـام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضيع الإسلام. رحمه الله» انتهى.

قلت: وقد كان استنصاره رحمه الله تعـالى بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى عظيـما، وكان سلاح الصلاة والدعاء عنده مـقدما، وكسر الله عز وجل علـى يديه التتار وإلى آخـر الدهر، في ملحـمة كبرى، وآية عظمى . .

قال العلامة ابـن كثير ص٢٢٦ في وصف الملك المظفـر قطز رحمه الله تعالـى وما أُثر عنـه في ذلك «ثم كـانت وقعة الـتتار علـى إثر ذلك فكسرهم وطردهم عن البلاد، وقد روى عـنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمـراء والجيوش اللذيـن معه: لا تقاتلـوهم حتى تزول الـشمس وتفيء الظـلال وتهب الرياح ويدعوا لـنا الخطباء والناس فـي صلاتهم، رحمه الله تعالى» انتهى.

وقال عنه في وصف وقعة عين جالوت وما قدره الله من هزيمة التتار على يديه «والمقصود أن المظفر قطز لما بـلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديـار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه حتى انتهى إلى الشام وإستيقظ لـه عسكر المغول وعليـهم كتبغانوين وكـان إذ ذاك في البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجيـر ابن الزكي فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمـد هولاكو فأبى إلا أن يناجزه سريعًا فساروا إليه وسار المظفر إلـيهم فكان اجتماعهم على عـين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان فاقتتلوا قتالا عظيمًا فكانت النصرة ولله

الحمد للإسلام وأهله، فهزمهم المسلـمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغـانوين وجماعة من بـيته وقد قيل إن الـذي قتل كتبغانـوين الأمير جمال الدين آقوش الشـمسي، واتبعهم الجيش الإسلامي يقـتلونهم في كل موضع وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالا شديـداً وكذلك الأمـير فارس الـدين أقطـاي المستـعرب وكان أتـابك العسكـر، وقد أسر من جماعة كـتبغانوين المـلك السعيد بن الـعزيز بن العادل فـأمر المظفر بـضرب عنقه، واسـتأمن الأشرف صاحـب حمص وكان مع التتار وقد جعله هولاكوخان نـائبًا على الشام كله فأمنه الملك المظـفر ورد إليـه حمص وكـذلك رد حـماه إلى المـنصور وزاده المـعرة وغيرها، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب واتبـع الأمير بيبرس الـبندقداري وجماعـة من الشجعان الـتتار يقتلـونهم في كل مكان إلى أن وصـلوا خلفهم إلى حـلب وهرب من بدمشق فيهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون منهم ويستفكون الأسارى من أيديهم وجاءت بذلك البشـارة ولله الحمد على جـبره إياهم بلـطفه فجاوبـتها دق البشـائر من القلـعة وفرح المؤمـنون بنصر الله فـرحًا شديداً وأيد الله الإسـلام وأهله تأيـيداً وكبـت الله النـصارى واليـهود والمنـافقـين وظهر ديـن الله وهم كارهون»انتهى كلام الإمام ابن كثير.

قلت: فالظهور والعلو التمكين لهذا الدين هو موعود الله تعالى، الذي لا يتخـلف ولا يتبدل، وهذا المـوعود قائم على مـطلوب ﴿ولا تهنوا ولا تحـزنوا وأنتم الأعلون إن كنـتم مؤمنين﴾ فمـع كمال الإيمان والتقوى يكون التأييد والعون والنصرة من الله تعالى، وإذا قامت هذه الأمة على مـقصد وجودها من الدلالـة على الخالق وتعظـيمه ودعوة الناس وتعبيـدهم له، كانت معية الله معها، وكانـت المواجهة في كل موقف بين الله تعالى وبين عدوهم، لا بينهم وبين هذا العدو. .

وهو ما قاله الهرمزان بين يدي عمر رضي الله عنه، وقاله قبله حيي بن أخطب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد أورد ذلك الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ج٤ ص١٢٤، ١٢٥ بعد أن ذكر كيف أمكن الله تعالى من بني قريظة لخيانتهم الله ورسوله في غزوة الأحزاب وتحالفهم مع قريش ضد المسلمين في المدينة بقيادة كعب بن أسد وحيي بن أخطب، قال الإمام ابن كثير: وأتى بحيي ابن أخطب وعليه حلة فقاحية[1] قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أما والله ما لمت نفس في عداوتك ولكنه من يخذل اللهُ يُخذلِ. ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، أنه لا بأس بأمرَ الله، كتابِ وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه، فقال جبل بن جوال الثعلبي:

لعمرك ما لامَ ابنُ أخطبَ نفسه ... ولكنه من يَخذلِ اللهُ يُخذلِ
لجاهد حتى أبلغ النفس عُذرها ... وقلقل يبغى العز كل مقلقل

قلت: فانظر إلى تقرير ذلك اليهودي حي بن أخطب أمام النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما لام نفسه في عداوته، وأنه حمد لهذه النفس عداوتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعاليم دينه، وحنقها وحسدِها وغيظها من رسول الإسلام وإمام المرسلين، ولكنه أذعن لسنة الله تعالى التي كان في خلافها، وقرر أن العز والذل بيد الله تعالى وحده فمن خذله الله تعالى فهو المخذول، ولو كل أسباب الدنيا بيديه، ومن أعزه الله تعالى فهو المنصور، ولو أنفضت الأسباب كلها حواليه، وقد أقر هذا الرجل أنه من يغالب الله يغلب، وأن الله تعالى قدر الغلبة لرسله

---

١ ـ قال ابن هشام (فقاحية: ضرب من الوش).

ولأنبيائه وللمؤمنين لان المواجهة معهم مواجهة معه سبحانه وهو القاهر فوق عباده: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1].

أما كلام الهرمزان فقد أورده الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ج٧ ص٨٧ فقال: «ثم بعث أبو سبرة بالخمس وبالهرمزان مع وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فلما اقتربوا من المدينة هيؤا الهرمزان بلبسه الذي كان يلبسه من الديباج والذهب المكلل بالياقوت واللآلئ. ثم دخلوا المدينة وهو كذلك فتيمموا به منزل أمير المؤمنين، فسألوا عنه فقالوا: أنه ذهب إلى المسجد بسبب وفد من الكوفة فجاؤا المسجد فلم يروا أحدا فرجعوا، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا: إنه نائم في المسجد متوسدا برنسا له. فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسا له كان قد لبسه للوفد، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره والدرة معلقة في يده. فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه، وجعل الهرمزان يقول: وأين حجابه؟ أين حرسه؟ فقالوا: ليس له حجاب ولا حرس، ولا كاتب ولا ديوان. فقال: ينبغي أن يكون نبيا. فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال: أعوذ بالله من النار وأستعين بالله. ثم قال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غدارة. فقال له الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه. فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء. ففعلوا

---

١ ـ سورة الصافات: آية ١٧١ : ١٧٣.

ذلك وألبسوه ثوبا صفيقا، فقال عمر: يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر: إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبانكم، إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا. فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا» انتهى.

نقول: فهل الأمة الآن بأحوالها معها معية الله؟، وهل الله تعالى الآن بنصرته وتأييده وعونه مع الأمة؟!، أم ضاعت منا معية الله، وتخلفت عنا نصرته، وخلى الله تعالى بيننا وبين أعدائنا فغلبونا، إذ لم يكن الله معنا ولا معهم، ومتى نجتهد لهذا الدين ونُحصِّل حقيقة الإيمان الذي يكون به الله تعالى معنا فنغلبهم ونعلو عليهم **﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[1].

وقد نرى أهل الدعوة في دروب الغربة، وحدهم سائرين، مع مقاصد النبوة والرسالة، لإصلاح ما انصدع من منارة الدين، والحرص والشفقة على المسلمين، فيكشفون بأيديهم عن أعين الأمة ضبابها، ويُحلِّقون بالعصاة منهم في سمائها، فيعودون إلى كنفها نادمين، ويخرجون من كهف المحنة والمعصية تائبين، ثم يقال بعد ذلك عنهم، أنهم لا يطبقون الشرع ولا يُظهرون الدين، وأوامر الشرع ناطقة فيهم، وشارات الدين وحدها بأيديهم، ومن عرفهم قرأت في وجهه الدين، وفي لسانه سنن المرسلين، وفي نيته وقصده صراط الله المستقيم...

---

١ ـ سورة آل عمران: آية ١٣٩.

رجل وإيمان
سبب التمكين والنصرة

مع وجود الإيمان والتقوى والموافقة لأمر الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ والألتصاق بهذا الدين المتين، تكون العزة والاستعلاء، والاستخلاف والتمكين، وتنمو الصفات الإيمانية التي تكون محلا لنصرة الله وعونه، بأقل الأسباب المادية، والأشياء المحسوسة، بعد أن نستنفد وسعنا وطاقتنا في تحصيلها، وإن لم تستوعب بعض الأذهان ذلك..

ونمو هذه الصفات في أهل الإيمان وأثرها، مثل نمو الفرخ في داخل البيضة، فعندما تكتمل صفاته، ويتكون جسدا كاملا، ينفخ الله تعالى فيه الروح، فيتحول أمره ويتبدل حاله، ويبدأ بمفرده بمنقاره الصغير الضعيف، يكسر الباطل السميك القوي، المحيط به من كل جهاته، بهذا المنقار الصغير يكسر جسد البيضة، وقشرة الباطل من حوله بإذن الله تعالى وقدرته، أما إذا لم يكتمل نموه وصفاته، أو فسدت البيضة التي هو داخلها، فلن يستطيع أن يخرج منها، ولو ساعدناه بأسباب المادة، وكسرنا هذا الحاجز الخارجي، والقشرة من حوله، فلن نجد شيئا غير الفساد أو البياض داخلها..

هذا بيت المقدس فُتح برجل مؤمن مع ناقته، وخفه على عاتقه، وقدماه في المخاضة، وهي هيئة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عند تسلمه لمفاتيح بيت المقدس..

فنصرة الله تعالى مع وجود الإيمان والأعمال الصالحة، وقيام التقوى في الأمة، لا تحتاج إلى كثير من الأسباب المادية، التي انشغلنا بها وحدها، سعيا وراء تحصيلها، واعتمدنا عليها بمفردها، فلم يملكنا الله تعالى اياها، ولم يوصِّلنا لها، ووكلنا إليها، وهي ليست فاعلة ولا جاعلة ولا مُقدِّرة، ونسينا أمر الله تعالى السابق لها، والمقدم عليها والذي هو أساس نفاذها، وإمضاء أثرها..

رجل وناقة وإيمان، سبب التمكين والنصرة، وفتح بيت المقدس ولكن أنى لنا برجل مثل هذا الرجل رضي الله عنه في زماننا، وأنى لنا بإيمان مثل إيمانه في قلوبنا.

وقد كان إسلامه عزًا لهذا الدين، وإجابة لدعوة سيد المرسلين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين، لما دعى له بدعوته، وأمل في توبته، فقال ﷺ: **«اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة»**[1] فاصابته الدعوة وحده، وكانت أولى خطوات مجده، فكان عزًا للإسلام من أول إسلامه، حيث كبر المسلمون بإسلامه تكبيرة سُمعت بأعالي مكة، وخرج المسلمون في صفين حتى طافوا بالبيت، لا يخافون أحدًا، ولم ينس عمر رضي الله عنه أساس العزة، وسبب التمكين، ولم يضف لنفسه أمرًا ثبت له بدعوة النبي ﷺ أنه رضي الله عنه كان عزة ورفعة لهذا الدين، بل أضاف العزة إلى سببها، وردها إلى أصلها ومنبعها، وذلك بقوله لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عندما طلب منه أن يُغير من هيئته المتواضعة، التي أتى بها، فدفعه عمر رضي الله عنه في صدره وقال له: **«أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد ﷺ إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله».**

وهاك هو حديث عمر رضي الله عنه وهو ما أخرجه الحاكم ج١ ص٦١ عن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها

---

١ ـ رواه الإمام ابن حبان ج١٥ ص٣٠٦.

المخاضة؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك، فقال عمر: أوه! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد ﷺ إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله» انتهى قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1]، ووافقه الذهبي فقال: على شرطهما.

وعند أبي نعيم أيضًا في الحلية ج١ ص٤٧ عن قيس قال: «لما قدم عمر رضي الله عنه الشام استقبله الناس وهو على بعيره فقالوا: يا أمير المؤمنين! لو ركبت برذونا تلقاك عظماء الناس ووجوههم! فقال: لا أراكم ههنا إنما الأمر من ههنا ـ وأشار بيده إلى السماء ـ خلوا سبيل جملي».

ويالك من أمير هدى يا عمر، ويا بعد الآذان التي تلهو وتغفل عن قولك وهديك، فتسعى في غير منهج النبوة والدعوة لتحصل الموعود، وهو التمكين، بغير تحقيق المطلوب من الأمة، وهو الإيمان والأعمال الصالحة، والالتصاق بأوامر وهدى هذا الدين، وإحيائها في المسلمين. .

فالصحابة رضي الله عنهم مكنهم الله تعالى في الأرض، وبشروا بالجنة والرضوان، ونحن نحب أن نكون من أهلها، وأن يمكن الله تعالى لدينه على أيدينا مثلهم، فما يجب أن نكون عليه لتحقيق ذلك، هو التشبه بصفاتهم، واتباع هديهم، والقيام على أعمالهم، ولكن ما هو كائن من صفتنا الآن، هو البعد البعيد عنهم. .

---

١ ـ رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين كتاب الإيمان المجلد الأول وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، لاحتجاجهما جميعا بأيوب بن عائذ الطائي، وسائر رواته، ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث الأعمش عن قيس بن مسلم.

فلابد من مقابلة ما يجب أن نكون عليه من صفاتهم، وما هو متحقق عندنا وكائن لدينا من هذه الصفات، والمتبقى من ذلك هو المطلوب منا الحصول عليه، فإذا ما حصلنا عليه مكن الله تعالى للدين بالدين، وأعز الله تعالى المسلمين بالإسلام والإيمان، عندما يصل إيماننا وتضحيتنا إلى المطلوب منا من الله عز وجل، حينئذ يفصل الله تعالى بالهداية والنصرة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[1].

وقد قال عمر رضي الله عنه لأمير الجيش: «**اتقوا الله فبتقوى الله تنصرون على عدوكم ولو أستويتم معهم في المعصية غلبوكم بالقوة والعتاد**».

وفي فتح مصر كانت الوصية من عمر رضي الله عنه إلى المسلمين، بصدق النيات، وتقوى الله تعالى، والالتجاء إليه، فهي أساس النصرة..

وهو ما أخرجه ابن عبدالحكم عن زيد بن أسلم قال: لما أبطأ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه:

«**أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وأن الله تعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف إلا أن يكون غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس وأمر الناس أن يكونوا لهم صدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة وليعج الناس إلى الله وليسألوه النصر على عدوهم**» فلما أتى

---

١ ـ سورة الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦.

عمروا الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبون إلى الله ويسألونه النصر ففتح الله عليهم».

أقول: وبالله عليك كيف لجيش أو أمة ليس فيها واحد يريد الدنيا مع الآخرة أن ينهزم، أو ترتفع عنه نصرة الله تعالى..

أخرج ابن جرير في تاريخه ج٣ ص١٢٨ عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: والله الذي لا إله إلا هو! ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب وقيس بن المكشوح».

فبهذا كانوا ينتصرون، وبهذا ارتفعوا وصاروا الأعلون، وتقدموا وسادوا، وما زالوا يتقدمون، حتى انتهت بأقدامهم الأرض، وخاضوا المحيطات ليُشهدوها، على صدق عهدهم، ووفاء بيعتهم، وهذا قول عقبة -رضي الله عنه- لما وصل إلى المحيط، فاقتحمه بفرسه، واستل سيفه وقال: **«وعزتك وجلالك لولا هذا البحر لطفت البلاد أجاهد في سبيلك حتى لا يعبد رب سواك».**

فصدق فيهم قول الشاعر:

إذا صدموا شم الجبال تزلزلت ... وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر

ولو وردت ماء الفرات خيولهم ... لقيل هنا قد كان فيما مضى نهر

قال العلامة القرطبي ج١ ص١٠٦٣ في تفسير قوله تعالى ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ الفئة: الجماعة من الناس والقطعة منهم، من فأوت رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته. وفي قولهم ﷺ: ﴿كم من فئة قليلة﴾ الآية، تحريض على القتال واستشعارٌ للصبر واقتداءٌ بمن صدّق ربه.

قلت: (أي الإمام القرطبي) هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدّام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفيه مسند أن النبي ﷺ قال «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! . قال الله تعالى:

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[1] وقال: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[2] وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[3] وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾[4].

---

١ ـ سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

٢ ـ سورة النحل: الآية ١٢٨.

٣ ـ سورة الحج: الآية ٤٠.

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقًا وغربًا برًا وبحرًا، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم!» انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فمع وجود أسباب النصر وشروطه، وهي اليقين بالله تعالى والتوكل والاعتماد عليه، والتقوى والإيمان والصبر على أمر الله تعالى تنزل النصرة، فلو مال القلب ولو شيئا قليلا إلى غيره، فإنه سبحانه وتعالى يغار ويمنع نصرته من عبيده، ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ**﴾ ولكن هذا النصر المتكرر والمتعدد، قد تخلف عن المؤمنين في موضع من المواضع، رغم وجود النبي ﷺ وخيار الصحابة رضي الله عنهم وتوفر العدة والعتاد الكامل، ومع هذا فقد ارتفعت النصرة عنهم، وذلك يوم حنين ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾ أي عندما استأنست القلوب بشيء من الأسباب ﴿**فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)**﴾[1] الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أكثر من عشرة آلاف مقاتل، والكفار أربعة آلاف، وأفراد قلائل من الصحابة هم الذين قالوا «لن نغلب اليوم من قلة» فاستأنسوا بالكثرة، والركون إلى العُدة، والله تعالى يغار، لما مالت القلوب إلى غيره، واستأنست بسواه، ومالت إلى ما هو دونه، رفعت النصرة، ونزعت القوة، وامتنع التأييد، والسبب ﴿**أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾، فانهزموا وولوا مدبرين، وهم خيرة المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم وهم أشجع الناس، ومع هذا فسنن الله تعالى ثابتة لا تتغير، فالذي يطيعه ويتوكل عليه، ولا يلتفت إلى غيره، جعل سنته أن ينصره..

---

٤ ـ سورة الأنفال: الآية ٤٥.

فإذا كانت القلوب متوجهة إلى الله تعالى، ومعتمدة عليه، ومتوكلة به، وخائفة منه، هنا تكون الغلبة والنصر والفتح، وهذا من سنة الله عزّ وجلّ، فنصرة الله لا تنزل إلا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وبالتقوى واليقين والاعتماد عليه، هذه هي الأسباب لنزول النصرة من الله..

فكل من أراد هذه النصرة لابد له من النظر إلى أوامر الله تعالى، ولا يتوقف ويعتمد على الأسباب المادية وحدها، فالإسلام ونشره لا يتوقف على الأسباب المادية فقط بل يحتاج إلى الإخلاص والتضحية والجهد وتأييد الله تعالى، وهذا لا يكون إلا بالقين الراسخ عليه، والأسباب قد تكون في يد أعداء الله تعالى، ولكن النصرة مع أنبيائه وحدهم، وهذا من سنته سبحانه، ويكون التمكين منه عزّ وجلّ والتأييد والنصرة، حتى مع قلة الأسباب المادية.

وهذا الذي حدث مع هذه الفئة المؤمنة التي كان دعاؤها عندما برزت لجالوت وجنوده ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) ﴾[1] فأنزل الله تعالى عليهم نصره، وأيدهم مع قلتهم وضعفهم، بأقل أسباب النصرة، قال تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ فكانت ريح النصر، بأقل الأسباب المادية، المحسوسة المشاهدة، فقد قُتل جالوت الذي كان يهزم جيشًا وحده، وهُزم أمام فتى مؤمن ومقلاع وحجر، فتى مؤمن ومقلاع وحجر، هي كل أسباب النصر للمؤمنين أمام جيش جالوت، وكل جالوت..

وهو ما أورده الإمام القرطبي في تفسيره ج٢ ص١٠٦٤ : ١٠٦٥ في قوله تعالى ﴿وقتل داود جالوت﴾

وذلك أن الملك طالوت اختاره من بين قومه لقتال جالوت، وكان رجلا قصيراً مسقاماً مصفاراً أصفر أزرق، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم، وكان يهزم الجيوش وحده، وكان قتل جالوت وهو رأس العمالقة على يده. وهو داود بن إيش بكسر الهمزة، ويقال داود بن زكريا بن رشوى، وكان من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وكان من أهل بيت المقدس جمع له بين النبوة والملك بعد أن كان راعيًا، وكان أصغر أخوته وكان يرعى غنما، وكان له سبعة أخوة في أصحاب طالوت فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن إلى رؤية هذه الحرب، فلما نهض في طريقه مر بحجر فناداه يا داود خذني فبي تقتل جالوت ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها وجعلها في مخلاته وسار فخرج جالوت يطلب مبارزاً فكع الناس عنه حتى قال طالوت: من يبرز إليه ويقتله فأنا أزوجه ابنتي واحكّمه في مالي فجاء داود عليه السلام فقال: أنا أبرز إليه وأقتله، فأزراه طالوت حين رآه لصغر سنه وقصره فردّه، وكان داود أزرق قصيراً، ثم نادى ثانية وثالثة فخرج داود فقال طالوت له: هل جربت نفسك بشيء؟ فقال نعم؛ قال بماذا؟ قال: وقع ذئب في غنمي فضربته ثم أخذت رأسه فقطعته من جسده قال طالوت: الذئب ضعيف، هل جربت نفسك في غيره؟ قال: نعم، دخل الأسد في غنمي فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتهما، أفترى هذا أشد من الأسد؟ قال لا، وكان عند طالوت درع لا تستوي إلا على من يقتل جالوت، فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت فقال طالوت: فاركب فرسي وخذ سلاحي ففعل فلما مشى قليلاً رجع

فقال الناس: جَبُن الفتى! فقال داود: إن الله إن لم يقتله لي ويُعنِّي عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح ولكن أحب أن أقاتله على عادتي. قال: وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها وأخذ مقلاعه وخرج إلى جالوت وهو شاكٍ في سلاحه على رأسه بيضة فيها ثلاثمائه رطل، فيما ذكر الماوردي وغيره فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إلي! قال نعم؛ قال: هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال نعم، وأنت أهون. قال: لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع ثم تدانيا وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافا به فأدخل داود يده إلى الحجارة، فروى أنها التأمت فصارت حجراً واحداً فأخذه فوضعه في المقلاع وسمى الله وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله وحز رأسه فجعله في مخلاته، واختلط الناس وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة وقد قيل: إنما أصاب بالحجر من البيضة موضع أنفه وقيل: عينه وخرج من قفاه وأصاب جماعة من عسكره فقتلهم وقيل إن الحجر تفتت حتى أصاب كل من في العسكر شيء منه وكان كالقبضة التى رمى بها النبي ﷺ هوازن يوم حنين والله أعلم» انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فانظر إلى قول داود عليه السلام «**إن الله إن لم يقتله لي ويُعني عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح**»، فلم ينظر إلى المحسوس المشاهد فقط، وإنما اعتمد على فاعلية الله تعالى واعانته ونصره، وهذا أساس الإيمان الكامل، فلم يركن إلى السلاح وحده، ويجمع العتاد لتحصيل النصر، لأنه يعلم أن السلاح والعتاد بغير إيمان، فشل وخذلان، والإيمان مع وجود العتاد أو عدم وجوده، كفيل بنجاة صاحبه ونصرته..

ويكفي تحـصيل أقل أسباب القـوة، المقدور عليها حـسب الوسع والطاقة، فينميها الله تعالى، ويُمكن بها عند تناولها، للسنة في ذلك، مع الاعـتمـاد علـى الله تعـالى وحده فـالعـصيـان سبـب الخذلان، والمخالفة لسنن المصطفىﷺ تصيب صاحـبها بالفتنة في دينه، وينال بالإصرار عـليها العـذاب الأليم ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾.

وقد قـص الله تعالى عـلينا فـي القرآن، عن أفـضل الناس بـعد الأنبياء، وهم صحابة النبـيﷺ في غزوة أحد، لما اجتهدوا في أمر من أوامر النبوة، وخالفوه غير متـعمدين في ذلك، فترك الرماة الجبل الذي أمرهم النبيﷺ أن يقفوا علـيه لحماية ظهور الصحابة، ورأوا أن الدائرة قـد دارت على المشركين، وتجـاوزت الخيل خيامـهم وفرت نساؤهـم صاعدات على الجـبل، فقال بعض الـرماة الغنيـمة أي قوم الغنيمة، قد ظهر أصحابكم فما تـنتظرون وصاح بهم أميرهم، أنسيتم ما قال لكم رسول اللهﷺ، فلم يسمعـوا منه، وتأولوا في مخالفة أمر النـبيﷺ بأن المعركة قـد انتهت لصـالح المسلمين، ولـم تكن المعـركة قد انتـهت، ولم تكـن لصالح المـسلمين، بـل أصيب فيـها المسلمون بهذه المخـالفة لأمر النبيﷺ غير المتعمـدة، بما لم يصابوا بمثله، إذ قُتل فيها سبعون من خـيار الصحابةرضي الله عنهم منهم أسد الله وأسد رسوله حـمزةرضي الله عنه ومصعـب بن عميـررضي الله عنه وكان عدم طاعـة الرماة نقصًا فـي العمل، فأرتـفعت النـصرة حتى مع وجـود الرسولﷺ وكبار الصحابـةرضي الله عنهم فالنصرة والتأييد من عند الله عـلى الإيمان الكامل والتقوى، والواجب علينا هو التحول من الإيمان الناقص، إلى الإيمان الكامل الذي لا مخالفة فيه ولا معـصية، فمع الإيمان الكامل والتقوى يفتح الله أبواب النصرة الغيبية..

مثل غزوة بـدر وما حدث فيها عنـدما توكلوا على الله فـنصرهم ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ أي قليل عددكم وعـدتكم، حتى يعلم المؤمنون أن النصر من عند الله، لا بكثرة العدد ولا العدة.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره الجزء١ ص٤٠٠: وقال الإمام أحمد حدثنـا محمد بن جـعفر حدثنـا شعبة عن سـماك قال: سمعـت عياض الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء، أبـو عبيدة ويزيد ابن أبي سفيان وابـن حسنة وخالد بن الوليد، وعـياض ـ وليس عياض هذا الذي حـدث سماكا ـ قال: وقـال عمر: إذا كان قـتالا فعليـكم أبو عبيدة: فكتبنا إليه أنه قد جأش إليـنا الموت واستمددناه؛ فكتب إلينا إنه قد جاءنـي كتابكـم تستمدونـني وإني أدلكم عـلى من هو أعـز نصرا، وأحصـن جندا، الله عزّ وجـلّ فاستنـصروه فإن مـحمداً ﷺ قد نـصر في يوم بدر في أقل من عـدتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فـقاتلوهم ولا تراجعوني قال: فقـاتلناهم فهزمناهم أربع فراسـخ قال: وأصبنا أموالا فتشـاورنا فأشار علـينا عياض أن نـعطي عن كل ذي رأس عـشرة قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقـال شاب أنا إن لم تغضب قال: فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة ينفـران وهو خلفه على فرس أعرابي، وهذا إسناد صحيح، وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بندار عن غندر بـنحوه، واختاره الحافـظ الضياء المقدسـي في كتابه» انتـهى كلام الإمام ابن كثير.

وفي غزوة أحد كسرت رباعية النبي ﷺ، وشج رأسه الشريف وسال الدم على وجهه وهو يقول صلوات ربي وسلامه عليه بأبي هو وأمي «**كيف يُفلح قوم شجوا رأس نبيهم**»(١).

وما من بيت من بيوت المدينة، إلا وكانت فيه نائحة، كل ذلك بمخالفة أمر واحد من أوامر النبي ﷺ وعدم الموافقة لأمره، مع أنها غير متعمدة ولا مقصودة، وقد بين الله تعالى ذلك، وأظهره في كتابه، لمن يريدون معرفة النصرة وأسبابها من المسلمين، وإلى قيام الساعة، قرآنا يتلى على الآذان، وتتدبره العقول، وذكرى ﴿**لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾**﴾(٢) فقال عز من قائل ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾(٣).

فتأمل معنى قوله تعالى ﴿**وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم**﴾ وهل تشعر بما أشعر به لهؤلاء المخالفين، المتقدمين على سنن المصطفى ﷺ وعلى أي من ثوابت الشرع والدين، بدعوى أنها تصطدم مع مصلحة دعوتهم، ولا ندري أية دعوة تلك، التي يكون معها المنافرة لأحكام الشرع، ولأوامر النبوة!!...

---

١ - رواه الإمام البخاري ج٤ ص١٤٩٣ «باب ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون»، ورواه الإمام مسلم ج٣ ص١٤١٧ «باب غزوة أحد، ورواه الإمام أحمد ج٣ ص٢٥٣، ورواه الإمام ابن حبان ج١٤ ص٥٣٧ «ذكر احتمال المصطفى ﷺ الشدائد في إظهار ما أمر الله عز وجل».

٢ - سورة ق: الآية ١٣٧.

٣ - سورة آل عمران: ١٥٢.

التي مخالـفتها توقع الأمة في كـثير من المحن، التي تمثـل حقيقة الواقع الـذي نحيا فـيه الآن، والذي يظهـر في تفرق الأمـة بدلا من اجتماعها واعتصامها، وذلها بدلا من عزها. .

أما الذين في رغباتهم وهواهم سـنة النبي ﷺ فعلى جهد هؤلاء الناس وتـضحياتهم، يـجعلهم الله سبـبًا لإجراء طاعته ومرضـاته في الدنيا بأسرها. . .

وقد أورد الإمام البخاري تـرجمة في صحيحه تبين كـراهية النزاع والفرقـة وعقوبة من خـالف سنة المصـطفى -ﷺ- وتقدم عـلى إمام المرسـلين بالـقول أو العـمل فقال رضـي الله عنه «بـاب ما يكـره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه».

وقـال الله عز وجـل [الأنفـال: ٤٦]: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني الحرب. قال قتادة: الريحُ الحرب.

وذلك مـن طريق أبي إسـحاق قال سمـعت البراء بـن عازب رضي الله عنهما يُحَدِّثُ قال: «جعل النبي ﷺ على الرَّجَّالة يوم أحد ـ وكانوا خمسين رجلا ـ عبدالله بـن جبير فقال: إن رأيـتمونا تخطـفنا الطير فـلا تبرحوا مكانكـم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيـتمونا هزمنا القـوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتـى أرسل إليكم. فهزموهم. قال: فـأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن؟ فقال أصحاب ابن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمـة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم مـا قال لكم رسول الله ﷺ قالوا: والله لنأتين الناس فلـنصيبن من الغنـيمة. فلما أتـوهم صرفت وجوههم، فـأقبلوا مـنهـزمين، فـذاك إذ يدعـوهم الـرسـول في أخـراهم، فـلم يـبق مـع

النبـي ﷺ غير اثنـى عشر رجلاً؟ فأصـابوا منا سـبعين، وكان الـنبي ﷺ وأصحابـه أصاب من المشركين يـوم بدر أربعين ومائة وسـبعين أسيراً وسبعين «قتيلاً» فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات فنهـاهم النبـي ﷺ أن يجيبـوه. ثم قال. أفي الـقوم ابن أبي قـحافة؟ ثلاث مرات ثـم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مـرات؟ ثم رجع إلى أصحابـه فقال: أما هؤلاء فقـد قتلوا. فما مـلك عمر نفسـه فقال: كذبت والله يا عدو الله؟! إن الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقى لك ما يسوؤك. قال: يوم بـيوم بدر، والحرب سجال إنكم ستـجدون في القوم مثلة لـم آمر بها ولم تسؤنـي. ثم أخذ يرتجز: أعل هـبل، أُعلُ هُبَل. قال النبـي ﷺ: ألا تجيبونـه؟ قالوا يا رسـول الله ما نقول؟ قـال قولوا: الله أعلـى وأجل. قال: إن لـنا العزة ولا عـزة لكم. فـقال النـبي ﷺ ألا تجيبـونه؟ قال: قالوا يا رسـولا الله ما نقول؟ قال قولـوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

الفرق بين غاية
مصطلح الشرع في التغيير
وغيره من المصطلحات

هذا الدين جعله الله رحمة للعالمين، ويغير به جميع الأوضاع، إذا كان القصد صحيحًا في التغيير، والنبي -ﷺ- غيَّر بطريقة هادئة يسيرة رفيقة، بغير عنف ولا شدة..

ثوران.. فوران.. هياج.. غالبا في معظم الأحيان لا يأتي إلا بشر، وإن كان ظاهره حسنا، وإن أتى بالنفع لأصحابه، الذين ثاروا على عثمان -رضي الله عنه- ماذا جنت ثورتهم إلا الوبال والخبال.

لذلك لم يأت منهج الأنبياء لتغيير الأوضاع، من نظام إلى نظام، أو من حكومة إلى حكومة، بل جاء بسبيل الإصلاح، ودرب الهدى، ونقاء التقوى، قال تعالى حاكيا قول شعيب عليه السلام: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿٨٨﴾﴾[1] وهذا أسلوب حصر وقصر، أي أنى لا ارادة لي، ولا مقصود عندي إلا إصلاحكم، لا مقصد لي لجاه، ولا نظر مني لسلطان، بل الإصلاح بداية أمري، وهو نهاية وآخر عمري..

صلاحكم مُرادي، ونجاتكم قصدي، وإنقاذكم من العذاب غايتي، فلا وقوف لي ولا مسير إلا لتقرير ذلك، ودفع العذاب عنكم والمهالك، وكذلك يكون منهج الدعوة لمن أرادوا السير على هدي الأنبياء..

فجاء الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم بالصلاح العام الشامل للأفراد والجماعات، والأمم والشعوب، حكاما ومحكومين، فالجميع هدف وغاية، للهدى ومعرفة الإيمان..

---

١ ـ سورة هود: آية ٨٨.

فمنهج الأنبياء ليس انقلابا ولا ثورة، حيث إنهما يصادمان مقاصد النبوة، المنقلب على شيء، كان أمره صالحا ففسد، والنبوة والدعوة جاءت لتحويل الفساد إلى جهة الإصلاح لا العكس، والانقلابات خاصة بنظم الحكم والسلطة، تسعى لاقتناصها من أصحابها، والاستيلاء عليها من أربابها، وتغيير أهلها، فالتركيز منها على الحكومة والنظام والملك، فإذا ما استولت عليه فقد بلغت شأوها، وأدركت غايتها، وهذا ليس شأن الإسلام ولا غرض الرسالة..

ومصطلح الثورة لم يعرف في الأوساط الإسلامية إلا حديثا. الانقلابات الثورات، هذه المصطلحات تغاير مصطلح الشرع، **مصطلح الشرع الإصلاح، والإصلاح للمجموع، لمجموع الأمة، بالألتزام بالأوامر وأجتناب النواهي، بتغيير البيئة وملازمة الصحبة الصالحة، حتى تتغيير النفس إلى الحق..**

وفرق بين منهج النبوة في التغيير، الذي غايته الإصلاح، وغيره من الانقلابات والثورات، فالإنقلاب أو الثورة يحقق مراد أصحابه، أما الإصلاح في منهج النبوة والدعوة فيحقق مراد الله تعالى، لأنه هو الذي أمر به قال تعالى: ﴿**وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴿١٤٢﴾﴾[1].

والمجتهدون في الانقلابات، لهم في ذلك مآرب، والأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم يقولون ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2].

والذين قاموا بالانقلابات كان مقصدهم الدنيا كمثل من قال الله فيهم ﴿**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴿٥٨﴾﴾[3].

---

١ ـ سورة الأعراف: آية ١٤٢.　　٢ ـ سورة الشعراء: آية ١٠٩.

٣ ـ سورة التوبة: آية ٥٨.

والأنبياء يطلبون الأجر من الله وحده، ومقصدهم الآخرة ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

والأنبياء والدعاة أرادتهم نفع الناس، وإن كره الناس ذلك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28)﴾[2].

أما المنقلبون والثائرون فإرادتهم مـا ينتفعون به، ولا نظر منهم إلى انتفاع الآخرين..

والمنقلبون إذا أرادوا في الانـقلاب الإصلاح، فهو إصلاح مادي، إصلاح للطعام والشراب والمـلابس، والملاهي والدنيا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16)﴾[3].

أما الأنبـياء والدعاة فـطريقهـم الإصلاح الحقيـقي، الذي محـله القلوب والأرواح، وتزكية النفوس﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)﴾[4].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[5].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[6].

---

١ ـ سورة التوبة: آية ٨٨، ٨٩.
٢ ـ سورة هود: آية ٢٨.
٣ـ سورة هود: آية ١٥، ١٦.
٤ ـ سورة الشمس: آية ٧: ١٠.
٥ ـ سورة ق: آية ٣٧.
٦ ـ سورة الحج: آية ١: ٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

فلا يكمل الإيمان للفرد والأمة والجماعة إلا بدعوة الناس، والبدء بدعوة الأنبياء، وتكرار نفس أسلوب الإصلاح، بنفس الطريقة التي افترضها الله تعالى، وأداها رسله عليهم السلام: «**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**».

أيضًا فنتيجة الإصلاح في منهج النبوة والدعوة معلومة معروفة، وهي رضاء الله تعالى والرسول الكريم ﷺ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[2]. أما نتيجة الانقلاب والثورة فالفشل والهلاك، وإن نجحت أمسكت برقاب الناس حتى لا يثوروا عليها..

الأنبياء يجتهدون بالإصلاح العام الشامل، على مستوى الأفراد والشعوب والمجتمعات، ويتوجهون به إلى الله تعالى ولا يريدون علوا ولا فسادا في الأرض: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[3].

ولا يقصدون به وجه الناس، أما القائم بأعمال الإيمان، بنسبة الوزارة أو الحكومة، فلا يبارك الله فيها، لهذا لم يكلفنا الله بذلك أولا، وإنما كلفنا بالإصلاح ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

---

١ ـ سورة لقمان: آية ٣٣، ٣٤.
٢ ـ سورة التوبة: آية ٢٠، ٢١.
٣ ـ سورة القصص: آية ٨٣.

غير المسلمين اجتهدوا على بعض المسلمين، لشيوع هذه النفخة فيهم، فقالوا لهم تريدون الحكم بالشريعة وإقامة المجتمع الإسلامي، قالوا: نعم، فقالوا لهم: أخرجوا على الحكومات الموجودة، وحدث من ذلك الفتن والابتلاء، واستراح الأعداء من المسلمين حكاما ومحكومين...

ومناهج النبوة ليس من شأنها تغيير الحكام، والاستيلاء على السلطان، بل شأنها إصلاح قلوب الخلق، ووصلها بالخالق، والحرص على المكلفين، ولو كانوا حكاما وسلاطين، فالدين الحنيف والشرع الحنيف يريد إصلاحهم هم، لا قلبهم أو الإتيان بغيرهم..

هم في حكمهم وسبيلهم وسلطانهم كما هم، ولكنهم مع منهج النبوة يجتهدون في أن يرضوا الله تعالى، في خلقه الذين استرعاهم إياهم، ويعرفون كيف يقفون بين يدي الله عز وجل، ليسألهم عن الأمانة العامة للأمة، حفظوها وأدَّوها أم أهملوها وأضاعوها..

إذًا فدعوة النبوة للإصلاح عامة لا خاصة، مطلقة شاملة لكل المكلفين، أفرادا وأمما وجماعات، وليس سبيلها السلب أو الانتهاب، بل هي تخاطب صاحب الملك كما تخاطب المملوك، وإن استجابت الملوك والسلاطين والحكام للهدى أم لم يستجيبوا، وأقبلوا على التقوى أو لم يقبلوا، فلا نظر من منهج النبوة إلى ملكهم ولا سلطانهم ولا حكومتهم، ولا منازعة لهم ولا خروج عليهم في ذلك، بل منهج النبوة مراده الإصلاح، الذي يدخل فيه كل المكلفين، حكاما كانوا أو محكومين ﴿**هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾، ومع دعوتهم تبقى لهم الحكومة، ويستمر معهم الملك والسلطان، فالهدف هو استقامتهم في حكومتهم، وإصلاحهم ومعهم ملكهم وسلطانهم، لا نزع ذلك منهم، ولا منازعتهم فيه..

من طلب الإمارة

فأعطيها تُركت إعانته

لأجل حرصه

أقول: وإذا كانت هذه الشعارات التي يرددها البعض، والتي تسوغ مخالفة سنة النبي ﷺ تحت دعاوي مختلفة، ترفع لافتات الحكومة والخلافة وتطبيق الشرع، كيف لنا أن نصدق ذلك، وكثير من أوامر السنة، مهملة متروكة، لأفكار وتروحات فلان وفلان، فإذا ما سأل سائل، كانت الإجابة هذا أمر مختلف فيه، ولم يوضح هذا المُدعي من المخالف فيه، ومن الموافق، ولكنها العبارات المجملة، إذا وافقت ميلا في النفوس، والإرادات المتعجلة، إذا خالفت ما قدر الله تعالى وقضى..

وقد أورد الإمام البخاري في صحيحه ترجمة حافلة تحت المتدبرين، وتعظ المعتبرين، بعدم سؤال الإمارة وهي وصية النبي المصطفى ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة، ولمن شاء أن يسمع أو يعيد القدم ويرجع..

فقال رحمه الله تعالى [باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها] وأورد فيها حديث عبدالرحمن بن سمرة قال: «قال لي النبي ﷺ: يا عبدالرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفِّر عن يمينك وائت الذي هو خير»(١).

فكانت إعانة الله تعالى في الإمارة لمن لم يسألها أو يطلبها، ومن سألها أو طلبها، أو سعى لها، وكله الله تعالى إليها ..

---

١ ـ رواه الإمام البخاري ج٦ ص٢٦١٣، ورواه مسلم ج٣ ص١٤٥٦ «باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها»، ورواه الترمذي ج٤ ص١٠٦ «باب ما جاء فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ورواه أبو داود ج٣ ص١٣٠ «باب ما جاء في طلب الإمارة، ورواه الإمام أحمد ج٥ ص٦٢.

وهي الترجمة التي أوردها الإمام البخاري بعد الترجمة السابقة، فقال رحمه الله تعالى [باب من سأل الإمارة وكِل إليها].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٣ ص١٣٣ وأما قوله «لا تسأل الإمارة» فهو الذي في أكثر طرق الحديث، ووقع في رواية يونس بن عبيد عن الحسن بلفظ «لا يتمنين» بصيغة النهي عن التمني مؤكداً بالنون الثقيلة، والنهي عن التمني أبلغ من النهي عن الطلب.

قوله (عن مسألة) أي سؤال

قوله (وكلت إليها) بضم الواو وكسر الكاف مخففا ومشددا وسكون اللام، ومعنى المخفف أي صُرف إليها ومن وكل إلى نفسه هلك، ومنه في الدعاء «ولا تكلني إلى نفسي» ووكل أمره إلى فلان صرفه إليه؛ ووكَّله بالتشديد استحفظه، ومعنى الحديث أن من طلب الإمارة فأعطيها تركت إعانته عليها من أجل حرصه، ويستفاد منه أن طلب ما يتعلق بالحكم مكروه فيدخل في الإمارة القضاء والحسبة ونحو ذلك وأن من حرص على ذلك لا يعان، ويعارضه في الظاهر ما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة رفعه «من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره فله الجنة، ومن غلب جوره عدله فله النار»[1] والجمع بينهما أنه لا يلزم من كونه لا يعان بسبب طلبه أن لا يحصل منه العدل إذا ولى «أو يحمل الطلب هنا على القصد وهناك على التولية» وقد تقدم من حديث أبي موسى «إنا لا نولي من حرص»[2].

---

١ ـ رواه الإمام أبو داود في السنن ج٢ أول كتاب الأقضية باب «في القاضي يخطئ».

٢ ـ رواه الإمام البخاري ج٦ ص٢٦١٤ «باب ما يكره من الحرص على الإمارة»، ورواه الإمام مسلم ج٣ ص١٤٥٦ «باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها» ورواه الإمام ابن حبان ج١٠ ص٣٣٣ «ذكر الزجر عن سؤال المرء الإمارة لئلا يوكل إليها إذا كان سائلا لها».

ولذلك عبر في مقابله بالاعانة، فإن من لم يكن له من الله عون على عمله لا يكون فيه كفاية لذلك العمل فلا ينبغي أن يجاب سؤاله، ومن المعلوم أن كل ولاية لا تخلو من المشقة، فمن لم يكن له من الله إعانة تورط فيما دخل فيه وخسر دنياه وعقباه، فمن كان ذا عقل لم يتعرض للطلب أصلا، بل إذا كان كافيا وأعطيها من غير مسألة فقد وعده الصادق بالإعانة، ولا يخفى ما في ذلك من الفضل﴾ انتهى.

قلت: فانظر إلى قول الحافظ رحمه الله تعالى «ومعنى الحديث أن من طلب الإمارة فأعطيها تركت إعانته عليها من أجل حرصه، ويستفاد منه أن طلب ما يتعلق بالحكم مكروه فيدخل في الإمارة القضاء والحسبة ونحو ذلك وأن من حرص على ذلك لا يعان»

كيف قرر فيه رحمه الله تعالى كراهة طلب ما يتعلق بالحكم، لا طلب الحكم وحده، حيث أضاف إلى كراهة طلب الإمارة والحكم طلب القضاء، أو طلب الحسبة أو نحو ذلك، وقد بين الأئمة رحمهم الله تعالى الحكمة في عدم تولية من يسأل الإمارة، تبعا للأحاديث الواردة في ذلك، لكونه يوكل إليها، ومن وكل إليها لم تكن معه الإعانة من الله عز وجل، وإذا سُلب طالب الولاية الإعانة من الله تعالى، لا يكون كفئا، وغير الكفء لا يولى لأن في هذا تهمة..

وهو ما ذكره الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ج١٢ ص١٥٩ حيث قال: قال العلماء: والحكمة في أنه لا يولي من سأل الولاية أنه يوكل إليها ولا تكون معه إعانة كما صرح به في حديث عبدالرحمن بن سمرة السابق وإذا لم تكن معه إعانة لم يكن كفئا ولا يولى غير الكفء ولأن فيه تهمة للطالب والحريص والله أعلم»انتهى كلام الإمام النووي.

على أن الساعين نحو الإمارة والحكم، قد يغيب عنهم ما يتخلله من أخطار، وما يحويه من نوائب، فيسعون إليه السعي الدؤوب، وآخر الطرقات الفتن، منهم أو من غيرهم، فمن لم يكن له العون والتأييد، كيف له التوفيق والسداد، وأين الخطى التي تسري إلى الهدى، والهوى يُكب الناس على مناخرهم، يتسارعون فيه إلى شقوتهم..

وقد أورد الإمام البخاري وراء هذه الترجمات، ترجمة أخرى أكد فيها كراهة الحرص على الإمارة، فقال [باب ما يكره من الحرص على الإمارة].

ذكر فيها حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»[1].

ثم ذُكر حديث أبي موسى ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمِّرْنَا يا رسول الله، وقال الآخر مثله، فقال: إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه».

قال الإمام ابن حجر في شرحه للترجمة السابقة ج١٣ ص١٣٤ قوله: «باب ما يكره من الحرص على الإمارة» أي على تحصيلها، ووجه الكراهة مأخوذ مما سبق في الباب الذي قبله.

---

١ ـ رواه الإمام البخاري ج٤ كتاب الأحكام باب «ما يكره من الحرص على الإمارة» ورواه الإمام النسائي ج٧ كتاب البيعة باب «ما يكره من الحرص على الامارة» والسيوطي في الجامع الصغير.

ثم قال الحافظ في شرحه على الحديثين ج١٣ ص١٣٤: قوله (وستكون ندامة يوم القيامة) أي لمن لم يعمل فيها بما ينبغي، وزاد في رواية شبابه «وحسرة» ويوضح ذلك ما أخرجه البزار والطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك بلفظ «أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل» وفي الطبراني الأوسط من رواية شريك عن عبدالله بن عيسى عن أبي صالح عن أبي هريرة قال شريك: لا أدري رفعه أم لا «قال» «الإمارة أولها ندامة وأوسطها غرامة، وآخرها عذاب يوم القيامة» وله شاهد من حديث شداد بن أوس رفعه بلفظ «أولها ملامة وثانيها ندامة»[١] أخرجه الطبراني وعند الطبراني من حديث زيد بن ثابت رفعه «نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها وحلها، وبئس الشيء الإمارة لمن أخذها بغير حقها تكون عليه حسرة يوم القيامة» وهذا يقيد ما أطلق في الذي قبله، ويقيده أيضًا ما أخرج مسلم عن أبي ذر قال: [قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها][٢] قال النووي: هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية ولاسيما لمن كان فيه ضعف. وهو في حق من دخل فيها بغير أهلية ولم يعدل فإنه يندم على ما فرط منه إذا جوزى بالخزي يوم القيامة، وأما من كان أهلا وعدل فيها فأجره عظيم كما تظاهرت به الأخبار، ولكن في الدخول فيها خطر عظيم، ولذلك امتنع الأكابر منها والله أعلم.

---

١ ـ الجامع الصغير للإمام السيوطي المجلد الثالث أخرجه الطبراني في الكبير عن عوف بن مالك.

٢ ـ رواه الإمام مسلم ج١ ص١٤٥٧ «باب كراهية الإمارة بغير ضرورة».

قوله (فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) قال الداودي: نعم المرضعة أي في الدنيا، وبئست الفاطمة أي بعد الموت، لأنه يصير إلى المحاسبة على ذلك، فهو كالذي يفطم قبل أن يستغنى فيكون في ذلك هلاكه. وقال غيره: نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة} انتهى.

قلت: من الأكابر الذين امتنعوا منها الإمام الشافعي - رضي الله عنه - لما استدعاه المأمون لقضاء الشرق والغرب..

ومنهم الإمام الليث وهو ما أورده الإمام البيهقي في السنن الكبرى ج١٠ ص٩٨: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل أنبأ عبدالله بن جعفر ثنا يعقوب بن سفيان قال سمعت يحيى بن عبدالله بن بكير قال قال الليث: قال لي أبو جعفر تلى لي مصر. قلت يا أمير المؤمنين، إني أضعف من ذلك وإني رجل من الموالي فقال: ما بك من ضعف معي ولكن ضعفت نيتك في العمل لي على ذلك أتريد قوة أقوى مني ومن عملي فأما إذا أبيت فدلني على رجل أقلده أمر مصر قلت عثمان بن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة قال فبلغه ذلك فعاهد الله أن لا يكلم الليث ابن سعد.

ومنهم الإمام أبو حنيفة - رضي الله عنه - وهو ما أورده الإمام البيهقي في السنن الكبرى ج١٠ ص٩٨ فقال: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ أخبرني خلف بن محمد البخاري ثنا أبو بكر بن أبي أحمد وهو الحافظ البخاري قال سمعت محمد بن أبي عمرو الطواويسي يقول قال محمد ابن الأزهر بلغني عن أبي يوسف قال لما مات سوار قاضي أهل البصرة دعا أبو جعفر يعني المنصور أبا حنيفة فقال أن سوارا قد مات وأنه لابد

لهذا المصر يعني من قاض فاقبل القضاء فقد وليتك قضاء البصرة فقال أبو حنيفة والله الذي لا إله إلا هو إني لا أصلح للقضاء ووالله يا أمير المؤمنين لئن كنت صادقا فما يسعك أن تستقضى رجلا لا يصلح للقضاء ولئن كنت كاذبا فما يسعك أن تستقضى رجلا كذابا وأنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل من العرب وقد أصبحت مخالفا لك قال فقال له أبو جعفر صدقت أنك قلت لا يصلح لهذا الأمر إلا مثل أبي بكر وعمر فتلك أمة ﴿قد خلت لها ما كسبت﴾ الآية وأما قولك أنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل من العرب فإنا نأخذ بما قال الله تعالى في كتابه ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وليس علينا إلا الجهد في أهل زماننا وأما قولك أنك أصبحت مخالفا لي فإن الرأي يخالف الرأي فاقبل هذا الأمر فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين لئن خليت عني وإلا لبيت مكاني الساعة فما يسعك أن تحبس ملبيا قال فخلي عنه بعد ذلك» انتهى.

أما الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فقصته مع أحمد بن سعيد الرباطي مشهورة وقد أوردها الإمام البيهقي في السنن ج١٠ ص٩٩ قال: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ قال سمعت أبا عبدالله محمد بن يعقوب الحافظ يقول سمعت إبراهيم بن أبي طالب يقول سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول: قدمت على أحمد بن حنبل فجعل لا يرفع رأسه إليَّ فقلت يا أبا عبدالله أنه يُكتب عني بخرسان وإن عاملتني بهذه المعاملة رموا بحديثي فقال لي يا أحمد هل بد يوم القيامة من أن يقال أين عبدالله بن طاهر وأتباعه انظر أين تكون أنت منه قال قلت يا أبا عبدالله إنما ولاني أمر الرباط لذاك دخلت فيه قال فجعل يكرر عليَّ يا أحمد هل بد يوم القيامة أن يقال أين عبدالله بن طاهر وأتباعه انظر أين تكون أنت منه» انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه لقول النبي ﷺ في حديث أبي موسى «إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه» ج١٣ ص١٣٥: «وفي الحديث أن الذي يناله المتولي عن النعماء والسراء دون ما يناله من البأساء والضراء، إما بالعزل في الدنيا فيصير خاملا وإما بالمؤاخذة في الآخرة وذلك أشد، نسأل الله العفو.

قال القاضي البيضاوي: فلا ينبغي لعاقل أن يفرح بلذة يعقبها حسرات، قال المهلب: الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك ووجه الندم أنه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته، قال: ويستثنى من ذلك من تعين عليه كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال.

قلت: وهذا لا يخالف ما فرض في الحديث الذي قبله من الحصول بالطلب أو بغير طلب بل في التعبير بالحرص إشارة إلى أن من قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أعطى بغير سؤال لفقد الحرص غالبا عمن هذا شأنه، وقد يغتفر الحرص في حق من تعين عليه لكونه يصير واجبا عليه» انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

الفرق بين الخليفة والسياسي

الخليفة هو المعظم لأمر الله تعالى وطاعته في الأرض، والقائم بين الناس لتعظيم أمر الله تعالى وطاعته، وهو القائم مقام من سبقه بطاعة الله تعالى، ممتثلا لأمره بين خلقه، داعيا هؤلاء الخلق إلى طاعته، وامتثال أمره..

وهو المقيم للحق والعدل بين الناس، والناشر للحق والهدى المجانب للظلم والهوى، وهو الآمر للمعروف بالمعروف، والناهي عن المنكر بغير منكر، الدافع للشر بالخير لا بالشر..

الذي يحفظ الدين ويرعاه، في نفسه وفي غيره، فلا تضيع أحكامه، ولا تنقض أركانه، قال الخليفة الصديق: «**أينقص الدين وأنا حي**» فالخليفة لا ينقص الدين معه، ولا يحيا مع نقصان الدين..

واذا أطلق في الاصطلاح الشرعي فالمراد به: «من يتولي إمرة المسلمين، وقد يسمي بالإمام».

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره جـ١ ص٢٨٧: {والخليفة الفعيلة، من قولك: خلف فلان فلانا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال جل ثناؤه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يعني بذلك: أنه أبدلكم في الأرض منهم فجعلكم خلفاء بعدهم ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفا، يقال منه: خلف الخليفة يخلُف خلافة وخليفا} انتهى كلام الإمام الطبري.

وأورد رحمه الله تعالى في تفسيره أيضا ج١ ص٢٨٩ بسنده عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : «أن الله جل ثناؤه قال للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا. فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس: إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم

ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عباد الله، لأنهما أخبرا أن الله جل ثناؤه قال لملائكته إذ سألوه: ما ذاك الخليفة: إنه خليفة يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا. فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خليفته دونه وأخرج منه خليفته» انتهى كلام الإمام الطبري.

وقد كان الخلفاء الراشدون أحرص الناس على تأكيد معنى الخلافة فيما يأتون من قضايا وأحكام، وفي قيامهم على أمر الإمارة للمؤمنين، حتى لا تلتبس معاني الخلافة بأحوال الملك والسياسة، وهذه استفسارات عمر -رضي الله عنه- لمن حوله، كشفا وتحريرا لهذه المعاني معهم، وهو ما أورده الإمام السيوطي في الدر المنثور ج٥ ص٣٠٦:

«أخرج الثعلبي من طريق العوام بن حوشب قال حدثني رجل من قومي شهد عمر رضي الله عنه أنه سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان ما الخليفة من الملك قال طلحة والزبير: ما ندري. فقال سلمان - رضي الله عنه- الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، ويقضي بكتاب الله تعالى. فقال كعب: ما كنت أحسب أحدا يعرف الخليفة من الملك غيري.

وأخرج ابن سعد من طريق مردان عن سلمان رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال له أنا ملك أم خليفة فقال له سلمان رضي الله عنه: الخليفة الذي يعدل إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فاستعبر عمر رضي الله عنه.

وأخرج ابن سعد عن ابن أبي العرجاء قال: «قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك قال قائل: يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا. قال: ما هو؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق وأنت الحمد لله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا».

وأخرج ابن سعد عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال إن الإمارة ما ائتمرتها وأن الملك ما غلب عليه بالسيف وأخرج الثعلبي عن معاوية رضي الله عنه أنه كان يقول إذا جلس على المنبر يا أيها الناس إن الخلافة ليست بجمع المال ولكن الخلافة العمل بالحق والحكم بالعدل وأخذ الناس بأمر الله» انتهى كلام الإمام السيوطي.

قلت: وقد بين العلامة ابن خلدون في «مقدمة ابن خلدون» ص١٧٦ الجانب الذي من خلاله ذم الشارع سبحانه وتعالى الملك، وبين أنه في بعض الحالات غير مذموم، وذلك تحت عنوان «فصل في انقلاب الخلافة إلى الملك» فقال رحمه الله تعالى: «**الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه فلو كان الملك مخلصا في غلبه للناس أنه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه «رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي» لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك ولما لقى معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال أكسروية يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين أنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب».**

فهناك فرق بين الخليفة وغيره، الخليفة يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى، يدور مع الحق كيف دار، وبهذا أمر الله تعالى الخليفة في الأرض في وقته النبي داود عليه السلام، أن يحق الحق ويبطل الباطل، ولا يميل مع الهوى كيفما مال..

قال الإمام القرطبي في تفسيره: قوله تعالى ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ أي ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من

كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين. وقال الإمام القرطبي ج٨ ص٥٦٣٣: الرابعة - قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ قال: إن ارتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى، فلا تشته في نفسك الحق له ليفلُج على صاحبه [أي يظفر ويفوز]، فإن فعلت محوت اسمك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي. فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق، وألا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضي الميل من صحبه أو صداقة، أو غيرهما. وقال ابن عباس: إنما ابتلى سليمان بن داود عليه السلام، لأنه تقدّم إليه الخصمان فهوى أن يكون الحق لأحدهما. وقال عبدالعزيز بن أبي روّاد: بلغني أن قاضيًا كان في زمن بني إسرائيل، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علما إذا هو قضى بالحق عرف ذلك، وإذا هو قَصَّر عرف ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مدّ يدك في جدارك ثم انظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فاخطط عندها خطا؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخط فامدد يدك إليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وإن قصّرت عن الحق قصّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضي إلا بحقّ، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعامًا ولا شرابًا، ولم يفض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب. فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه وكان أحدهما له صديق وخدن، فتحرك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضي له، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم، فمد يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمر إلى السقف، وإذا

هو لا يبلغه فخرّ ساجداً وهو يقول: يا رب شيئا لم أتعمده ولم أرده فبينه لي. فقيل له: أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره» انتهى كلام الإمام القرطبي.

وعن ليث قال: تقدم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له في ذلك فقال: تقدما إلي فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما.

قلت: فهكذا الخليفة يحكم بالحق، ويدور مع الحق كيف دار، ويقيم العدل والإنصاف في الأرض بين الناس، يمتثل الأمر، ويعظم الأمر، ويدعو كل أحد إلى تطبيق وتعظيم وامتثال الأمر..

يبحث عن الإيمان في نفسه ويقيمه فيها، ويتفقد الإيمان في الناس ويقيمه فيهم، ومع قيامه بالحق وللحق، تتحقق فيه ومعه نصرة الله تعالى، الموعودة للعدل والإنصاف، والموقوفة على الحق والهدى، نسأل الله تعالى أن يبعث في أمة حبيبه -ﷺ- صفات الحق والعدل والإنصاف المستوجبة لنصرته وتأييده..

قلت: وإليك ما أورده العلامة ابن خلدون في مقدمته ص١٨٠ عن آخر أيام بني أمية، عندما استولى العباسيون على ما كان تحت أيديهم أيام السفاح العباسي، وقصتهم مع ملك النوبة عندما فروا إلى أرضه، وحواره العجيب معهم فقال رحمه الله تعالى حاكيًا أحوالهم: «ولم يزل بنو أمية ظابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الأمور ورفضهم دنياتها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجه وأمنا لمكره مع اطرحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن

السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبدالله بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضه فارا أيام السفاح قال: «أقمت مليا ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا فقال إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ علي ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول عبدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه إلي وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم وانما الضيافة ثلاثة فتزود ما احتجت إليه وارتحل عن أرضي فتعجب المنصور وأطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك وأن الأمر كان في اوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة» انتهى كلام العلامة ابن خلدون.

فهناك فرق بين الخليفة والسياسي، الخليفة يعظم الأمر ويكسر الدنيا من أجل الأمر، والسياسي يعظم الدنيا ويكسر الأمر الإلهي والحكم الشرعي من أجل الدنيا . .

الخليفة يكسر المشاهد المحسوس من أجل الموعود الغيبي، ويعتمد على قوة الخبر لا قوة البصر، والسياسي يرد الموعود الغيبي من أجل المشاهد المحسوس، ويعظم قوة البصر وقوة المشاهد الملموس، على قوة الخبر الغيبي الموعود . .

هذا الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعظم أمر الله تعالى وأمر النبي -ﷺ- ويكسر أمر الدنيا عند اصطدامها بأمر الشرع، لأجل قيام الأمر، بل يعتمد ويقدم قوة الخبر على قوة البصر، وهو ما أخرجه الخطيب فيما رواه مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما قبض النبي ﷺ اشرأب النفاق بالمدينة، وارتد العرب وارتدت العجم وأبرقت وتواعدوا نهاوند وقالوا: قد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تنصر به. فجمع أبو بكر رضي الله عنه المهاجرين والأنصار وقال: ان هذه العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم ورجعوا عن دينهم وإن هذه العجم قد تواعدوا نهاوند ليجمعوا لقتالكم، وزعموا إن هذا الرجل الذي كنتم تنصرون به قد مات، فأشيروا عليّ فما أنا إلا رجل منكم وإني اثقلكم حملا لهذه البلية فأطرقوا طويلا. ثم تكلّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أرى - والله! - يا خليفة رسول الله! إن تقبل من العرب الصلاة وتدع لهم الزكاة، فإنهم حديث عهد بجاهلية لم يعدهم الإسلام، فإما أن يردهم الله إلى خير وإما أن يعزّ الله الإسلام فنقوى على قتالهم، فما لبقية المهاجرين والأنصار يدان للعرب والعجم قاطبة. فالتفت إلى عثمان رضي الله عنه فقال مثل ذلك؛ وقال علي رضي الله عنه مثل ذلك؛ وتابعهم المهاجرون؛ ثم التفت إلى الأنصار فتابعوهم. فلما رأى ذلك صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد! فإن الله بعث محمداً ﷺ والحق قلّ شريد، والإسلام غريب طريد، قد رث حبله، وقلّ أهله، فجمعهم الله بمحمد ﷺ وجعلهم الأمة الباقية الوسطى، والله لا أبرح اقوم بأمر الله وأجاهد في سبيل الله حتى ينجز الله لنا ويبقى لنا عهده، فيقتل من قتل منا شهيدا في الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في ارضه ووارث عباده الحق؛ فإن الله تعالى قال - وليس لقوله خلف -: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ والله! لو منعوني عقالا مما كانوا يعطون رسول الله ﷺ، ثم اقبل معهم الشجر والمدر والجن والإنس لجاهدتهم حتى تلحق روحي بالله، ان الله لم يفرق بين الصلاة والزكاة ثم جمعهما؛ فكبر عمر وقال: والله! قد علمت، والله! حين عزم الله لأبي بكر على قتالهم أنه الحق. كذا في كنز العمال ج٣ ص١٤٢.

وأخرج ابن عساكر رحمه الله عن الحسن بن أبي الحسن قال: ضرب رسول الله ـ ﷺ ـ بعثا قبل وفاته على أهل المدينة ومن حولهم، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمَّر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنه، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله ـ ﷺ ـ. فوقف أسامة بالناس، ثم قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ فاستأذنه، يأذن لي فليرجع الناس فإن معي. وجوههم وحدهم ولا آمن على خليفة رسول الله ثقل رسول الله، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقالت الأنصار: فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة. فخرج عمر بأمر أسامة. فأتى أبا بكر فأخبرهم بما قال أسامة. فقال أبو بكر: لو اختطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاءً قضاه رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة. فوثب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ فأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب! استعمله رسول الله ـ ﷺ ـ وتأمرني أن انزعه. فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سببكم اليوم من خليفة رسول الله!! ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشجعهم وشيعهم، وهو ماش وأسامة راكب، وعبدالرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر رضي الله عنه فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله! لتركبن أو لأنزلن فقال: والله! لا تنزل، ووالله! لا أركب وما عليَّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبع مائة حسنة تكتب له، وسبع مائة درجة ترفع له، وتمحي عنه سبع مائة خطيئة حتى إذا انتهى قال له: إن رأيت أن تعينني بعمر بن الخطاب فافعل. فأذن له. كذا في مختصر ابن عساكر (١/ ١١٧) وكنز العمال (٥/ ٣١٤). وأورده الإمام ابن كثير في البداية (٦/ ٣٠٥) عن سيف عن الحسن مُختصراً.

وهذا ما أورده الإمام ابن كثير في البداية ج٦ ص٣٠٤ عن سيف ابن عمر عن هشام بن عروة عن أبيه قال: لما بويع أبو بكر وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه وقال: ليتم بعث أسامة، وقد ارتدت

العـرب إما عـامة وإمـا خاصـة في كل قبـيلة، ونجم النفاق واشـرأبت اليهودية والنصـرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشـاتية لفقد نبيهم -ﷺ- وقـلتهم وكثرة عدوهم. فـقال له الناس: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين، والعرب على مـا ترى قد انتقـصت بك وليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين فقال: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السبـاع تخطفنـي لأنفـذت بعث أسـامـة كـمـا أمـر به رسـول الله -ﷺ-، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته. قال الإمام ابن كثير وقد روى هذا عن هشام بن عروة عن أبيـه عن عائشة -رضي الله عنها-، ومن حديث القـاسم وعمـرة عن عائـشة رضي الله عنها قـالت: لما قبض رسـول الله -ﷺ- ارتدت العرب قـاطبة واشـرأب النفاق، والله! لقد نزل بـأبي ما لو نزل بالجبـال الراسيـات لهاضـها وصار أصـحابِ مـحمـد -ﷺ- كأنهم معْزى مطيرة في حُش في ليلة مطيرة بأرض مُسبعة، فوالله! ما اختلفوا فَي نقطة إلا طار أبى بخطلها وعنانها وفصلها »انتهى.

وقد أخرجه الطبراني عن عائشة -رضي الله عنها- بنحوه. قال الهيثمي (٩: ٥٠) رواه الطبراني من طرق، ورجال أحدها ثقات.

وأخرج البـيهـقي رحمه الله تعـالى في ذلك عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: والله الـذي لا إله إلا هو! لولا أن أبا بكر رضي الله عنه استـخلف ما عُبدالله، ثم قـال الثانية ثم قال الثالثة. فقـيل له مه يا أبا هريرة. فقال: إن رسـول الله -ﷺ- وجـه أسامـة بن زيد -رضي الله عنهما- في سـبع مـائة إلى الشام. فلما نزل بذي خُشب قُبضَ رسول الله -ﷺ- وارتدت العرب حول المدينة؟. فـاجتمع إليه أصَحاب رسول الله فـقالوا: يا أبا بكر رد هؤلاء،توجه هؤلاء إلي الِروم وقد ارتدت العـرب حول المدينة، فقال: والذي لا إله غيره! لو جِرّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله -ﷺ- ما رِددت جـيشـا وجهه رسـول الله، ولا حللت لواء عقـده رسول الله. فوجّـه أسامـة، فجعل لا يمـر بقبيل يريدون الارتـداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قـوة ما خرج مـثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حـتى يَلْقوا الروم، فلقوا الـروم فهزمـوهم وقتلوهم ورجـعوا سالمين، فـثبـتوا على الإسـلام. كـذا في البـداية (٦/ ٣٠٥) وأخـرجـه أيضـا الصـابوني في

المائتين كما في الكنز (٣/ ١٢٩) وابن عساكر كما في المختصر (١/ ١٢٤) عن أبي هريرة بنحوه. وقال في كنز العمال: وسنده أي حديث أبي هريرة رضي الله عنه حسن».

قلت: وهكذا أنفذ الخليفة أبو بكر الصديق بعث أسامة -رضي الله عنه-، الذي عقده النبي -صلى الله عليه وسلم- بيده، ورأى أن كسر الدنيا أهون من كسر أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: **«أنفذوا بعث أسامة»**، ورأى الصديق أن الخوف علي المدينة،والخوف علي الخلافة، أهون ضررا من ضياع أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحفظ أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأطاع الوحي، فلم يُضيعه الله تعالى، وحفظه الله تعالى بتعظيم وطاعة أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وحفظ معه المدينة والخلافة..

وما كان جيش أسامة رضي الله عنه يمر على قوم، إلا ويقولون: لولا أن لهؤلاء قوة، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، فانكسروا للطاعة، وأعطوا بأيديهم مختارين، وهكذا أخمدت نيران الردة، ومال الناس للاسلام دفعة واحدة، كما خرجوا منه دفعة واحدة..

فهذه صفة الخليفة القائم بأمر الله تعالى في الأرض، والحارس لدينه فيها، حاله أنه إذا تعارض عليه أمر الله تعالى أو أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- مع أمر الدنيا، كسر أمر الدنيا، وحفظ أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم..

بخلاف المناهج الحركية التي تكسر الأمر الشرعي حفظا للدنيا، فتتبدل في أيديها الثوابت الشرعية والأوامر الربانية، تبعا لتبدل أفكار أصحابها، فبداية تبدلت السنة من الظاهر، فلا الوجوه تشبه وجه رسولها -صلى الله عليه وسلم- ولا الثياب تشبه ثيابه، ثم تبدلت في أثرها البواطن، فلا النيات هي نيات النبوة ولا المقاصد مقاصدها..

وما تفطنوا أنه عندما خرج من القلوب حب السنن، خرج الدين منا

وقد روي الإمام أحمد في الزهد بسنده عن عقيل السلمي قال: **«أوحى الله عز وجل إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لقومك لا يأكلوا طعام أعدائي ولا يشربوا شراب أعدائي ولا يتشكلوا شكل أعدائي، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي»**.

فزعموا في بداية أمرهم أن المهم هو الجوهر لا المظهر، وحقيقة الدين هي المطلوبة لا شكل الدين ومظهره، ورددوا أن نصرة الله تعالى لاتأتي على الأشكال ولا الظواهر، ولكن تأتي على الحقائق والبواطن، ونقول للذين جعلوا هناك فرقا بين شكل الدين وحقيقته وبين ظاهر السنة وحقيقتها، لقد جعلتم بينكم وبين حقيقة الدين مسافة بعيدة، فبعد فقد علامة الدين وظاهر السنة، لن تجدوا لوجه الدين في مرآة السنة أثرا، ولقد رأينا الذين زهدوا في سنن النبي -ﷺ- الظاهرة، كيف تربت فيهم وانغرست حقائق كل الظواهر التي تشبهوا بها، فمن تشبه بالمغضوب عليهم ظاهرا، جاءت فيه حقائق المغضوب عليهم باطنا، ومن تشبه بالضالين ظاهرا وجدنا في باطنه حقائقهم..

هذا فيمن كسر أمر النبوة ظاهرا وهو يزعم أنه يتمسك بها في الباطن، فكيف بمن ليس عنده شكل النبوة ولا باطنها وحقيقتها، نقول له يا صاحبنا بينك وبين حقائق الإيمان نفسه مسافات بعيدة...

وقد يعيب البعض على أهل الدعوة تمسكهم بسنن النبي -ﷺ- الظاهرة والباطنة وتعظيمها، فيلمزون فيهم المحافظة على العمامة وهيئة السنة وأوامر النبي ﷺ، ثم عندما يتحدثون عن السنة وحقيقتها فيقولون إن الفلاح والنجاح في الامتثال لأوامر الله تعالى، على هدي النبي ﷺ، أو عندما يدعون الناس للتضحية بالجهد والنفس والمال لكي يحيا الدين كاملا فيهم، وفي العالم كله إلى قيام الساعة، يزداد عليهم الغمز ويحيط بهم اللمز، رغم أنهم بذلك الحريصون على مقاصد الدين، الحافظون لسنة سيد المرسلين ﷺ، وإن أعرض عنها المعرضون، وزهد فيها الزاهدون.

الفرق بين منهج النبوة
ومنهج الملك

منهج الملك يُعظم الأسباب الدنيوية ويعتمد عليها وحدها، ومنهج النبوة كل ما يتعلق بالأسباب الغيبية والتوجه نحوها والوقوف عندها، مع تناول الأسباب المحسوسة إن وجدت، للسنة في ذلك. .

والله تعالى لم يستخدم منهج الملك ولا مرة واحدة في نصرة دينه وإعلاء كلمته. .

فعندما يكون الحديث والخطاب بمنهج الملك، تتعاظم فيه الأسباب الدنيوية المحسوسة والملموسة، فتملأ العين وتسحر الأذن، وتتعلق بها الأماني والآمال، فبها قوة أصحابها، عليها يعتمدون ومنها يصولون ويجولون. .

قال فرعون في منهج الملك وهو يتحدث عن نفسه ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

فتحدث عن الأنهار التي سخرها وحصرها، وسيطر عليها وأجراها من تحته وقهرها، وتحدث عن إعلانه ومقاله، وقوة نفوذه وبيانه، «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين».

فعاب منهج النبوة بقلة أسبابه، فلا أنهار ولا بحار ولا ملك ولا أنصار، ولا بيان ولا إعلان، إذا تكلم لا يحسن نظم الكلام وتزويقه وتنميقه، لا سجع فيه ولا هدير، ولا تحبير فيه ولا تصوير. .

وعاب منهج النبوة بهيئته وصورته فلا زينة ولازخرفا، ولا أساور ذهب ولؤلؤا، ولا الجنود معه مقترنين ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

---

١ ـ سورة الزخرف: الآيات ٥١: ٥٣.   ٢ ـ سورة الزخرف: الآية ٥٣.

وهذا منهج النبوة عندما يتحدث إلى القوة التي يتعلق بها، ويتكلم عنها، وينطلق منها: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[1].

فأسبابه أسباب غيبية، من الإيمان والأعمال الصالحة، مع التسبيح والذكر الكثير، فبشرح الصدور تطمأن القلوب، إلى مواعيد الغيب والإيمان، فلا تهتز وتتزلزل، أمام صولة الأسباب الدنيوية المنظورة المحسوسة، ويذهب الخوف والرهبة..

قال الله تعالى لكليمه عليه السلام «**لا تخف إنك أنت الأعلى**» فكان الاستعلاء لمنهج النبوة، ويبقى هذا العلو ما بقى الزمان لمن كان على آثار النبوة ومقاصد المرسلين، لمن أغلقوا أبواب المخلوقين، ووقفوا أمام الباب الأكبر، لمعبودهم وإلههم، وتوجهوا ناحية القوة الوحيدة، القوية العزيزة، فعزُّوا بعزها، وتقووا بقوتها ونصرها..

وهل سمعت ما سمعت عن الذي آتاه الله الملك، ورأيت ما رأيت عندما تواجه المحسوس مع غير المحسوس، وكاد منهج الملك أن يستعلي في أعين الناس ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[2] فأخبر الله تعالى عن خليله وهو يتكلم بمنهج النبوة، المرتبط بالأسباب الغيبية، والمتحدث عن قدرة قادر، وقوة قوي، وفاعلية فاعل، وحكمة وإبداع صانع، يحيي الأحياء، فعلى وفق أمره يحيون، ويُميت الموتى، وبمشيئته وحده يموتون.

---

١ ـ سورة طه: الآيات ٢٥: ٣٥.

٢ ـ سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

وتحدث الملك عن منهج الملك ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾. فأمر بقتل أحد رجلين حكم عليهما بالإعدام وأطلق الآخر، وقال قد أحييت هذا وقمت بإماتة هذا، فأخرجه الخليل عليه الصلاة والتسليم من ملكه ومحسوساته، إلى ما لا يُملك وما لا يُحس، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

الذي بُهت هو منهج التعلق بالمحسوسات بمفردها، والظاهر المنصور، هو منهج التوجه والتعلق بخالق الأشياء وحده، والثقة بالغيب الموعود..

ومن هنا كانت الفروق بين منهج النبوة ومنهج الملك، منهج النبوة والدعوة يعفو ويصفح ويشفق، ولا يستطيع أهل الملك استخدام منهج النبوة بنياته ومقاصده..

في فتح مكة أخذ العباس رضي الله عنه أبا سفيان رضي الله عنه حتى يرى المسلمين وهم يدخلون مكة، حينما أمره النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك وهو ما رواه الطبراني رحمه الله قال «**فلما ذهب لينصرف قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: يا عباس! احبسه بالوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. قال: فخرجت به حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أحبسه. قال: ومرت به القبائل على راياتها، فكلما مرت قبيلة قال من هؤلاء؟ يا عباس! فأقول: بني سليم فيقول: ما لي ولسليم؟ قال: ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى نفدت القبائل يعني جاوزت لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان، فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الكتيبة الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى**

منهم سوى الحدق. قال: سبحان الله! من هؤلاء؟ يا عباس! قلت: هذا رسول الله -ﷺ- في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله! يا أبا الفضل؟ لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، قلت: يا أبا سفيان! إنها النبوة قال: فنعم إذا. قلت: التجئ إلى قومك. قال: فخرج حتى جاءهم صرخ بأعلى صوته يا قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمش فبئس طليعة قوم قال: ويحكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاء بما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: ويحك! وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد» قال الهيثمي [ج٦ ص١٦٧]: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

قلت: فانظر إلى قول أبي سفيان رضي الله عنه للعباس رضي الله عنه لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، عندما رأى الكتيبة الخضراء، كتيبة المهاجرين والأنصار وأمامهم رسول الله -ﷺ-، فرد العباس رضي الله عنه هذا الوصف ولم يقبله، وقال إنها النبوة وكأن الملك تهمة سارع العباس لينفيها عن النبي -ﷺ-.

ثم انظر إلى منهج النبوة وقت الدخول إلى مكة لفتحها، كيف كانت رأس النبي -ﷺ- المشرفة تكاد تمس ظهر رحله تواضعا لله تعالى، وإرجاعا للفضل له وحده في التمكين والفتح، مع رفع الصوت بذلك أمام الناس وذلك في قوله -ﷺ-: «**لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده**». معترفا بالنعمة إلى المنعم..

فهذا منهج النبوة مكن الله - تعالى - به لرسوله، ويمكن به في كل زمان ومكان للمؤمنين، فإذا استخدم المسلمون منهج الملك للتمكين للدين، فهذا ليس على ترتيب النبوة، ومنذ أن دخل منهج الملك لاستخدامه في التمكين والنصرة، إلى أذهان المسلمين، فالمسلمون لا ينصرون، لأنه لو انتصر المسلمون بمنهج الملك، لكانت عقيدتهم مزعزعة..

منهج النبوة فيه من التمكين والقوة، بحيث يخرج صاحبه من النار وهذا حدث مع الخليل إبراهيم عليه السلام، وحدث مع أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه..

وعند النظر إلى منهج النبوة، كيف تصرف بعد فتح مكة، نرى كيف التغاير بينه وبين منهج الملك..

لو كان الذي فتح مكة ملكا مكان النبي -صلى الله عليه وسلم- لقتل وسلب من طردوه وآذوه، وقاتلوه وعذبوه هو وأصحابه ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴿٣٤﴾﴾[1]، أما منهج النبوة فهذا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لمن حاربوه وعادوه وأخرجوه هو وأصحابه، (**اذهبوا وأنتم الطلقاء**) ويقول لهم صلوات الله وتسليماته عليه عفوا وصفحا ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴿٩٢﴾﴾[2] فمنهج النبوة يعفو ويغفر ويصفح، بخلاف منهج الملك الذي ينتقم ويقتل ﴿**قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴿١٢٧﴾﴾[3].

---

١ - سورة النمل: الآية ٣٤.

٢ - سورة يوسف: الآية ٩٢..

٣ - سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

فمنهج النبوة لا يفسد في الأرض ولا يسفك الدماء، أما منهج الملك فها هو يتكلم عن الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم، ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

فلوح بسفك دم كليم الله تعالى، بعد أن استباح من قومه الجراح وقتل الأرواح قال الله تعالى واصفا إياه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[2].

فكان الفساد شأنه هو لا شأن المرسلين، وسفك الدماء طبعه الأثيم، بخلاف منهج النبوة الذي سبيله الزكاة والطهارة والهداية، قال النبي الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم لفرعون، وهو يجسد هدْى النبوة في ذلك: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[3] فدعاه إلى الزكاة والهداية، والخشية من الله تعالى والإنابة، فمنهج النبوة صدق وبينات، لا كذب ولا افتراءات..

وقال مؤمن آل فرعون وهو يدافع عن منهج النبوة ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾[4].

---

١ ـ سورة غافر: الآية ٢٦.

٢ ـ سورة القصص: الآية ٤.

٣ ـ سورة النازعات: الآية ١٨، ١٩.

٤ ـ سورة غافر: الآية ٢٨، ٢٩.

وهذه ملكة من ملوك الدنيا، تتوجس من منهج الملك، وتبين ملامحه للسامعين، مؤكدة حقيقته للسائلين أنه إذا دخل قرية أفسدها بعد صلاحها، وأذل أهل العزة والشرف من أهلها، فقالت واصفة لهم ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)﴾[1].

أما منهج النبوة فيصلح ولا يفسد قال النبي صالح عليه السلام ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾[2].

منهج النبوة ينهي عن الفواحش والفساد عند الجاهلين، هو طهر وعفة ونقاء، وملاذ للمتطهرين، قال النبي الداعي لوط عليه السلام مستنكرا على المسرفين ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾[3].

منهج النبوة يضحي لنجاة الناس، حتى ولو أنكروه وعادوه، حتى ولو صدوه وآذوه. . .

قال الداعي الساعي إلى نجاة قومه، وهو يعاتبهم ويلوم عليهم ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢)

---

١ ـ سورة النمل: الآية ٣٤.

٢ ـ سورة الشعراء: الآية ١٥٠، ١٥٢.

٣ ـ سورة الأعراف: الآية ٨٠: ٨٤.

لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)﴾[1].

وهذا منهج النبوة والدعوة وهو يضحي بنفسه قتلا، حرصا على نجاة الناس، يسابق اللحظات، يسعى بالخطوات، في مدينة الشاردين، يتحسس على الغافلين المعرضين، ولا يدري أن قتله بايديهم، وأن الموت يختبئ فيهم، فوهب نفسه لهم وضحى ليهديهم **﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (٢١) وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون (٢٣) إني إذا لفي ضلال مبين (٢٤) إني آمنت بربكم فاسمعون (٢٥) قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون (٢٦) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (٢٧)﴾**[2].

وهذا منهج النبوة يضحي بنفسه لنجاة الناس بينما يعصف بهم منهج الملك، كما ورد في قصة غلام الساحر، الذي آمن وبلغ من فضل الله تعالى عليه أن أجرى على يديه الآيات، فكان يبرئ الأكمة والأبرص وسائر الأمراض بدعاء الله تعالى وبإذنه، حتى بلغ أمره الملك فقتل الراهب الذي علمه الإيمان، وقتل جليسه الذي آمن بما جاء به، وجاء الدور عليه ليقتله، فلم يقدر على ذلك، وكفاه الله تعالى أمره مرتين، حتى قام الغلام ليظهر منهج النبوة والدعوة الذي مقصوده نجاة الناس، ولو أن يضحى بنفسه لذلك، فقال للملك «**إنك**

---

١ - سورة غافر آية ٤١ : ٤٤.

٢ - سورة يس آية: ٢٠ : ٢٧.

لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به» فتحول الأمر إليه بإيمانه بدلا من الملك، وخضع منهج الملك للآيات، ففعل الملك ما أمره به الغلام، أنه لن يستطيع أن يقتله إن أراد ذلك، إلا أن يأخذ سهما من كنانته، فيضعه في القوس ثم يطلقه ويقول باسم الله رب الغلام فحينئذ يقتله، وأطلق منهج الملك الموت سهما من يديه، وعصف بمن جاء بالإيمان إليه، وضحى الغلام بنفسه لينجو الناس ويقبلوا عليه وتعالت الأصوات بكلمات الإيمان، وصدق الهداية، وصاح الناس «آمنا برب الغلام»، وفزع الأتباع للملك وقالوا قد وقع ما كنت تحذر قد آمن الناس، فظهرت حينئذ ملامح منهج الملك الذي يعصف بالناس، في مقابله منهج النبوة والدعوة الذي يضحي بنفسه لنجاتهم وصلاحهم، وأمر الملك بأمره، الذي يوضح معالم منهجه، فقال خذوا بأفواه السكك، وخدوا الأخاديد وأشعلوا النار، ففعلوا فمن رجع عن دينه وإيمانه وإلا اطرحوه فيها، وفيه نزلت سورة البروج..

وإليك القصة كما ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره ج١٠ ص٧٠٧٨.

قال في قوله تعالى: ﴿إذا هم عليها قعود﴾ أي الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، وكانوا بنَجران في الفَتْرة بين عيسى ومحمد ـ ﷺ ـ. وقد اختلفت الرواية في حديثهم. والمعنى متقارب. ففي صحيح مسلم عن صُهيب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كان مَلك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر؛ فلما كَبِر قال للملك: إني قد كَبِرت فابعث إليّ غلاما أعلّمْه السحر؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه؛ فكانَ في طريقه إذا سَلَكَ راهبٌ، فَقَعَدَ إليه وسمِع كلامه فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحرَ مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتي الساحر ضربه؛

فشكا ذلك إلى الراهبِ فقال: إذا خشيت الساحرَ فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسنيِ الساحر. فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبَست الناس فقال: اليومَ أعلمُ الساحرُ أفضلُ أَمِ الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمْرُ الراَهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهبَ فأخبره فقال له الراهب: أي بُني؛ أنت اليومَ أفضلُ منّي، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبْتَلَى؛ فإنِ ابْتُليتَ فلا تدل علَيّ. وكان الغلام يبرئ الأكْمَه والأبرص ويداوي النَاس من سائر الأدواء. فسمع جليسٌ للمَلك كان قد عَمِيَ فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شَفَيتني. فقال: إني لا أشْفي أحداً، إنما يشفي الله؛ فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك: من ردّ عليك بَصَرَكَ؟ قال ربي. قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّكَ الله. فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال له الملك: أيْ بُني! أقد بلغ من سحْرك ما تُبرئ الأكْمهَ والأبرص، وتَفْعَلُ وتفعل؟! فقال: إني لا أشفي أَحداً، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مَفرِق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. ثم جيء بجلس الملك فقيل له: ارجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشقَه به حتى وقع شقاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجِع عن دينك؛ فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذرْوته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه؛ فذهبوا به فصَعدوا به الجبل فقال: اللَّهُمَّ أكْفنيهِم بما شئت؛

فرَجَف بهم الجبلُ فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفَانيهمُ الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور فتوسّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللَّهُمَّ اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتَصْلُبُني على جِذْع، ثم خُذْ سَهْمًا من كنانتي ثم ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوْسِ ثم قل: باسم الله رَبِّ الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناسَ في صَعيد واحد وصَلَبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهمَ في كَبِد القَوْس ثم قال: باسم الله ربّ الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صُدْغه فوضع يده في صُدغه في موضع السّهم فمات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأُتيَ الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنتَ تَحْذَر؟ قد والله نَزَل بك حَذَرُك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود في أفواه السِّكَك، فَخُدّت وأضْرَم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحِموه فيها - أو قيل له اقتحم - ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: «يا أُمَّه اصْبِري فإنك على الحق». خَرجه الترمذي بمعناه. وفيه: «وكان على طريق الغلام راهب في صومعة» قال مَعْمَر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين. وفيه: «أن الدابة التي حبست الناسَ كانت أسدًا وأن الغلام دُفن - قال - فيُذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صُدْغه كما وضعها حين قُتل». وقال حديث حسن غريب».

وقد أورد الإمام القرطبي رحمه الله في ص٧٠٨٢ من طريق ابن إسحاق رواية أخرى قال: «وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له قيميون، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا مجابَ الدعوة، وكان سائحا في القُرَى لا يُعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بناء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القُرَظي: وكان أهلُ نجران أهلَ شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون بني بها خَيْمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبدالله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبدالله إذا مرّ بصاحب الخَيْمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحّد الله وعبده وجعل يسأله عن اسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال: يابن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبدالله أن الراهب قد بخل عليه بتعليم اسم الله الأعظم، عَمَد إلى قِداح فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى اسما يعلمه إلا كتبه في قِدْح، لكل اسم قِدْح؛ حتى إذا أحصاها أوْقد لها نارا، ثم جعل يقذفها فيها قدْحًا قدحا، حتى إذا مرّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه، فوثب القِدْحَ حتى خرج منها لم يضرّه شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم اسم الله الأعظم الذي كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يابن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل. فجعل عبدالله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضرّ إلا قال: يا عبدالله، أتوحّد الله

وتدخل في ديني فأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحّد الله ويُسلم فيدعو الله له فيشفي، حتى لم يبق أحد بنجران به ضرّ إلا أتاه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعاه فقال أفسدت عليّ أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلنّ بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيُطرح عن رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بحار لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيُلقَى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه قال له عبدالله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله وتؤمنَ بما آمنتُ به؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلّطت عليّ وقتلتني. فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عبدالله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نُوَاس اليهودي بجنوده من حمْير، فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتَل فخدّ لهم الأخدود؛ فحرّق بالنار وقتّل بالسيف ومثّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا. وقال وهب بن مُنبِّه: اثنى عشر ألفا. وقال الكَلْبي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا» انتهى.

ففي هذه القصة التي رواها الإمام مسلم وغيره، هذا الغلام كان معه حقيقة الإيمان وحقيقة الأعمال والدعوة، فأيده الله تعالى بالآيات وسخر له الموجودات، رغم أن الراهب الذي علمه لم يرق لهذه المرتبة لأنه كان عابدا لا داعيا، أما الغلام فقد كان داعيا إلى الله تعالى، دالا للناس عليه، معرفا للخلق به، وأنه سبحانه النافع الضار بالحقيقة، لا يملك حقيقة التصريف في هذا الكون سواه ولا يستحق الخشوع والخضوع والعبادة غيره، فلا معبود بحق غير الله.

وقد تبين الـغلام أمره، وأمر ما يعـلِّمه اياه الراهب، في امـتحان الدابة الـتي حبسـت الناس، فرمـاها بحجـر بعد أن دعا إن كـان أمر الراهب، هـو الأحب إلى الله تعـالى، أن يهلـكها الله بهـذا الحجر فهلكت، وعلم أن أمر الراهب هـو الأحب عند الله من أمر الساحر، وهو الحق اللائح، والطـريق الواضح، فسار حثيثا فيـه، وتقدم موقنا نحوه، يتلقى الإيمان، ويتزكى بـالتقوى بعد أن أخبره الراهب أنه الآن في منزلة أعلى منه لكونه داعيا إلـى الله تعالى مشيرا إليه، ولم يقتصر فقط على العبادة والطاعة كما فعل الراهب..

ففرق بين الخير الذاتي، والخير المتـعدي، فالخير الذاتي يقع تحت وصف العابد، أما الخـير المتعدي فيقع تحت وصف الـعالم، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[1].

والعابد خيره يموت بموته، أما العالـم والداعي فالخير فيهما يكون متعديا إلى سواهما، ولا يموت بموتهما، بـل يخلد الخير فيهما بخلود العلم وخلود الدعوة..

وقد مضـى هذا الغلام بحقـيقة الأعمال والإيمان، يـدعو إلى الله تعالى، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تـعالى، عند استجابتهم للدعوة وقبولهم الإيمان، وهو ما فعله مع جليس الملك، حيث أتى له

---

١ ـ رواه الإمام الترمذي في الـسنن المجلد الرابع أبواب العلم، «باب فـي فضل الفقه على العبادة»، ورواه الإمام السيوطي في الجامع الصغير المجلد الرابع «باب حرف الفاء» وقال الإمام السيوطي صحيح.

بالهدايا والعطايا على أن يشفيه، فرده الغلام إلى حقيقة الإيمان، أن النفع والضر بيد الله تعالى وحده، وليس بيده ولا بيد أحد، فالشافي هو الله، وهو النافع الضار، فإذا آمن به دعا الله له فيشفيه، فآمن جليس الملك فدعى الغلام الله تعالى له فشفاه، فعاد بصيرا إلى مجلس الملك، الذي كان قد ادعى الربوبية، فسأل جليسه من رد عليك بصرك، قال ربي قال أو لك رب غيري؟!، قال ربي وربك الله، فعلم الملك في تلك اللحظة أن هناك دعوة للإيمان وحقيقة الأعمال، وهي التي دفعت جليسه إلى أن يجاهر بالإيمان وحلاوته، ويكذبه في ربوبيته، فنَّكل به هو والراهب، ليرجعا عن دينهما فلم يفعلا، وكان الملك قد عذب جليسه ليدل على الغلام حتى دل عليه، فجاء به بعد أن نكل بجليسه وبالراهب، فقال له الملك ارجع عن دينك فأبى، فلم يرد الملك أن يقتله بين يديه، كما فعل بجليسه وبالراهب، بل أراد أن يقتله قتلة أمام الناس، تزجر كل من آمن به في أن يظهر رسالته من بعده، أو يعلن عن دعوته في مملكته، هذه الدعوة التي تزلزل ربوبيته التي ادعاها، وأكذوبته التي أمضاها، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال «**اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه**» بعثهم الملك به، وهو يعلم أنه بهذا قد تخلص من الغلام ودعوته، وإيمانه الذي يهز أركان عرشه..

ولكن الغلام كان موافقا لأوامر الله تعالـى داعيا إليه ومعه حقيقة الإيمان والأعمال، فـكان الكون في خدمتـه مسخراً له، فعـندما رفع يديه داعيا «**اللهـم اكفنيهم بمـا شئت**» تحركت الجمـادات، وتزلزلت الشامخات، فـرجف بهم الجبل وأسقطـهم جميعا، ولكنـه ما أسقط الغلام، طرح الجبـل أقدامهم من فوقه، وألقاهـم من ذروته، وأمسك بقدميه هو وأبقاه فوقه بقوته..

وأمر الله تـعالى الجبـل أن يتزلـزل ليحـفظ الداعي إلـيه فتـزلزل ورجف، وأمره أن يلفظ المعرضين عنه فلفظهم، وكأن الجبل تحول إلى مغنـاطيس هائـل، يمسك بأقـدام الداعي إلى الله تـعالى، المعـظم له والدال عليه، وطرح كل من سواه كفاية من الله تعالى ووقاية، عندما قال «**اللهم اكفنيهم بما شئت**»..

وعاد الغـلام يمشي إلى المـلك، وقد يقـول قائل ولم لـم يهرب الغلام؟، فنقول مجيبين ولـم يهرب؟، أليس معه حقيقة الإيمان واليقين الصحيـح، وقد أخرج التعلق والـتوكل على كل ما سـوى الله تعالى من قـلبه، وأصبـح الملك الذي يـخاف منه الـناس يخشـى الخوف، ويخشى الغلام..

فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقـال اذهبوا به فاحملوه في قرقور، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن ديـنه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال «**اللهم أكفنيهم بما شئت**» فانكفأت بهم السفـينة فغرقوا، ومرة أخرى يُسخِّر الله تعالى كونه للداعي إليه، المعُرف به..

ومن سنن الله تعالى أن كل ما سوى الله عز وجل، إذا أخرج الإنسان عظمته من قلبه، فالله يسخره للإنسان، وكل ما سوى الله تعالى إذا جعل الإنسان مكانته وعظمته في قلبه، فالله تعالى يسلطه على الإنسان..

هذا البحر كيف قوته وجبروته، كيف سطوته وبطشه، كم هي قوية أمواجه، عاتية عواصفه، مظلمة مياهه، ومع هذا ما خاف الغلام الداعي إلى الله منها فلم يسلطها الله عليه، بل سخر له البحر وأمواجه، وعواصفه ومياهه، وسلبت قوة هذا البحر أمام إيمان ودعاء هذا الغلام «اللهم اكفنيهم»..

فانكفأ القارب بجنود الملك وما انكفأ بالغلام، بل حفظه وحمله وصار الخطر حفظا، والغرق رعاية وعناية، الماء هو الماء، ومع هذا يُغرق جنود الملك ولا يغرقه هو، ويأمر الله تعالى الماء فيكون له حياة، ولهم موتا..

وهذا من الله تعالى وعد إلى يوم القيامة، لمن التزم حقيقة الإيمان ودعا إليها، فنحن إذا أخرجنا يقين كل القوى من قلوبنا فتسلب قواها..

وعاد الغلام يمشي إلى الملك، وقال له إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، خذ سهما من كنانتي ثم اجمع الناس في صعيد واحد، وتقول بسم الله رب الغلام، فإنك تقتلني، فقال الملك في نفسه إذا مات هذا الغلام يموت معه ما يدعو إليه، ويموت دينه، والملك قال بسم الله رب الغلام، ورماه فقتله، فقال الناس جميعا.. آمنا برب الغلام، وآمن الناس..

ففي كل زمان إذا تيقنا أننا ناصحين لأهل الملك، نريد لهم الجنة حتى إذا كان البلاء منهم، فالله ينزل الهداية، كما نزلت على هؤلاء الناس، الذين حضروا هذا المشهد فآمنوا جميعا بدين الغلام بعد موته وامتثلوا أمر الله تعالى لا أمر غيره..

وجعل الله تعالى تصديق الغلام الداعي إليه حتى بعد موته، حيث تكلم هذا الرضيع على ذراع أمه، عندما أحجمت عن الاقتحام في النار، التي أوقدوها لمن آمن، فقال لها يا أماه امضي فإنك على الحق، فكان هذا وساما للداعي على صدره حتى بعد موته، بتصديق هذا الرضيع له وهو على ذراع أمه، أنه على الحق والهدى والإيمان والتقوى، وأن سبيله والمضي فيها هي رضاء الله تعالى وطاعته، وهي المعابر إلى الحقيقة، الناطقة الرفيقة..

منهج النبوة يخوف بالله ومن الله، ومنهج الملك يخوف بالمخلوق ومن المخلوق..

هذا سيد المرسلين ﷺ يعظ قومه ويخوفهم بين يديه العذاب الشديد، ويخبرهم أن هناك فزعًا لا يفوته أحد، وليس فيه فرصة لتناول الإيمان بعد رده، للذين كفروا به من قبل، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ

وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾[1].

وها هو سيد المرسلين - ﷺ - يأمره ربه أن يخلص له وحده الدين، وأن يكون أول المنقادين المستسلمين، الخائفين الحذرين، وأن يحذر الخاسرين لأنفسهم ظلل النار، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، التي يخوف الله بها عباده ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾[2].

فمنهج النبوة يخوف بالله ومن الله، ومنهج الملك يخوف بالمخلوق ومن المخلوق..

هذا خليل الرحمن عليه السلام يتكلم بمنهج النبوة، فيخوف قومه بالله ومن الله، أن يشركوا به غيره، وهم يخوفونه من الأصنام والأحجار، أن تصيبه بالسوء والآلام، وهو يقرر أمامهم أن الأمن بالإيمان، والخوف في الخوف من المخلوق وعبادته، واتباع الشيطان والعصيان ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ

١ - سورة سبأ: آية ٤٦ : ٥٤.

٢ - سورة الزمر: آية ١١ : ١٦.

آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿٨٢﴾ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴿٨٣﴾﴾[1].

وها هو الخليل عليه السلام يخوف بالله ومن الله، الذين يعبدون من دونه أوثانًا ويخلقون إفكا، ويدعوهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف بدأ الله الخلق، وكيف يعيده، وكيف ينشئ النشأة الآخرة إنه على كل شيء قدير، فهو المعذب لمن يشاء والراحم لمن يشاء، ولا أحد يعجزه في الأرض ولا في السماء، وليس هنالك من دونه معين ولا نصير، فعذابه أليم وعقابه وخيم ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٦﴾ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴿١٧﴾ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿١٨﴾ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴿١٩﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴿٢٠﴾ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴿٢١﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿٢٢﴾ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴿٢٣﴾﴾[2].

فما كان جواب منهج الملك على دعوته، إلا أن حذره وخوفه من المخلوق، إما قتلا بيد الناس وهم مخلوقون، وإما حرقا بالنار وهي مخلوقة، فأنجاه الله تعالى من الاثنين آية للمؤمنين..

---

١ ـ سورة الأنعام: آية ٨٠: ٨٣.

٢ ـ سورة العنكبوت: آية ١٦: ٢٣.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾[١].

وهذا النبي صالح بمنهج النبوة، يخوف قومه العذاب القريب من الله تعالى، فأخذتهم الصيحة أجمعين ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾[٢].

أما منهج الملك فيخوف بالمخلوق ومن المخلوق، وها هو ملك يتحدث بمنهج الملك، عن قهره وبطشه بالكليم عليه السلام وقومه، ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) ﴾[٣].

حتى عندما جاء الكليم عليه السلام بالحق والآيات، كذب منهج الملك بالمعجزات، وهدد وتوعد قومه الذين أرسله الله تعالى إليهم، فخوف بالمخلوق ومن المخلوق ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) ﴾[٤].

وقال منهج الملك مهددا السحرة، ومخوفا لهم من عذاب المخلوق، بعد إيمانهم بموسى عليه السلام، وسجودهم لرب العالمين ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا

---

١ ـ سورة العنكبوت: الآية ٢٤.

٢ ـ سورة هود: الآية ٦٤.

٣ ـ سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

٤ ـ سورة هود: الآية ٢٣: ٢٥.

ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾[١].

وفي الآيات الأخرى قال لهم مخوفا ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾[٢].

منهج النبوة حر يشاور، ومنهج الملك يقهر ويكابر..

قال تعالى آمرا خليله ونبيه وحبيبه محمداً -ﷺ- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[٣] ووصف أفضل الناس بعد الأنبياء، صحابة النبي -ﷺ- بقوله ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٤].

أما منهج الملك فيقول مكابرا ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[٥].

منهج النبوة والدعوة يعظم الله تعالى، ويتكلم عن الله تعالى، أما منهج الملك فيعظم المخلوق، ويتكلم عن المخلوق.

هذا سيد المرسلين -ﷺ- أول ما يؤمر به في بداية تنزيل القرآن العظيم، هو تعظيم الله تعالى وتكبيره قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)﴾[٦] أي فعظم..

---

١ ـ سورة الشعراء: آية ٤٩ : ٥١.   ٢ ـ سورة طه: آية ٧١: ٧٣.
٣ ـ سورة آل عمران: آية ١٥٩.   ٤ ـ سورة الشورى: آية ٣٨.
٥ ـ سورة غافر: آية ٢٩.
٦ ـ سورة المدثر: آية ١ : ٣

وأمر سبحانه وتعالى رسوله أن يُظهر منهج النبوة، بمعالمه الواضحة، في تعظيم وتكبير الله عز وجل ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾[1].

وكان عتاب نوح عليه السلام لقومه بسبب تأخرهم عن تعظيم الله تعالى التعظيم الواجب له فقال عليه السلام لهم ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) ﴾[2]. أي عزة

أما منهج الملك فيعظم المخلوق ويتكلم عن المخلوق..

قال الملك وهو يتكلم عن نفسه معظما لها ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾[3] وقال الملك الآخر: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾[4].

وقال قارون متعظما، ومدعيا إضافة نعمة الله عليه إلى نفسه، وأنها نتاج علمه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾[5].

وها هم السحرة في منهج الملك، يعظمون المخلوق، ويستنصرون بالمخلوق، ويتكلمون عن المخلوق، في مواجهه النبي موسى عليه السلام، الذي يعظم الخالق، ويستنصر بالخالق، ويتكلم عن الخالق:

---

١ ـ سورة الإسراء : آية ١١١
٢ ـ سورة نوح : آية ١١٣
٣ ـ سورة البقرة : آية ٢٥٨
٤ ـ سورة الزخرف : آية ٥١ , ٥٢
٥ ـ سورة القصص : آية ٣٨

﴿فَجمعَ السَّحَرَةُ لميقَات يوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وقيل للنَّاس هلْ أنتم مجتمعون (٣٩) لعلَّنَا نتَّبعُ السَّحَرَةَ إن كَانُوا همُ الْغَالبِين (٤٠) فلمَّا جاء السَّحَرَةُ قالُوا لفرْعَوْنَ أئنَّ لَنَا لأَجْراً إن كُنَّا نحْنُ الْغَالبِين (٤١) قَال نعَم وإنَّكُمْ إذًا لَّمن الْمُقَرَّبِين (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حبالَهُمْ وعصيَّهُمْ وقَالُوا بعزَّة فرْعوْنَ إنَّا لَنحْنُ الْغَالبُون (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإذا هي تَلْقَفُ ما يَأْفكُون (٤٥) فَأُلْقي السَّحَرَةُ سَاجدين (٤٦) قالُوا آمنَّا برب الْعَالمين (٤٧) ربّ موسَىٰ وهرُون (٤٨)﴾[1].

وفي الآيات الأخرى أعز الله تعالى منهج النبوة، الذي عظمه تعالى في أعين المخلوقين، وتكلم عنه بالبراهين ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ويْلَكُمْ لا تفْتَرُوا علَى اللَّه كَذبًا فَيُسْحتَكُم بعذَابٍ وقَدْ خَابَ من افْترَىٰ (٦١) فتنَازَعُوا أَمْرَهُم بينَهُمْ وأَسَرُّوا النَّجوَىٰ (٦٢) قَالُوا إنْ هذَان لَسَاحرَان يريدَان أَن يُخْرجَاكُم مّنْ أَرْضكُم بسحْرِهمَا ويَذْهَبَا بطريقَتكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمعُوا كَيْدكُمْ ثُمَّ ائتُوا صفًّا وقَدْ أَفْلَح الْيَوْمَ من اسْتعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يا مُوسَىٰ إمَّا أَن تُلْقي وإمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ منْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بلْ أَلْقُوا فَإذَا حبالُهُمْ وعصيُّهُمْ يُخَيَّلُ إلَيْه من سحْرِهمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجس في نَفْسه خيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تخَفْ إنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وأَلْق مَا في يمينك تَلْقَفْ مَا صنَعُوا إنَّمَا صنَعُوا كَيْدُ سَاحرٍ ولا يُفْلحُ السَّاحرُ حيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾[2].

منهج النبوة زاهد في الدنيا، راغب في الآخرة، ومنهج الملك متعزز بالدنيا وزهرتها، زاهد في الآخرة، زاعما أن السلطان والمال هما الأساس للفوز والفلاح في الأرض والعلو فيها..

قال الملك وهو يتحدث عن منهج الملك ﴿ونَادَىٰ فرْعوْنُ في قَوْمه قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْس لي مُلْكُ مصْرَ وهَذه الأَنْهَارُ تجْري من تَحْتي أَفَلا تُبْصرُون (٥١)

١ ـ سورة الشعراء: من ٣٨ : ٤٨
٢ ـ سورة طه: من ٦١ : ٦٩

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾[1].

فغرق منـهج الملك تحت الأنهـار التي تعزز بهـا، وجرت الأنهار فوقـه بعد أن ادعى أنـه يجريـها تحت قـدميه، ولم تـبك الأرض ولا السماء عليه ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[2].

وها هو القرآن يصف الذي تعـزز بالملك والدنيا والمال، وظن أن التمكن في الأرض بالمال وحده، ورغب فيمـا يفنى وزهد فيما يبقى، حين آتاه الله تعالى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وما لا يتصوره عقل..

فاتبع منهج الملك فأفسد، وأعـرض عن منهج النبوة ولم يصلح، قال تعالى ناعيا عليه ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ

---

١ ـ سورة الزخرف : من ٥٠ : ٥٦

٢ ـ سورة الدخان : آية ٢٩

﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.[1]

قال الإمام القرطبي ج٧ ص٥٠٢٦: قوله تعالى ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ لما قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها﴾ بين أن قارون أوتيها واغتربها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه..» انتهى.

وكذلك قال المشركون لسيد المرسلين، لما مالوا إلى تعظم الجاهلين، وزهو العابثين، ورأوا أن هذا هو أساس التمكين، ومؤهلات البعثة فقالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2]

فمنهج الملك هو السعي نحو زخارف الدنيا وزهرتها، والعلو والتعزز فيها، ومنهج النبوة والدعوة هو في الآخرة وتعظيمها، وأنها ثمرة المتقين ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾..

---

١ ـ سورة القصص: من ٧٥ : ٨٣ ٢ ـ سورة الزخرف: من ٣٠ : ٣٥

فكل مؤهلات فرعون وقارون وهامان وعاد وثمود وغيرهم، ومن كان على سبيلهم ودربهم خاسرة، إلا مؤهل الإيمان ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[1] منهج النبوة والدعوة هو في التقلل من زخارف الدنيا، وزينة المترفين، والتأكيد على أن الآخرة خير من الأولى، قرآنا يتلى، وآيات تترا: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝**﴾[2].

وهذا ما قاله النبي الداعي سليمان عليه السلام، لما قدَّموا له الدنيا هدية من بلقيس حين قالت لقومها ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾[3].

قال النبي سليمان عليه السلام موضحا منهج النبوة: ﴿**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝**﴾[4].

فأكد عليه السلام أن الآخرة خير من الدنيا ،التي يفرح بها هؤلاء، وهذه الآخرة هي في منهج النبوة الذي آتاه الله إياه وأنعم عليه به بخلاف ما بين أيديهم مما يفرحون به من منهج الملك.

وهذا هو مؤمن آل فرعون، وهو ينصح قومه لسبيل المرسلين، فالدنيا متاع المنقطعين، والآخرة دار المقيمين، فقال مرغبا في دار القرار: ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾[5].

١ـ سورة العصر : آية ٢، ٣.
٢ ـ سورة الضحى: آية ٢ : ١١.
٣ ـ سورة النمل: آية ٣٥.
٤ ـ سورة النمل: آية ٣٦.
٥ ـ سورة غافر: آية ٣٩.

ولقد أورد الإمام أحمد في كتابه الـزهد ص٦١ بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما بعـث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال لا يغركما لباسـه الذي ألبسته فإن ناصيته بيدي ولا ينطـق ولا يطرف إلا بإذنـي ولا يغركمـا ما متع بـه من زهرة الدنـيا وزينة المترفين ولو شئت أن أزينكما من زينة الدنيا بشيء يعرف فرعون أن قدرته تعـجز عن ذلك لفعلت ولـيس ذلك لهوان بكما عـلي ولكن ألبسكـما نصيبكما مـن الكرامة على أن لا تنـقصكما الدنيا شـيئا وإني لأذود أوليائـي من الدنيا كـما يذود الراعي إبـله عن مبارك الـغرة وإني لأجنبهم كما يـجنب الراعي إبله عن مراتع الهلـكة أريد أن أنور بذلك مراتبهـم وأطهر بذلك قلـوبهم في سيمـاهم الذي يعرفون بـه وأمرهم الذي يفتخرون به واعلم أن من أخاف لي وليا فقد بارزني بالعداوة وأنا الثائر لأوليائي يوم القيامة»انتهى.

منهج النبوة والدعوة يدعو إلى الـتوحيد، ومنهج الملك يدعو إلى الشرك، قـال الهدهد وهو جنـدي من جنود منـهج النبوة عنـد الملك النبي الداعي سليـمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾[1].

---

١ ـ سورة النمل: آية ٢٢: ٢٦.

وقال الجاهلون وهم يصفون منهج النبوة: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤﴾[1].

فتعجبوا من دعوة منهج النبوة إلى توحيد الله تعالى، وأنفوا من عبادة إله واحد.

وانظر إلى المولى عز وجل وهو يخاطب حبيبه وخليله سيدنا محمداً - ﷺ - ويأمره أن يقول للشاكين في دينه وتوحيده ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩④﴾[2].

وإليك منهج النبوة وهو يتحدث عن التوحيد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ⑨① وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ⑨② وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ⑨③﴾[3].

وها هو المولى عز وجل يأمر حبيبه سيدنا محمداً - ﷺ - أن يدعو إلى التوحيد، والإخلاص في عبادته وحده، وذم الشرك والكفر، والنظر والتدبر في آياته ومعجزاته، الدالة على كمال قدرته وقيوميته ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن

---

١ ـ سورة ص: آية ٥.

٢ ـ سورة يونس: آية ١٠٤.

٣ ـ سورة النمل: آية ٩١: ٩٣.

يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار (٤)
خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على
الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار
(٥) خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام
ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات
ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون (٦) إن تكفروا
فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر
وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم
بذات الصدور (٧)﴾[1].

وانظر إلى النبي -ﷺ- يأمره ربه أن يرد على الجاهلين الذين يدعون إلى ترك التوحيد ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦) وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون (٦٧)﴾[2].

وانظر يرحمك الله إلى المولى تعالى وهو يخاطب حبيبه ورسوله سيدنا محمدًا -ﷺ- أن يحمده تعالى على ما أولاه، ويسلم على السابقين الطاهرين ممن اصطفاه، مع مساءلة المعرضين عن الخيرية التامة، أهي لله تعالى أم ما يشركون، حيث قال تعالى له: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩)﴾[3].

---

١ ـ سورة الزمر: آية ١ : ٧.

٢ ـ سورة الزمر: آية ٦٤ : ٦٧.

٣ ـ سورة النمل: آية ٥٩.

فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى التوحيد بمنهج النبوة، يُعرف الناس بمعبودهم، ثم يقرر على أسماعهم، الحقيقة الغائبة عن كثير منهم، والتي أنساها الشيطان لهم، فبعد كل آية ووراء كل نعمة يأتي التقرير ﴿أإله مع الله﴾ وهاك هي الآيات ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾[1].

وإليك منهج النبوة وهو يدعو إلى التوحيد والبراءة من الشرك في الحاضر والمستقبل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾[2].

---

١ ـ سورة النمل: آية ٦٠: ٦٦.

٢ ـ سورة الكافرون: آية ١: ٦.

وها هو موسى عليه السلام بمنهج النبوة يدعو إلى التوحيد. في مقابلة منهج الملك لما قال له فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وانظر إلى النبي هود عليه السلام في منهج النبوة وهو يدعو إلى التوحيد ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

كذلك النبي صالح عليه السلام بمنهج النبوة يدعو إلى التوحيد ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[3].

وفي مدين النبي شعيب عليه السلام بمنهج الدعوة والنبوة، يدعو إلى التوحيد ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[4].

وهذا النبي يوسف عليه السلام بمنهج النبوة، يدعو إلى التوحيد مع صاحبي السجن ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ

---

١ ـ سورة الشعراء: آية ٢٣ : ٢٨.

٢ ـ سورة الأعراف: آية ٦٥.

٣ ـ سورة الأعراف: آية ٧٣.

٤ ـ سورة الأعراف: آية ٨٥.

أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾[١].

وهذا الخليل عليه الصلاة والتسليم يدعو إلى توحيد الله بأفعاله، وهو توحيد الربوبية حيث أنه هو الرازق وحده، ويدعو إلى توحيد الله تعالى بأفعال عباده، وهو توحيد الألوهية، حيث أنه المستحق للعبادة وحده، ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾[٢].

وانظر إلى الخليل عليه الصلاة والتسليم، وهو يدعو أباه إلى التوحيد، وترك عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنه شيئا، يدعوه إلى ترك عبادة الشيطان، الذي أعلن العصيان للرحمن ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾[٣].

---

١ ـ سورة يوسف: آية ٣٧: ٤٠.

٢ ـ سورة العنكبوت: آية ١٦: ١٧.

٣ ـ سورة مريم: آية ٤١: ٤٥.

فقد رأيت رحمك ـ الله تعالى ـ في كل ما سبق، كيف يدعو منهج النبوة الناس إلى التوحيد، وإلى إفراد الله تعالى وحده بالعبادة..

أما منهج الملك فيدعو إلى الشرك، وبترك التوحيد، قال الملك فرعون في مواجهه الكليم عليه الصلاة والتسليم: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

فهدد موسى عليه السلام إن لم يتخذه إلها، ويعبده وحده أن يُنكل به، ويبطش بمن معه، ولم تنفعه في ذلك الآيات، أو تؤثر في سطوته المعجزات، بل واجه عموم الناس بدعوتهم لعبادته..

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[2] وقال الله عز وجل واصفا حاله، وما آل إليه مآله ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾[3].

وقد كان هذا الجزاء لتكذيبه وعصيانه، وادعائه الربوبية ودعوته للشرك ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[4].

وها هو ملك آخر في منهج الملك، يترك توحيد الله تعالى وعبادته، ويذهب بنفسه يعلو بها، فيحاجج خليل الرحمن بإدعاء الربوبية ويعلن في الأرض العصيان.

---

١ ـ سورة غافر: آية ٢٦.
٢ ـ سورة القصص: آية ٣٨.
٣ـ سورة القصص: آية ٣٩: ٤٢.
٤ ـ سورة النازعات: آية ٢١: ٢٦.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1].

وها هو مؤمن آل فرعون يخاطب منهج الملك الذي يدعوه إلى أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا، وما ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة فقال متحدثا له داعيا إياه إلى توحيد العزيز الغفار الذي مردنا إليه وسيرنا نحوه ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[2].

منهج النبوة قاهر ومنهج الملك مقهور، هذا منهج الملك يتحدى الكليم عليه الصلاة والتسليم، ويحشر الأعوان، ليعلو في الأرض، ولم يدري أنه وحده المقهور فقد قضى الله تعالى أن منهج النبوة غالب لا مغلوب، قاهر لا مقهور، قال الملك وهو يحاول أن يدفع الشيء الذي لا يُدفع، وأن يُعيد ما لا يرجع وأن يرد الأمر الذي إليهم أسرع ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ

---

١ ـ سورة البقرة: آية ٢٥٨.

٢ ـ سورة غافر: آية ٤١: ٤٤.

الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1] .

كل ذلك ومنهج النبوة عزيز بعزة العزيز، يتكلم بالقوة التي يستند إليها ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2] .

وهذا النبي سليمان عليه السلام ما استخدم منهج الملك والقوة لأنه مقهور ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾[3] وأستخدم عليه السلام منهج النبوة الغالب القاهر ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[4] .

وها هو منهج النبوة لما استجمعت حوله الأكاذيب والعصيان والرد، فقالوا عنه مجنون وازدجر وسخروا منه، مع أن النصر كان حليف الذي منه يسخرون ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[5] .

---

١ ـ سورة الشعراء: آية ٣٤: ٤٢.

٢ ـ سورة الشعراء: آية ٤٣ : ٤٨.

٣ ـ سورة النمل: آية ٣٩.

٤ ـ سورة النمل: آية ٤٠.

٥ ـ سورة هود: آية ٣٨، ٣٩.

ورفع نوح عليه السلام يديه للغالب وحده أن ينصر من ظنوا أنه مغلوب وظهر مع دعائه قوة من غلب في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [1].

وهذا منهج النبوة يعلو ويسمو أمام منهج الملك ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨)﴾ [2].

وتأمل النبي هود عليه السلام بمنهج النبوة وهو يقف أمام منهج الملك يتبرأ منه ويتكلم بعزة عن العزيز، ويتحدى به من أمامه جميعا، فهو يتوكل على من نواصي كل دابة بيده، الغالب الذي لا يغلب وهو على صراط مستقيم، فأجابوه وعنفوه، ولمزوه وعابوه ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا

---

١ ـ سورة القمر: آية ١٠: ١٧.

٢ ـ سورة الحاقة: آية ٤: ٨.

نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾[1].

واقرأ القانـون الإلهي الثابت الـذي لا يتغير ولا يتـحول أن نصرة الله تعالى حليف منهج النـبوة والإيمان على توالي السنين والأيام ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)﴾[2].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾[3].

قال الإمام ابـن كثير ج٣ ص٢٠١: يقـول تعالى مـخبرا عما حـتمه وقضاه لعبـاده الصالحين من السعادة في الـدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيـا والآخرة كقوله تعـالى: ﴿إن الأرض لله يورثها من يـشاء من عباده والـعاقبة للـمتقين﴾ وقال ﴿إنـا لننصر رسـلنا والذين آمـنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد﴾.

وقال ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الـصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلـف الذين من قبلهم وليمكنن لـهم دينهم الذي ارتضـى لهـم﴾ وأخبر تـعالى أن هـذا مسـطور في الـكتب الـشرعـية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تـعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾. انتهى كلام الإمام ابن كثير.

---

١ ـ سورة هود: آية ٥٣: ٦٠.

٢ـ سورة غافر: آية ٥١.

٣ ـ سورة الصافات: آية ١٧١: ١٧٣.

منهــج النبوة الآن ليــس موجودًا بينــي وبين عمى وخالــي وسائر المسلمــين، وأريد أن أقيم الناس عــلى منهج الله، علــى الرغم من أن عاطفة الانتقام ما زالت موجودة، ولــكن إذا تحقق ما تحقق في العهد الأول، من اعتقاد وعمل ودعوة، ينصر الله تعالى عبيده، ويعلى دينه، إننا الآن قــد نكون عبيــدا أثناء الصــلاة والصيام والحج وقــراءة القرآن وغير ذلك، ولكنــنا لسنا عبيدا في المعامــلات، وفي الأخذ والعطاء، فإذا اكتملت العبودية في كل شيء ، هنالك يتحقق موعود الله . .

معنى كلمة

أمير المؤمنين

عثمان بن عفان رضي الله عنه

«ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن»

فإن قال قائل فقد قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن».

قلنا قد غفل كثير من الناس، عما يعنيه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بذلك، حيث فهموا من كلامه رضي الله عنه أن السلطان يُكف الناس ويردعهم، أفضل مما تكفهم وتردعهم أوامر الله تعالى، وحدوده وأحكامه في القرآن، وهذا خطأ عظيم، حيث أن أوامر الله تعالى وحدوده، كاملة تامة، كمل بها وصلح أمر الناس، في الدنيا والآخرة، وتمت بها النعمة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ ولو أن الناس أقاموها، وولاة الأمور التزموها بالحق والعدل، لم يكن بعدها غاية، ولا دونها سبيل ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ ولكن الناس قصّروا، وافتتنوا عن بعض ما أنزل الله تعالى وعدلوا، ففسدت الأحوال، وضاعت الآمال..

قال الإمام القرطبي في الجزء السابع ص٤٨٨٤ في قوله تعالى ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ قال: وذكر ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: «ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن؛ أي من الناس قال ابن القاسم قلت لمالك ما يزع؟ قال: يكف. قال القاضي أبو بكر بن العربي: «وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته. قال: فإن الله ما وضع الحدود إلا لمصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بها، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامت الأمور وصلح الجمهور» انتهى كلام الإمام القرطبي.

المقابلة

بين النبي يوسف عليه السلام

وغيره في طلب الإمارة

وقد يقول قائل فهذا النبي يوسف عليه السلام قد طلب الملك والسلطان: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[1]، فنقول: نعم وصدق وبرَّ عليه السلام، وقد كان كلامه هذا بعد أن قضى الله تعالى له بالتمكين في الأرض، والاستخلاف فيها، لأنه الغالب على أمره، وبين هذا وحيا لرسوله وخليله محمد -صلى الله عليه وسلم- قرآنا يتلى فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

قال الإمام الطبري في تفسيرها ج١٣ ص٦: «يقول تعالى ذكره وهكذا وطأنا ليوسف في الأرض يعني أرض مصر ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ يقول: يتخذ من أرض مصر منزلا حيث يشاء بعد الحبس والضيق ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من خلقنا كما أصبنا يوسف بها فمكنا له في الأرض بعد العبودة والإسار وبعد الإلقاء في الجب ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ يقول ولا نبطل جزاء عمل من أحسن فأطاع ربه وعمل بما أمره وانتهى عما نهاه عنه كما لم نبطل جزاء عمل يوسف إذ أحسن فأطاع الله» انتهى.

فهل للمستنين به عليه السلام في ذلك نفس المنزلة، وعين الدرجة وذات الوحي، أضف إلى هذا أنه عليه الصلاة والسلام كان نبيا معصوما، مأمون عليه زلل الإمارة، وآفات الحكم والسلطان، وخطايا الملك، وطلب الدنيا بالدين، وما يصاحب الممالك من مهالك، فهل المتكلمون كذلك؟!، ومن المعصوم منهم في ذلك؟!..

---

١ ـ سورة يوسف: آية ٥٥.

٢ ـ سورة يوسف: آية ٥٦.

هذا وإن كان طلب الولاية من النبي يوسف عليه السلام بقوله ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ شرعا سائغا في من قبلنا، فلا يستلزم بالضرورة، أن يكون شرعا لنا، خاصة إذا عارضته الأحاديث الثابتة، في النهي عن طلب الإمارة في شرعنا، وعدم تولية من طلب ذلك، وحرص عليه..

وقد قرر ذلك الإمام الشوكاني في نيل الأوطار تعقيبًا على كلام الإمام ابن التين رحمه الله ج ١٠ ص٢٤٦ وهو يتكلم عن سلب الاعانه، عن طالب الإمارة، سواء أكانت الإمارة العظمى وهي الخلافة، أو الصغرى وهي الولاية على بعض البلاد، فقال رحمه الله: «وبالجملة فإذا كان الطالب مسلوب الإعانة تورط فيما دخل فيه وخسر الدنيا والآخرة فلا تحل تولية من كان كذلك وربما كان الطالب للإمارة مريدا بها الظهور على الأعداء والتنكيل بهم فيكون في توليته مفسدة عظيمة قال ابن التين محمول على الغالب وإلا فقد قال يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ [يوسف٥٥] وقال سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥] قال ويحتمل أن يكون في غير الأنبياء عليهم السلام»انتهى.

قلت: [أي الإمام الشوكاني] ذلك لوثوق الأنبياء بأنفسهم بسبب العصمة من الذنوب وأيضا لا يعارض الثابت في شرعنا ما كان في شرع غيرنا فيمكن أن يكون الطلب في شرع يوسف عليه السلام سائغا وأما سؤال سليمان فخارج عن محل النزاع إذ محله سؤال المخلوقين لا سؤال الخالق وسليمان عليه السلام إنما سأل الخالق قوله إنكم ستحرصون بكسر الراء ويجوز فتحها ويدخل في لفظ الإمارة الإمارة العظمى وهي الخلافة والصغرى وهي الولاية على بعض البلاد وهذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بالشيء قبل وقوعه فوقع كما أخبر قوله

(وستكون ندامة يوم القيامة) أي لمن لم يعمل فيها بما ينبغي ويوضح ذلك ما أخرجه البزار والطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك بلفظ «أولها ملامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل» انتهى كلام الإمام الشوكاني.

قلت: وقد أكد حجة الإسلام الإمام الغزالي في الوسيط ج٧ ص٢٨٨ التحذير من الإقدام على طلب الولايات، لما تستخرجه من النفوس من خبايا الخبث، فقال: «**وقال عمر رضي الله عنه ما من أمير ولا وال إلا ويؤتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره**»[1] **وإنما هذه التحذيرات لأن هذه الولاية تستخرج من النفس خفايا الخبث حتى يميل على العدو وينتقم منه وينظر للصديق ويتبع الأغراض وقد يَظُنُّ بنفسه التقوى فإذا وُلِّيَ تغير» انتهى كلام الإمام الغزالي.**

وقد أورد الإمام البيهقي في السنن الكبري ج١٠ ص٩٦ ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك من طريق زياد بن نعيم الحضرمي قال: **سمعت زياد بن الحارث الصدائي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته علي الإسلام وذكر الحديث بطوله قال فيه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون أخذنا بشيء كان بيننا و بين قومه في الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو فَعَلَ ذلك؟ فقالوا: نعم. فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلي** أصحابه وأنا فيهم فقال «لا خير في الإمارة لرجل مؤمن».

---

١ ـ قال ابن الصلاح: (ما ذكره من قول عمر رضي الله عنه موقوفًا: قد جاء نحوه مرفوعًا، والله أعلم» وهذا الحديث المرفوع الذي ذكره الإمام ابن الصلاح أورده الإمام أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت وعن سعد بن عبادة رضي الله عنهما.

على أن كتب التفسير أوردت عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله -ﷺ- «**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخَّر ذلك عنه سنة**».

فكيف بطلب غيره وكم تتأخر عنهم، بعد قتالهم عليها، وسفك الدماء لها بعد طلبها. .

هذا وقد كان وصول النبي يوسف عليه السلام إلى خزائن الأرض بطريق النبوة ومنهج النبوة، قال عليه السلام: ﴿**أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فكانت التقوى والصبر عليها، أساس التمكين لديه، وبها وصل إلى ما وصل إليه، وهي الطريق لكل السائرين، وسبل الملاذ للحائرين. . .

ولقد أعطى الله تعالى بني إسرائيل ملك البلاد، وخزائن الأرض بطريق النبوة، فلما انشغلوا بالملك والمال أذلهم الله تعالى، حتى أرسل إليهم موسى عليه السلام بطريق النبوة أيضا، ونصرهم الله تعالى على عدوهم، وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، بغير حرب ولا قتال، ثم انشغلوا بالملك والمال فسلط الله عليهم الملوك الذين استباحوهم واستأصلوهم، حتى طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا لاسترداد ديارهم وأبنائهم:

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**

فَلمَّا كُتبَ عَلَيْهِمُ الْقتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَليلاً مّنْهُمْ وَاللَّهُ عَليمٌ بَالظَّالمين(٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بعث لَكُمْ طَالُوتَ مَلكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ منْهُ﴾[1] فنظروا إلى الاستخلاف والـتمكين على أنه بالاستحـقاق، وظنوا أن الملك للمـستحق له فقط، والـلائق به، ولم يعلموا حكمة الحكيم فيه، وأنه لمن شاء الله تعالى وقدَّره له، إستحق ذلك أم لم يستحق..

وقد انتخب الله تعالي، من هؤلاء الذيـن طلبوا القتال من نبيهم صفوتهم، وأهل الصـفات منهم، فاختارهم قليلا من قـليل من قليل من قليل، فحينـما كُتب عليهم القتال تولوا إلا قليـلا منهم، فانتخب الله هذا القليل مـن الكثير: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾[2] فانتخب الله من القليل السابق هـذا القليل الذي صبـر للابتلاء والاختبار، ولأمـر الله تعالى ولم يشرب من هـذا النهر، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ هذا قول أكثر القليلين، أما القليل منهم الذين يظنون أنهم ملاقوا الله فقالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢٤٩)﴾.

فانتخبهـم الله تعالى وهم أقل القليل من الآخـرين، حيث كانوا على الـصفة التـي يريدها مـن الإيمان الكامـل والتقوى والاحـتساب والصبر، وأنزل عليهـم نصرته وتأييده: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ

---

١ ـ سورة البقرة: آية ٢٤٦، ٢٤٧.

٢ ـ سورة البقرة: آية ٢٤٩.

قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾[1].

فكانت نصرة الله تعالى لأهل الإيمان والاحتساب والصبر، من الحق الذي يتلوه على حبيبه وخليله محمد -ﷺ- لتثبيت فؤاده وإرشاد أمته وأتباعه..

وقد كان هذا النصر بطريق النبوة أيضا، ووهب الله تعالى معه لداود عليه السلام: ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ تأكيدًا للإرادة النافذة والقدرة القديرة لمالك الملك يؤتي الملك من يشاء، لتبدو للمعتبرين العظة، ولتكون آيات للمتوسمين، وإنها لبسبيل مقيم.

ولهؤلاء الذين يقولون فقد قال النبي يوسف عليه السلام ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ وأن طلب الملك والأستخلاف كان سنة هذا النبي الكريم..

نقول لهم فهلا قلتم مثلما قال هذا النبي الكريم في الناحية الأخرى، لما كان الأمر يتردد بين موافقة الأمر، مع الابتلاء وعدم التمكين، أو الوقوع في المخالفات ومعصية رب العالمين، فإنه لم يتوان في طاعة أمر مولاه، ولو كان ظاهر القيام بهذا الأمر الضرر البين، بل أحب المشقة والأبتلاء والتضييق والتوقيف، على أن يكون منه المخالفة وكسر الأمر من الله تعالى..

---

١ ـ سورة البقرة: آية ٢٥٠: ٢٥٢.

وهذا عندما أعلن الموافقة للأمر الإلهي على ما يكون في هذه الموافقة، فقال عليه السلام عندما خير بين عصيان الأمر بارتكاب الفاحشة أو السجن ليكون من الصاغرين: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فاحب البلاء مع طاعة الله، وعدم مخالفة أمره، ولم يرى أن المخالفة قد تكون مُبررة للحصول على الملك والتمكين، إذا ما أطاع امرأة العزيز، بل وافق الأمر وامتثل طاعة ربه، وإن كان في هذا الأمر وما يصحبه من العفة والصيانة الضرر البين، بحسب النظر القاصر..

قال الإمام القرطبي في تفسيره ج٥ص٣٤١٧:« قال وهب وغيره: حُمل يوسف مقيدا على حمار، وطيف به «هذا جزاء من يعصي سيدته» وهو يقول: هذا أيسر من مُقطعات النيران، وسرابيل القطران، وشرب الحميم، وأكل الزّقوم، فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم، فجعل يقول لهم: اصبروا وأبشروا تؤجروا، فقالوا له: يا فتى! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب، ابن ذبيح الله إسحق[1]، ابن خليل الله إبراهيم. وقال ابن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن، فكان يُعزّى فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلي الليل كله، ويبكي حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع

١ ـ الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق عليه السلام كما رجح ذلك الإمام ابن كثير وغيره.

يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال: يا يوسف! لقد أحببتك حبًا لم أحب شيئا حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك؛ قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى» انتهى كلام الإمام القرطبي.

فحقيقة منهج النبوة، هو في تحقيق الثقة في أمر الله تعالى، وأن فيه الفوز والنجاح، وإن رأت العين خلاف ذلك، وأن الحفظ كل الحفظ والعناية والرعاية في موافقة الأمر الإلهي، وإن كان الظاهر بخلاف ذلك..

فظاهر حال النبي يوسف عليه السلام عند موافقة أمر الله تعالى بالصيانة، وغض البصر، وحفظ الفرج عن المحرمات، هو الابتلاء والسجن، والتوقيف والتضييق، فاختار هذا الظاهر الذي فيه موافقة أمر الله تعالى، وإن كان ضررا بينا، يتمثل في ابتلائه وحبسه وعذابه، بل رضي وأحب هذا الأختيار، ووصل الاختبار إلى ذروته عندما دخل السجن ومكث فيه بضع سنين، كل ذلك وهو لا يتبدل ولا يتغير، ولا يتحول عن موافقة أمر الله تعالى، واجتناب نهيه..

حتى عندما جاءه الرسول يستدعيه للملك، قال له عليه السلام ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأبى أن يخرج من السجن وهنالك شبهة الوقوع في المخالفة، وما ترك سجنه إلا بعد تيقن برائته وعفته وصلاحه: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ فالتمكين والنصرة إنما هو بموافقة الأمر من الله تعالى، لا بكسر أمر الله تعالى والتقدم والالتفاف على أوامره، بدعاوي مخلوطة يذاب فيها السم في العسل..

وهذا ما حدث مع الصديق يوسف عليه السلام، فبعد أن وافق الأمر من الله تعالى باجتناب المحرمات والتزام الطاعات، مع ما في ظاهرها من الضرر والسجن والخوف، ولكن الخير كل الخير كان فيها وكان خيرا غيبيا غير منظور، فتحقق الوعد من الله تعالى عند قيام المطلوب من الإيمان والأعمال الصالحة..

ومكن الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الأرض، وأضاف هذا التمكين إلى نفسه سبحانه حتى لا يغفل الغافلون، أو ينسى الذاكرون ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**(٥٦)﴾ فقال تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا**﴾ ولم يقل ليوسف عليه السلام «**وكذلك مكنت أنت لنفسك**»، بل إن النبي يوسف عليه السلام نفسه قد أضاف هذا التمكين إلى الله تعالى بقوله ﴿رب قد آيتني من الملك﴾ ولم يقل «إني قد آتيت نفسي الملك» حتى نعقل عن الحكيم حكمته، ونسلم للقدير إرادته، فنحب ما يريد، ونرضى بما يرضى، ولا نطلب تعجيل شيئا أخره ولا تأخير شيء عجله، اللهم رضنا بقضائك، وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل شيء آخرته، ولا تأخير شيء عجلته..

هذا طريق النبوة أما طريق الملك فيقوم على الأسباب السياسية المشاهدة والمحسوسة، والإيمان بالمشاهد المحسوس، فلو أمره المشاهد المحسوس بالقتل ليتمكن فإنه يقتل، وكذلك لو أمره المشاهد المحسوس بالكذب ليتمكن فإنه يكذب، ولو أمره بالخديعة فهو يخدع...

هذا وإن من المقرر المعلوم، أن النبي يوسف عليه السلام ما طلب أن يُجعل على خزائن الأرض إلا بعد أن ملّكه الملك، وقلّده الإمارة، حيث قال له: ﴿**ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**(٥٤)﴾.

قال الإمام القرطبي في تفسيره ج٥ ص٣٤٤١ في قوله تعالى ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله خالصا لنفسي، أفوض إليه أمر مملكتي؛ فذهبوا فجاءوا به؛ ودلّ على هذا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ ﴿ قال﴾ الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي متمكن نافذ القول، «أمين» لا تخاف غدرا»انتهى كلام الإمام القرطبي.

حينئذ قال له النبي يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴿٥٥﴾﴾ قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية ص٣٤٤٤: الثانية ـ قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم. قال الماوردي: فإن كان المولى ظالما فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما ـ جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلى من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني ـ أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما ـ أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغي فرعون موسى. الثاني ـ أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدهما ـ ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة

الظالـم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني ـ ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مَصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث ـ ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين، وتوسطا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

الثالثة ـ ودلت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبدالرحمن بن سُمرة قال قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسئلة وُكلت إليها وإن أُعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها». وعن أبي بُردة قال قال أبو موسى: أقبلتُ إلى النبي ـ ﷺ ـ ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ـ ﷺ ـ يستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى ـ أو يا عبدالله بن قيس» قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قَلَصت، فقال: «لن ـ أو ـ لا نستعمل على عملنا من أراده» وذكر الحديث؛ أخرجه مسلم أيضا وغيره؛ فالجواب: أولا ـ أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه،

ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام؛ فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبدالرحمن: «لا تسأل الإمارة» فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: «وُكل إليها» ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرَّ منها، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله «أعين عليها». الثاني - أنه لم يقل: «إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي -ﷺ-: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: «إني حفيظ عليم» فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

الثالث - إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾.

الرابع - أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر »انتهى كلام الإمام القرطبي.

نقول: فهل المستنون به عليه السلام في طلب الملك والإمارة، قُلِّدوا من المتملكين الإمارات، وهل جاء طلبهم للملك والإمارة بعد أن زكَّاهم متقلدو الأمر، ومكَّنوهم في الإمارة، أم أن الاستنان بالنبي يوسف عليه السلام في وجه دون وجه، وكيفما اتفق وكان، حسب ما يروق للخيال، وعلى كل وصف وحال، وكيف إذا كان متقلدو الأمر يكرهون ذلك، بل يصادمون ويعادون ويبتلون من طلب منهم الإمارة،

أو جزءا منها، فهل نُصر على طلب الإمارة والملك والسعي لتحقيق ذلك؟!!..

وهل نحن في هذه المرحلة كالنبي يوسف عليه السلام، الذي كان مطلوبا للملك والتمكين والامارة، في حقيقة الأمر، ولم يكن طالبا، وذلك بقول الملك ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ فكان مرغوبا فيه عليه السلام لا راغبا، وإذا كنا نحن الآن راغبين في الامارة، وليس مرغوبا فينا من متقلدي الأمور، وأصحاب السلطان، فهل يوجد بيننا على حالنا، وبين هذا النبي الكريم وجه شبه، من كونه مطلوبا للامارة، قبل أن يكون طالبا، ومن كوننا طالبين للإمارة، ونحن غير مطلوبين، ولا مرغوبا فينا....

فالفرق بيننا وبين حاله عليه السلام كبير، ووصفنا غير وصفه، بل طريقنا مصادم لطريقه صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم وسائر النبيين والمرسلين..

هذا وقد علم النبي الكريم يوسف عليه الصلاة والتسليم أنه ليس في عصره مثله، علما وحفظا وأمانه، فلذلك طلب ما طلب، فهل المتكلم بمثل كلامه كذلك، ومن أين له أن يعرف هذا؟ حيث إن النبي يوسف عليه السلام قد أعلمه ربه بذلك عن طريق الوحي، فهل عند المتكلمين وحي يزكيهم، أو خطاب من السماء بأيديهم؟!!..

لذلك كان على ولي الأمر في كل ولاية، أن يبحث عن أصلح الناس لها، لأن هذا من أعظم الأمانات التي استودعه الله إياها..

قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص٢٤٧ فيجب على كل من ولى شيئًا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل بكونه طلب الولاية، أو سبق في الطلب؛ بل يكون ذلك سببًا للمنع؛ فإن في الصحيح عن النبي -ﷺ-: «أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية: فقال: إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه»[١]. وقال لعبدالرحمن بن سمرة: «يا عبدالرحمن! لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها؛ وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها»[٢] أخرجاه في الصحيحين، وقال -ﷺ-: «من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه، ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه؛ أنزل الله عليه ملكا يسدده». رواه أهل السنن.

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره؛ لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو مرافقة في بلد أو مذهب؛ أو طريقة، أو جنس: كالعربية، والفارسية، والتركية، والرومية؛ أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾ ثم قال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾.

١، ٢ ـ سبق تخريجه.

فإن الرجل لحبه لولده، أو لعتيقه، قد يؤثره في بعض الولايات، أو يعطيه ما لا يستحقه؛ فيكون قد خان أمانته؛ وكذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه؛ بأخذ ما لا يستحقه، أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله، وخان أمانته.

ثم إن المؤدي للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله، ويذهب ماله. وفي ذلك الحكاية المشهورة: أن بعض خلفاء بني العباس، سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك، فقال: أدركت عمر بن عبدالعزيز؛ قيل له: يا أمير المؤمنين أقفرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم ـ وكان في مرض موته ـ فقال: أدخلوهم علي؛ فأدخلوهم؛ وهم بضعة عشر ذكرًا، ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال لهم: يا بني والله ما منعتكم حقا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم؛ وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين؛ وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني. قال: فلقد رأيت بعض بنيه، حمل على مائة فرس في سبيل الله؛ يعني أعطاها لمن يغزو عليها.

قلت: هذا وقد كان خليفة المسلمين، من أقصى المشرق بلاد الترك إلى أقصى المغرب بلاد الأندلس وغيرها ومن جزائر قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها، إلى أقصى اليمن. وإنما أخذ كل واحد من أولاده، من تركته شيئًا يسيرًا، يقال: أقل من عشرين درهما ـ قال وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه، فأخذ كل واحد منهم ستمائة ألف دينار؛ ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس ـ أي يسألهم بكفه ـ وفي هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة في الزمان، والمسموعة عما قبله؛ ما فيه عبرة لكل ذي لب.

وقد دلت سنة رسول الله ـ ﷺ ـ على أن الولاية أمانة يجب أداؤها في مواضع: مثل ما تقدم، ومثل قوله لأبي ذر رضي الله عنه في الإمارة «إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم، وروي البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قيل يا رسول الله: وما إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» وقد أجمع المسلمون على معنى هذا؛ فإن وصي اليتيم، وناظر الوقف، ووكيل الرجل في ماله؛ عليه أن يتصرف له بالأصلح فالأصلح، كما قال الله تعالى ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ولم يقل إلا بالتي هي حسنة» انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

نقول: والطالبون لهذا الأمر استنانا بالنبي يوسف عليه السلام، هلا تابعوا من استنوا به، فهو ما طلب منازعة الحاكم في سلطانه، ولا نزعه من مكانه، ولا الثورة عليه، وإنما طلب من الملك نفسه أن يمكنه ويُملكه ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾ ولو رفض الملك ذلك ما عارضه، ولو رده ما نازعه، بخلاف الآخرين، فإنهم يطلبون الملك بالخروج على الحكام، ومنازعة السلطان، ومن هذا الطريق كان البلاء بالأمة، حكاما ومحكومين، وكانت الخصومة المستمرة في بلاد المسلمين، بين الرعية ومن استرعاه الله أمرهم، وكم سالت من دماء، ووقع الناس في الفتن العمياء..

وهو طريق المغضوب عليهم والضالين، في تغيير الأحوال عن طريق الخروج على الحكام، أقنعوا به طوائف منا، وصدَّروه لنا، فكانت الفتنة، ظلمة يتبعها ظلمة، وعاش الناس في الغمة، وأمن الأعداء وفزعنا، واستقاموا مع حكامهم وملوكهم، صالحين كانوا أو غير ذلك واعوججنا، وتقدموا وتأخرنا

إن الحادثات بلغن النَّهَي ... وكادت تذوب لهن المهج
وحل البلاءُ وقلَّ العزاءُ ... فعند التناهي يكون الفرج

لذلك كان أهل الدعوة على منهج النبوة، لا منهج الملك، فهم يعظمون الخالق لا المخلوق، ويتكلمون عن الخالق لا المخلوق، ويُعرفون بالخالق لا بالمخلوق..

دعوتهم النصح والإصلاح، والعفو والصفح، برحمة من الله تعالى لانوا في أيدى الناس، فجمع الله تعالى القلوب عليهم، وأنعطف المسلمون إليهم، وكانوا بذلك على هدي نبيهم، وصفته المقروءة في كتابهم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1] لا أثر في دعوتهم للثأر والانتقام، يحرصون على نجاة الناس ولو كان منهم الصد والإعراض، ينتقلون بالشاردين إلى واحة الطاعة والدين، ويخرجون بالناس من الظلمات إلى النور، ومن الدنيا إلى الآخرة..

حافظوا على مقاصد المرسلين، وساروا خلف نبيهم -ﷺ- ليكونوا رحمة للعالمين، مبشرين ومنذرين، ودعاة إلى الله بإذنه إلى الناس أجمعين، يخوفونهم بالله ومن الله، ويصلحونهم على الله..

يحفظون المسلمين بظهر الغيب، إذا غابوا عنهم، وينصحون لهم إذا استنصحوهم، ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون لهم ما يكرهون لأنفسهم..

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله -ﷺ-: «أربع من حق المسلم أن تعين محسنهم وأن تستغفر لمذنبهم وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم».

---

١ ـ سورة آل عمران: آية ١٥٩.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يؤكد هذه الحقوق للمسلمين، ويجعلها من الحلال والحرام والفرائض، ويفسر بها قوله تعالى ﴿رحماء بينهم﴾ فقد روي جبير عن الضحاك عن ابن عباس في تفسيرها: «يعني متوادين بينهم يدعو صالحهم لطالحهم، إذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير، وثبته عليه وانفعنا به، وإذا نظر الصالح إلى الطالح من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال اللهم اهده وتب عليه واغفر له قال ابن عباس هذه الآية من حلالكم وحرامكم...».

وبذا نكون قد وصلنا إلى آخر النهاية، في بيان طرق النبوة وسبل الهداية، والتي بدأناها بأصول أهل السنة والجماعة في سنن الملك والتمكين، والفرق بين منهج أهل السنة ومنهج المعتزلة والخوارج في ذلك، ثم بيان أن التمكين والاستخلاف إنما هو بيد الله تعالى لمن يشاء، وهبا لا كسبا، وهو قائم على أسباب غيبية من الإيمان والأعمال الصالحة، فالله تعالى يؤتي ملكه من يشاء، ثم التأكيد على أن كل موعودات الله تعالى هي على الإيمان والأعمال الصالحة، وأن وقوع المصائب على الأمم هو بترك الأمتثال للأوامر والعصيان، ثم الفصول التي تبين أن منهج النبوة جاء بنقض اليقين والتوكل على كل ما سوى الله تعالى، وأن الاستعجال لا يصدر إلا من الجهال، فمنهج النبوة نفي لتأثير المخلوق في قدرة وإرادة الخالق، وبيان أن سنن النصرة في الصبر والقيام لتبليغ الرسالة، وأن أول طرق التمكين إقامة الإيمان في المسلمين، ثم الأمثلة على نصرة الله تعالى الإنفرادية والجماعية، والتأكيد على أنه في أي وقت إذا تركت الدعوة فالخلافة لا تكون خلافة،

وكيفية نجاة الأمة من كهف المحنة، والفرق بين غاية مصطلح الشرع في التغيير وغيره من المصطلحات، ثم أحكام طلب الإمارة، وأن من طلبها فأعطيها تركت إعانته لأجل حرصه، والفرق بين الخليفة والسياسي، والفرق بين منهج النبوة ومنهج الملك، ومعنى كلمة أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» ﷺ «ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن»، والمقابلة بين النبي يوسف عليه السلام وغيره في طلب الإمارة، حتى يتبين القريب قربه ويعلم البعيد أنه كان بعيدا..

وبها نختم ما بدأناه وسعينا نحوه وقصدناه...

إني سألتك بالله الذي خضعت له
السموات وهو الواحد الباري

إذا تأملت فاستغفر لكاتبه
لعل كاتبه ينجو من النار

أيمن أبو شادي

نسأل الله تعالى أن يشرح صدورنا لما يحب ويرضى،
وأن يرشدنا إلى السبيل الأزكى، لمحبته تعالى
واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم،
وأن يطهر قلوبنا وأبصارنا وأسماعنا عن سواه، فنسمع
من كتابه وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم مراده،
ونخلص له تعالى في النصيحة والشفقة على عباده،
وأن يسددنا نحو الهدى، ويلهمنا التقوى،
فلا نحب ولا نرضى إلا بما يرضى...
وأن يجعلنا دعاة سائرين إليه، ومتوجهين نحوه،
لا توقفنا الرايات عن السبق إلى راية النبوة
والدعوة والسنة،
ولا تنسينا الأصوات صوت سيد المرسلين
كما رويناه بالحديث المسلسل
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
«الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في
الأرض يرحمكم من في السماء»(1).

---

1 - رواه الإمام أحمد وأبو داود في سننه والترمذي في جامعه وقال حسن صحيح والحاكم في مستدركه.

اللهم فانقل أصواتنا رحمة إلى أمة النبي

صلى الله عليه وسلم والناس عامة،

وأقبل نياتنا نصحا وشفقة على العالمين،

كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للناس عامة،

بشيرا ونذيرا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

واغفر لآبائنا وأمهاتنا ومشايخنا وعلمائنا

ومن له حق لازم علينا،

وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات

إنك سبحانك سميع قريب مجيب الدعوات

وامنحنا قربا من الحبيب القريب صلوات الله

وتسليماته عليه وعلى آله وصحبه أجمعين

وبذا ختم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس بإذن الله تعالى

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق لفتاوى ورسائل كبار العلماء في العالم الإسلامي في أهل التبليغ والدعوة

خطاب من الشيخ إبراهيم عبدالرحمن الحصين بالمدينة المنورة

إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله

المؤرخ ٢٧/ ١/ ١٤٠٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين على أمور الدّنيا والدّين.

حضرة صاحب السّماحة شيخنا الجليل الشّيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. ثبته الله في الحياة الدنيا والآخرة وجعله ممن أيد الحق وناصره، آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أما بعد:

فقد اطلعنا على رسالة من سلفكم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية سابقًا رحمه الله رحمةً واسعةً وأسكنه فسيح جناته، موجهة منه إلى علماء الأحساء والمقاطعة الشرقية أرسلها إليهم مع رئيس جماعة التبليغ في المدينة وجماعة من المرافقين له أوصاهم فيها بهم خيرا، وذكر «أن مهمّتهم العظة في المساجد والإرشاد والحثّ على العمل بالكتاب والسنّة مع التحذير من البدع والخرافات من عبادة القبور ودعاء الأموات وغير ذلك من البدع والمنكرات» ثم قال رحمه الله «كتبت عنهم بذلك طلبًا لمساعدتهم من إخوانهم بالتمكين لهم من ذلك سائلا الله تعالى إن يرزقهم حسن النّية والتوفيق للنطق بالحقّ والسّلامة من الزلل وأن ينفع بإرشادهم وبيانهم، إنه على كل شيء قدير»انتهى.

كما اطلعنا على رسائل كثيرة من سماحتكم نهجتم فيها أثابكم الله منهجه من تأييد الجماعة المذكورة والتنويه بفضلهم وجهودهم وتحمّلهم المشاق في سبيل الدعوة إلى الله احتسابا وما هدى الله بسببهم من منحرف، وأسلم على أيديهم من كافر مع الإهابة بمشاركتهم في الخروج معهم للدعوة إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولاسيما طلبة العلم لأن في مشاركتهم لهم من الخير ما لا يعلمه إلا الله، كما اطلعنا على رسائل من ولاة الأمور يؤيدونهم فيها جزاهم الله عن نصرتهم لهم أفضل ما يجزي به محسنا عن إحسانه. فأولها من جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وأكرم مثواه، وآخرها موجهة لكم من جلالة الملك فهد حفظه الله قال فيها عن الجماعة المذكورة؛ «إنها ليس لها أهداف سياسية أو مطمع مادي وإنما تمول نفسها بنفسها في سبيل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويسافر منها أناس إلى

كافة أقطار الدنيا لإرشاد الناس، وكل شخص يـهديه الله على أيديهم يطلبون منه أن يكون داعيه» ثم حض حفظه الله على مساعدتهم، كما اطلعنا على كتابات كثيرة من علماء مـحققين متضـلّعين في علوم التّوحـيد وعقيدتهـم فيه راسخة بحـمد الله من المدرّسين بالجامعة الإسلامية بالمدينة وغيرهم من العلماء داخل المملكة وخارجها يثنون عليهم فيـها، وينوهون بفضلهم، ويـشيدون بما رأوا لهم من الآثار الحسنـة العجيبة، حيث أنـهم صاحبوهم فـي الحضر والسفر، بـل أن المخالفين لهم فـي بعض الآراء يعترفون بفضائلهم وتأثيرهم على المنحرفين حتى يهديهم الله على أيديهم، فقد قال: محمد أسلـم غفر الله لنا وله في رسالتـه المشهورة لما ذكر طرفًا صالحًا من فـضائلهم «أنه لم يـعرف الإسلام إلا عن طريـقهم». وفي هذه الأيام لـعب الشيطـان والهوى ببعض الأفراد في المدينة هداهم الله فشنّوا الغـارة عليهم وصرفوا جهودهم وأوقاتهم في مشاغبـتهم وسبّهم والتحذير مـنهم، والتشويش علـيهم حتى بلغنا أنـهم اتصلوا ببـعض شباب هـداهم الله على أيـدي الجماعة وصـاروا يحافظـون على الصـلوات ويتمسكون بالسنن. فقالوا لهم: إن بقاءكم على حالكم السابقة من الفجور خير لكم من تأثركم بهذه الجماعة، فانتكس بعضهم بسببهم والعياذ بالله.

وقد أرجف بعضهم في المدينة هذه الأيام بأن سماحتكم قد رجع عن رأيه السابق فيهم، لما سبّوهـم عندكم، فلم نصدّق ذلك لكـثرة ما قرأنا وسمعنا منـكم مما ذكرنا سابقًا.

ولما منحـكم الله ومن به عليكـم من البصيرة الـنافذة وبعد النظـر وسعة الاطلاع والتأني والحكمة، والحرص على تحصيل المصالـح ودفع المضار، لهذا كله فإنا نستبعد ما نسبوا إليكم وأشاعوا عنكم فنرجوا الإفادة عن رأيكم فيهم حتى يكون الناس على بصيرة بهم، أثابكم الله وقطع بكم دابر الفتنة والفساد إنه سميع قريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أبناؤك من طلبة العلم بالمدينة

عنهم إبراهيم عبدالرحمن الحصين

خطاب من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى

إلى الشيخ/ إبراهيم عبدالرحمن الحصين حفظه الله تعالى بالمدينة المنورة

المؤرخ ٢٧/١/١٤٠٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته: وبعد:

فأخبركم أنـي لازلت على رأيي في الجماعة المذكـورة فيما كتبته عنهـم قديمًا وحديثًا من الكتابات الكثيـرة وما كتبه سلفي الشيخ محمد بن إبراهـيم آل الشيخ قدس الله روحه ونور ضريحه وما كتبه غيـرنا من العلماء. وأيّده جلالة الملك عبدالعـزيز رحمه الله وجلالة الملك فهد وفـقه الله فيما كـتبه إليّ، لأنهـم قد نفع الله بهـم نفعًا كبيـرًا وهدى بهم جمًا غـفيرًا فالواجب شكرهم على عمـلهم وتشجيعهم وتنبيههم على ما قـد يخفي عليهم، وذلك من باب التعاون علـى البر والتقوى والتناصح بين المـسلمين إلا أني أنصحهم وجميع المسلمين لاسيما الشباب أن لا يسافر منهم إلى بلاد الـكفار إلا أهل العلم والبصيرة، لما في ذلك من الخطر العظيم على كل من ليس له علم الشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة التي بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ودرج عليها سلف الأمة، أما ما نسبه المعارضون لهم عنّي من الرجوع عن رأيي فيهم فهو كذب عليّ، بل أني نـصحتهم ووبّختهم على عملهم وقلت لهم فيما قلت متمثلاً بقول الشاعر:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمو من اللوم ... أو سـدّوا المكـان الـذي سدوا

وحرضتهم على كثرة الاجتماع بهم والخروج مـعهم، وأوضحت لهم ما فيه من الفوائد، وطلبت منهم أن يتهموا الرأي وينـظروا في العواقب، وبيّنت لهم ما في انشقاقهم وخلافهم من الشر العظيم وسوء العواقب في الدنـيا والآخرة، وأن ذلك من الشيطان، أعاذنا الله منه ليصرف الناس عن الدعوة إلى الله ويشغلهم عنها بفساد ذات البين وكثرة القيل والقال.

هذا ما أدين الله به وأعـتقده وأسأل الله أن يرينا الحق حقـا ويمنحنا الثبات علـيه والباطل باطلا ويمنّ علينا باجتنابه ولا يجعله ملتبسا علينا فنضلّ، إنه وليي في ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الذي بعثـه رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

٢٧/١/١٤٠٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على أمور الدنيا والدين

حضرة صاحب السماحة شيخنا الجليل الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد [illegible] وجعله ممن أيد الحق ونا صره، آمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أما بعد فقد اطلعنا على رسالة من سلفكم سماحة الشيخ [illegible] آل الشيخ مفتي الديار السعودية سابقاً رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته موجهة منه إلى علماء الأحساء [illegible] أرسلها إليهم مع رئيس جماعة التبليغ في المدينة وجماعة من المرافقين له أوصاهم فيها بهم خيرا، وذكر أن مهمتهم العظة في المساجد والإرشاد والحث على العمل بالكتاب والسنة والتحذير من البدع والخرافات من عبادة القبور ودعاء الأموات وغير ذلك من البدع والمنكرات ثم قال رحمه الله كتبت عنهم بذلك طلبا لمساعدتهم من إخوانهم [illegible] لهم من ذلك سائلا الله تعالى أن يرزقهم حسن النية والتوفيق والسلامة من الزلل وأن ينفع بإرشادهم وبيانهم إنه على كل شيء قدير. انتهى. كما اطلعنا على رسائل كثيرة من سماحتكم نهجتم فيها [illegible] منهجه من تأييد الجماعة المذكورة والتنويه بفضلهم وجهودهم وتحملهم المشاق في سبيل الدعوة إلى الله احتسابا [illegible] الله بسببهم من منحرف [illegible] على أيديهم [illegible] ولا سيما طلبة العلم لأن في مشاركتهم لهم من الخير ما لا يعلمه إلا الله. كما اطلعنا على رسائل من ولاة الأمور [illegible] أفضل ما يجزي به [illegible] وآخرها من جلالة الملك [illegible] قال فيها عن جماعة [illegible] إنها ليس لها أهداف سياسية أو مطامع مادية وإنما تحمل نفسها [illegible] في سبيل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة [illegible] إلى كافة أقطار الدنيا لإرشاد الناس [illegible] كما اطلعنا على كتابات كثيرة من علماء [illegible] في علوم التوحيد والعقيدة [illegible] داخل المملكة وخارجها يشيدون [illegible] ويشيدون بما رأوا لهم من الآثار الحسنة العجيبة [illegible] إنه لم يعرف الإسلام [illegible]

[illegible] الشيطان [illegible] فشنوا الغارة عليهم وصرفوا جهودهم وأوقاتهم في [illegible] والتشويه عليهم حتى بلغنا أنهم اتصلوا ببعض شباب [illegible] قالوا لهم إن [illegible] فانتكس بعضهم بسببهم والعياذ بالله. وقد أرجف بعضهم [illegible] هذه الأيام بأن سماحتكم قد رجع عن رأيه السابق فيهم [illegible] ما ذكرنا سابقا [illegible] من البصيرة النافذة وبعد النظر وسعة الاطلاع والتأني والحكمة والحرص على تحصيل المصالح ودفع المضار، [illegible] فإنا نستبعد ما نسبوا إليكم وأشاعوا عنكم فنرجو الإفادة عن رأيكم فيهم حتى يكون الناس على بصيرة [illegible] [illegible] وقطع بكم دابر الفتنة والفساد إنه سميع قريب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. [illegible] من طلبة العلم بالمدينة [illegible] عبدالرحمن الحصين

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. أما بعد .. فأخبركم أني لا زلت على رأيي في الجماعة المذكورة فيما كتبته عنهم قديما وحديثا من الكتابات الكثيرة وما كتبه سلفي شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ قدس الله روحه ونور ضريحه وما كتبه غيرنا من العلماء وأيده جلالة الملك فيصل رحمه الله وجلالة الملك فهد وفقه الله فيما كتبته إلى أنهم قد نفع الله بهم نفعا كبيرا وهدى بهم جما غفيرا فالواجب شكرهم على عملهم وتشجيعهم ونصيحتهم على ما قد يخفى عليهم وذلك من باب التعاون على البر والتقوى والتناصح بين المسلمين إلا أني أنصحهم وجميع المسلمين لا سيما الشباب بأن لا يسافروا إلى بلاد الكفار إلا أهل العلم والبصيرة لما في ذلك من الخطر العظيم على كل من ليس لديه علم بالشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة التي بعث الله بها نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ودرج عليها سلفنا الأخيار أما ما نسب إلى المعارضين لهم عني من الرجوع عن رأيي فيهم فهو كذب علي بل إني نصحتهم وحثثتهم على عملهم وتحملهم فيها قلت مثلا بقول الشاعر:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

وحرضتهم على كثرة الاجتماع بينهم والشيوخ معهم وأوضحت لهم ما فيه من الفوائد وطلبت منهم أن يتبعوا الرأي وينظروا في العواقب وبينت لهم ما في اشتغالهم وعلاقتهم من الشر العظيم ومن الصواب في الدنيا والآخرة وأن ذلك من الشيطان .. أما ذلك فيه صرف الناس عن الدعوة إلى الله ويشغلهم عما يفسد ذات البين وكثرة القيل والقال هذا ما أدين الله به وأعتقده وأسأل الله أن يرينا الحق حقا ويمنحنا اتباعه والباطل باطلا ويمن علينا باجتنابه ولا يجعله ملتبسا علينا فنضل إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الذي بعثه رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

٢٧/١/١٤٠٧هـ

صورة خطاب من الشيخ إبراهيم عبدالرحمن الحصين إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله

صورة خطاب سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله إلى الشيخ إبراهيم عبدالرحمن الحصين حفظه الله

من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى
إلى فضيلة الشيخ سعد بن عبدالرحمن الحصين حفظه الله تعالى
برقم ٤١٤/خ المؤرخ: ١١/ ٤/ ١٤٠٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز إلى حضرة الأخ المكرم فضيلة الشيخ سعد بن عبدالرحمن الحصين ووفقه الله لكلمة الحق في الغضب والرضا، وأعاذنا وإياه من شرور النّفس والهوى آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد:

فقد وصلني كتابك المؤرخ ٣/ ٣/ ١٤٠٨هـ ومشفوعاته، كتابك لفضيلة الشيخ أبي بكر الجزائري وفضيلة الشيخ يوسف الملاحي، وما أرفقت بهما، واطلعت عليها كلها.

ولا أكتمك سرًا إذا قلت إني لم أرتح لها ولم ينشرح لها صدري، لأن هذه الطريقة التي سلكت لا تفيد الدّعوة شيئا، لأنها تهدم ولا تبني وتفسد ولا تصلح، وضرّها أقرب من نفعها، ولم يعد ضررها إلا على الدّعوة وعلى إخوانك في الله من خيرة المشايخ وطلبة العلم نشأوا على التّوحيد والعقيدة الصّحيحة علمًا وتعليمًا ودعوة وإرشادا وقد استغلها من لا بصيرة له في مناصبتهم العداء وتكفير بعضهم لهم، وإستباحة بعضهم لدمائهم، والعياذ بالله! مع الوشاية بهم واستعداء المسئولين عليهم، وتهويل أمرهم عندهم وتخويفهم منهم ورميهم بالعظائم، وإلصاق التّهم بهم مماهم براء منه، حتى حصل على الدّعوة والدّعاة من الضرر ما الله به عليم، أما من أقمتم الدنيا وأقعدتموها من أجلهم فينطبق عليكم قول الشاعر.

وناطح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرّها وأوهى قرنه الوعل

لكونهم بمنأى عنكم في بلادهم سائرين في دعوتهم في حماية من دولتهم لاحترامها لهم، لأنك ذكرت في بعض كتابتك لنا أن رئيس الحكومة يحضر اجتماعاتهم ويشجعهم. كما ذكر لنا هذه الأيام بعض أبنائنا المتخرجين من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ممن شاركهم في الدّعوة سنين طويلة، أن مركزهم في رائيوند مفتوح ٢٤ ساعة وجماعات تخرج في سبيل الله، وجماعات ترجع، فما دام الأمر هكذا فلن تخضعهم كتاباتك وكتابات أمثالك المشتملة على الفظاظة والغلظة والسبّ والشتّم بل أن هذه الكتابات ستكون سببا في نفرتهم من الحق وبعدهم عنه، لقول الله سبحانه لنبيه محمد رسول الله ﷺ الذي أدبّه ربه فأحسن تأديبه:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

وقول النبي ﷺ: «**إن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله**» «**وإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**» «**وإن الله يُعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ولا على ما سواه**».

والله سبحانه وتعالى نهى عن سبّ الكفار إذا كان يفضي إلى سبّ الله، فكيف بسبّ المسلمين إذا كان يفضي إلى تنفيرهم من الحق وبعدهم عنه وعن الداعين إليه؟

فالواجب أن تسعوا في الإصلاح، لا في الإفساد وأن تخالطوهم وتنبّهوهم على ما قد يقع من بعضهم من الخطأ بالرفق واللين، لا بالعنف والقسوة، أما تشديدك في إنكار البيعة على التوبة فقد اقترحت على قادتهم لما اجتمعت بهم في موسم الحج الماضي بمكة، وحصل بيني وبينهم من التّفاهم ما نرجو فيه الفائدة، أن يكون عهداً بدل بيعة، فقبلوا ذلك ولعلهم تعلّقوا بما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الجزء ٢٨ ص٢١ من الفتاوى من عدم إنكار ذلك. وكذلك تشديدك النكير عليهم في إبقائهم أحد الدعاة في المسجد للدعاء لهم، ولعلّ قصدهم الاقتداء بالنبي ﷺ حين بقي في العريش يوم بدر مع الصديق يناشد ربّه النصر حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردّه الصدّيق وقال: يا رسول الله! «**كفاك مناشدتك ربّك، فإن الله سينجز لك ما وعدك**».

وقد تمنّيت أنك قبلت نصيحتي المتكررة لك، وما أشرت به عليك سابقا ولاحقا في كتبي المرفق بعضها مع بعض صور، مما صدر منك في الموضوع لأني كتبتها عن بصيرة وتأني ونظر في العواقب وموازنة بين جلب المصالح ودفع المضار، وخبرة تامة بهم لتكرار اجتماعي بهم في مكة والمدينة والرياض مع ما استفدته من ثقات المشائخ الذين سافروا إليهم وحضروا إجتماعاتهم، واطلعوا عليها من كثب وأعجبوا بها، وكنت نصحت به محمود إستانبولي لما تهجم عليهم على غير بصيرة كحال أكثر من شن عليهم الغارة في هذا الوقت بدافع الجهل والهوى، نعوذ بالله من ذلك، وقد قلت في رسالتك المذكورة لمحمود:

«وصلتني رسالة منك حول جماعة التبليغ ويؤسفني أن ينهج أحد الدّعاة إلى الله هذا المنهج المخالف، لشرع الله في سبّ أقرانه في الدّعوة إلى الله وشتمهم وتضليلهم واتهامهم بتنفيذ مخططات أعداء الله في الكيد للإسلام والمسلمين، كلّ ما في الأمر أن جماعة التّبليغ نهجت في الدعوة إلى الله منهجا، أخطأت (فيما نرى) في بعض جوانب منه، ونرى من الواجب أن تنبههم على هذا الخطأ، كما نرى من الواجب الاعتراف بما في منهجهم من صواب، وليت أخي! يخرج معهم ليتعلّم منهم اللّين بدل القسوة، والدّعاء للمسلمين بدل الدعاء عليهم، والجدل بالتي هي أحسن بدل الجهر بالسوء، وكلّنا محتاج لتفقد نفسه وتصحيح منهجه والرّجوع إلى الله وإلى سنة رسوله في طاعة الله والدعوة إليه». انتهى كتابك بحروفه.

وقد كتبته بعد اختلافك معهم في الرأي ولكن الله أنطقك بالحق فالحمد لله على ذلك. وإليك رسالتك المذكورة مع شكرنا لك عليها برفقه، وربما اغترّ بكتاباتك القاسية ثقة بك، من لم يخالطهم في عمره ولم يخرج معهم ولم يعرف عنهم شيئا إلا من كلامك فيكون عليك وزرك ومثل أوزار من إنخدع بما كتبت إلى يوم القيامة. فاتهم الرأي يا بني! وأعلم أن الله عند لسان كل قائل وقلبه، وأن الله سيحاسب الإنسان عما يلفظ به أو يعمله، وإلجأ إلى ربك واضرع إليه أن لا يجعلك سببا في الصدّ عن سبيله وأذيّة المسلمين.

وأسأل الله عز وجل أن يشرح صدرك لما هو الأحبّ إليه والأنفع لعباده وأن يختم لي ولك بالخاتمة الحسنة أنه جوّاد كريم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
مكتب الرئيس

الرقم: [illegible]
التاريخ: ١٤٠٨/٤/١١
المرفقات: [illegible]
الموضوع

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة الأخ المكرم فضيلة الشيخ سعد بن عبد الرحمن الحصين وفقه الله لكلمة الحق في الغضب والرضا، وأعاذنا وإياه من شرور النفس والهوى آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فقد وصلني كتابك المؤرخ ١٤٠٨/٣/٣ ومشفوعاته كتابك لفضيلة الشيخ أبي بكر الجزائري وفضيلة الشيخ يوسف الملاحي وما ارفقت بهما واطلعت عليها كلها، ولا أكتمك سرا إذا قلت اني لم أرتح لها ولم ينشرح لها صدري لأنّ هذه الطريقة التي سلكت لا تفيد الدعوة شيئا لأنها تهدم ولا تبني وتفسد ولا تصلح وضررها أقرب من نفعها، ولم يعد ضررها الا على الدعوة وعلى اخوانك في الله من خيرة المشايخ وطلبة العلم نشأوا على التوحيد والعقيدة الصحيحة علما وتعليما ودعوة وارشادا، وقد استغلها من لا بصيرة له في مناصبتهم العداء وتكثير بعضهم لهم واستباحة بعضهم لدمائهم والعياذ بالله مع الوشاية بهم واستعداء المسؤولين عليهم وتجهيل امرهم عند هم وتخويفهم منهم ورميهم بالعظائم والصاق التهم بهم ساحتهم بريئة منه حتى حصل على الدعوة والدعاة من الضرر ما الله به عليم،

أما أنتم الدنيا والعمتوها من اجلهم فينطبق عليكم قول الشاعر.

وناطح صخرة يوما ليوهنها ، فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل،

لكونهم بمنأى عنكم في بلاد هم سائرين في دعوتهم في حماية من دولتهم لاحترامها لهم لا تك ذكرت في بعض كتاباتك لنا ان رئيس الحكومة يحضر اجتماعاتهم ويشجعهم كما ذكر لنا هذه الأيام بعض ابنائنا المتخرجين من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ممن شاركهم في الدعوة سنين طويلة ان مركزهم في راوندي مفتوح ٢٤ ساعة وجماعات تخرج في سبيل الله وجماعات ترجع فما دام الأمر هكذا فلن تضرهم كتاباتك وكتابات امثالك المشتملة على الفظاظة والغلظة والسب والشتم بل ان هذه الكتابات ستكون سببا في نفرتهم من الحق وبعدهم عنه لقول الله سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي ادبه ربه فأحسن تأديبه ((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)) وقول النبي صلى الله عليه وسلم ((ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله)) وان الرفق لا يكون في شيء الا زانه ولا ينزع من شيء الا شانه)) ((وان الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ولا على ما سواه)) . والله سبحانه وتعالى نهى عن سب الكفار اذا كان يفضي الى سب الله

صورة خطاب سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله إلى فضيلة الشيخ سعد بن عبدالرحمن الحصين حفظه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد
مكتب الرئيس

الرقم :
التاريخ :
المرفقات :

الموضوع

فكيف بسب المسلمين اذا كان يفضي الى تنفيرهم من الحق وبعدهم عنه ومن الله العون الـــــه
فالواجب أن تسعوا في الاصلاح لا في الافساد وان تخالطوهم وتنبهوهم على ما قد يقع من بعضهم
من الخطأ بالرفق واللين لا بالعنف والقسوه اما تشددهم في انكار البدعه على التيه فقد اقترحت
على قادتهم لما اجتمعت بهم في موسم الحج الماضي بمكه وحصل بيني وبينهم من التفاهم ما نرجو
فيه الفائده ان يكون جهد ابدل بدعه فقبلوا ذلك ولعلهم تعلقوا بما قرره شيخ الاسلام ابن تيميه
رحمه الله في الجزء ٢٨ ص ٢١٠ من الفتاوى من عدم انكار ذلك ..
وكذلك تشدد بعد التكير عليهم في ابقائهم اخر الدعاة في المسجد للدعاء لهم ولعل قصدهم
الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حين بقي في العريش يوم بدر مع الصديق يناشد ربه
النصر حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده الصديق وقال يا رسول الله بعض مناشدتك ربك
فان الله منجز لك ما وعدك ولا يوجب هذا العمل هذا التشنيع الفظيع هدانا الله واياك وقد تضمنت
الله قبلت نصيحتي المذكوره لك وما اشرت به عليك سابقا ولاحقا في كتبي المرفق بعضها مع بعض
صور مساجد رسلك في الموضوع لاني كتبتها عن بصيرة وتأني ونظر في العواقب وموازنة بين جلب
المصالح ودفع المضار وخبرة تامة بهم لتكرر اجتماعي بهم في مكه والمدينه والرياض مع ما استفدته
من ثقات المشايخ الذين سافروا اليهم وحضروا اجتماعاتهم واطلعوا عليها عن كثب واعجبوا بها .
وكنت نصحتك بما نصحت به محمود استانبولي لما تهجم عليهم على غير بصيره كحال الكثير ممن تهجم عليهم
الغاره في هذا الوقت بدافع الجهل والهوى نعوذ بالله من ذلك وقد قلت في رسالتك المذكوره لمحمود
« وصلتني رسالة منك حول جماعة التبليغ يسوءني أن ينهج احد الدعاة الى الله هذا النهج المخالف
لشرع الله في سباقرانه في الدعوة الى الله وشتمهم وتضليلهم واتهامهم بتنفيذ مخططات اعداء الله
في الكيد للاسلام والمسلمين . كل ما في الامر ان جماعة التبليغ نهجت في الدعوة الى الله منهجا
اخطأت في فيما نرى في بعض جوانب منه ونرى من الواجب ان ننبههم على هذا الخطأ . كما
نرى من الواجب الاعتراف بما في منهجهم من صواب وليت اخي يخرج معهم ليتعلم منهم اللين بدل
القسوه والدعاء للمسلمين بدل الدعاء عليهم والجدل بالتي هي احسن بدل الجهر بالسوء وكلنا
محتاج ليتفقد نفسه وتصحيح منهجه والرجوع الى الله والى سنة رسوله في طاعة الله والدعوة اليه »

صورة خطاب سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله
إلى الشيخ فضيلة الشيخ سعد بن عبدالرحمن الحصين حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
مكتب الرئيس

الرقم :
التاريخ :
المرفقات :

الموضوع

ص - ٣ -

انتهى كتابك بحروفه وقد كتبته بعد اختلافك معهم في الرأي ولكن الله انطقك بالحق فالحمد لله على ذلك . واليك رسالتك المذكورة مع شكرنا لك عليها برفقه .
وربما اغتر بكتاباتك القاسية - ثقة بك - من لم يخالطهم في عمره ولم يخرج معهم ولم يعرف عنهم شيئا الا من كلامك فيكون عليك وزرك ومثل اوزار من انخدع بما كتبت الى يوم القيامة .
فاتهم الرأي يابني واعلم ان الله عند لسان كل قائل وقلبه وان الله سيحاسب الانسان عما يلفظ به او يعمله ، والجأ الى ربك واضرع اليه ان لا يجعلك سببا في الصد عن سبيله وأذية المسلمين .
واسأل الله عز وجل ان يشرح صدرك لما هو الأحب اليه والانفع لعباده وان يختم لي ولك بالخاتمة الحسنة انه جواد كريم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الرئيس العام
لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد



صورة خطاب سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله
إلى الشيخ فضيلة الشيخ سعد بن عبدالرحمن الحصين حفظه الله

فضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين السيد صالح
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
وعميد كلية أصول الدين
بجامعة الأزهر بالزقازيق سابقًا

حيث تكلم عن أثر عمل الدعوة والتبليغ في كتابه «الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية»

فقال حفظه الله تعالى ص٣٧١:

«ومن هنا نقول: إن هذه الجماعة تسد فراغًا كبيرًا، وتقف على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام، فاتركوها تتحرك، ولا تشوشوا عليها بالشبهات والأباطيل، وإن كانت هناك أخطاء فانصحوا قادتها، وأتباعها ونبهوهم، وأعتقد أنهم يتقبلون النصح.

ـ وأما تأثيرها على مستوى العالم الخارجي فهو تأثير بالغ فعن طريقها انتشر الإسلام بين العمال المسلمين الذين كانوا قد انسلخوا عن دينهم، فبنيت المساجد، وأقيمت الصلاة وظهر الزي الإسلامي، ودخل العديد من النصارى في الإسلام الأمر الذي ما كان يتم إلا بفتح إسلامي قوامه السلاح والقتال.

لقد مضت عشرات السنين والمسلم لا يستطيع أن يظهر إسلامه في أوروبا وأمريكا، وكان أكثرُ العمال سكيرين تاركين للصلاة، متغربين خلقًا وسلوكًا، حتى وصلت هذه الجماعة إلى هناك في صمت ويسر فوجد الإسلام طريقه في أوروبا وأمريكا[1]، بل تحولت بفضل الله بعض الكنائس إلى مساجد في فرنسا، حيث اشتراها العمال المسلمون بأموالهم وجعلوها مساجد.

---

١ ـ راجع رد الشيخ أبو بكر الجزائري على منتقدي الجماعة ص١١٠ ملحق بكتاب نظرة علمية في أهل التبليغ.

ومعظم هؤلاء الذين أسلموا من النصارى لم يكن إسلامهم عن طريق الكتب والمحاضرات، والندوات أو أي جماعة إسلامية أخرى من الجماعات المنتشرة، أو أي هيئة من الهيئات الرسمية للدعوة مثل المراكز الإسلامية، وما أكثرها، ووزارات الأوقاف **ولكنهم عرفوا الإسلام من خلال جماعة التبليغ الذين يذهبون إلى هناك على نفقتهم الخاصة، ويحملون أمتعتهم على ظهورهم، لم يذهبوا إلى هناك من أجل البحث عن عمل، ولا من أجل الحصول على الإقامة أو من أجل النزهة والسياحة، كما هي الأغراض الدنيوية التي تحرك كل من يذهب إلى أوروبا وأمريكا، ذهبوا لا لكي يأخذوا، وإنما لكي يعطوا، ويحملون الخير للناس ويرجون لهم الهداية، وهذا ما استلفت أنظار الأوروبيين.**

تلك هي أهم آثار الجماعة ونتائجها التي تحمد عليها، ومع ذلك وطبقًا لمنهج الموضوعية والأمانة العلمية، لابد من الحديث عن السلبيات، وهذا شأن أي عمل بشرى.

ملاحظات على الجماعة:

وأهم ما يمكن توجيهه من ملاحظات، **وليس بالضرورة أن تكون هي ملاحظاتي الخاصة،** بل ربما تكون ملاحظات وجهها آخرون من قبلي؛ ولكن للأمانة لابد من عرضها حتى نقومها تقويمًا موضوعيًا، ومنها:

١ - الاعتماد في منهج الجماعة على إصلاح الفرد من زاوية خاصة، وهي الزاوية الروحية، دون التركيز على التربية الشاملة التي تتناول التربية العقلية، عن طريق العلم الشامل بالإسلام. وقد أدى هذا المنهج إلى انتشار الجهل بين قطاع كبير من منسوبي هذه الجماعة

وخصوصًا طبقة العوام والأميين، لأن الواحد من هؤلاء يدخل إلى الجماعة وهو لا يعرف عن الإسلام شيئًا، فيتلقى عن شيوخ الجماعة أن الإسلام هو العبادات والأخلاق، ولا يعرف عن الجوانب التشريعية في الإسلام شيء، وهو بدوره ينقل ما تعلمه للآخرين وهكذا ندور في سلسلة مفرغة من الجهل بحقيقة الإسلام، **(وإن كانت دراسة بعض الحالات سوف تثبت عكس ذلك)**، ولقد ناقشت بعض أمراء الجماعة في هذا الأمر، وللإنصاف سمعت إجابات مختلفة: فالشيخ فريد العراقي أمير الجماعة في مصر: رد بأن النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي لا شأن لنا به؛ لأن هذا هو الغطاء النهائي الذي سينزله الله علينا ويحققه لنا، بعد أن نتربى على العقيدة ونلتزم بالشعائر واستشهد بقول الله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦] فنحن نهيئ المجتمع لهذا؛ ولكن لا شأن لنا بالنواحي التشريعية كانت هذه هي إجابات الشيخ فريد العراقي في داخل الحرم المكي حين اعتكفت العشر الأواخر من رمضان، وجاء اعتكافي مصادفة مع الجماعة.

ووجهت نفس السؤال إلى أحد الأمراء النشطين، فقال: إننا لا ندعى أننا علماء، ولا نعلم الناس كل شيء عن الإسلام، ولكننا فقط نضع أرجل الناس على بداية الطريق، ثم نقول لهم بعد ذلك إذا أردتم العلم فاتجهوا إلى العلماء.

وهذا كلام جيد؛ ولكن منهج الجماعة نفسها لا يسمح بذلك، فمن محرمات الجماعة عدم الخوض في الخلافات الفقهية أو المسائل السياسية، كما أنني أعتقد أن العضو لن يتلقى العلم إلا عن شيوخه، ولن يتعلم على يد عالم لا ينتمي إلى فكر الجماعة.

ومن هنا أستطيع القول إن طريقة الجماعة هي وسيلة من وسائل العمل للإسلام، ولكنها ليست الإسلام كله.

ـ ومن الباحـثين من لاحظ بعض الأخطـاء السلوكية عـلى بعض أتباعها من حيث تحري الحلال والحرام وغير ذلك.

وأقول إن هذه صفة عـامة في كل الجماعات، فكل جمـاعة فيها الملتزم، وفيها المقصر، فيها غثاء الـسيل، وفيها ما ينفع الناس، وليس من العدل أن نحكم على جماعة بهذا الحجم الكبير من خلال الحكم على سلوك فرد أو حتى مجموعة أفراد.

ـ ومنهم من أخذ عـليهم أنهم ينكرون الجهـاد، ولا يدعون إليه، وأنهم حرضوا أتباعهم على عدم المشاركة مع الأفغان في جهادهم.

والحقيقة أنهم لا ينكرون الجهاد، فهم يجاهدون بالكلمة وبالأموال وبالدعوة؛ ولكنهم لا يدعون إلى القتال، لأن هذا ليس من منهجهم، **وما ظهر بعـد ذلك، حيث كان المجاهدون الأفغان، يـجاهدون من أجل أهداف أمريكا في المنطقة، كشف عن بـعد نظر قادة الجماعة حين منعوا أتباعهم من المشاركة في هذه الحروب.**

يقـول الشيـخ أبو بكـر الجزائري دفـاعًا عن الجمـاعة: «**فالذين يتبجحون بالـدعوة إلى الجهاد، ويؤذون القاعدين عن ذلك فـليخبرونا كم غزوة غـزوها، وكم بلـد من البلاد حـررها، وأقاموا فـيه شرع الله حتى يصـح أن يقال: إن جماعة التبـليغ قاعدون عن الجهاد ومـثبطون عنه**»[1].

ونقول: وما فعـلت جماعات الجهاد في مصر والجـزائر وغيرها، اللهم إلا مزيد مـن الخسارة للمسلمين من الطـرفين، وإعدام واعتقال شباب الإسـلام، وسيلان دماء رجـال الشرطة وكـلها خسـارة فادحة أصابت الأمة.

---

١ ـ المرجع السابق ص١١٤.

- وليس صحيحًا ما ادعاه بعضهم من أن جماعة التبليغ مقصرة في دعوة التوحيد، فمن المعروف عن هذه الجماعة أن اليقين على الله والتوكل عليه وحده هو من أول اهتمامهم، وكل ما في الأمر أن الناس لا يدخلون في تشقيقات العلماء، وتقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية وصفات أو توحيد الذات والصفات والأفعال؛ **لأن هذا الجدل لم يكن له وجود في عصر رسول الله ﷺ.**

- ومنهم من زعم أن أهل الحل والعقد في الأمة - وهو يقصد متنطعي السلفية في المملكة السعودية - قد أنكروا عليهم منهجهم[1] وهذا زعم باطل، **لأن الذين أنكروا عليهم كانوا من شواذ السلفيين، وأما علماء السلف وأئمته المعاصرون فقد مدحوهم، وأثنوا عليهم، وفي هذا الصدد أحيل إلى فتوى الشيخ عبدالعزيز بن باز وعدد آخر من علماء السلف الذين أنصفوا الجماعة وردوا على المخالفين**[2].

ومع هذه الملاحظات فأنا شخصيًا أومن بأن هذه الجماعة فيها خير كثير للإسلام والمسلمين، ويكفي إخلاص أعضائها وتضحياتهم بأوقاتهم، وأموالهم، في سبيل الدعوة.

كما أنني أسجل إعجابي بمنهج الحركة عند الجماعة، فهي تضع خريطة العالم بين ناظريها، وترسل جماعاتها إلى مختلف أنحاء العالم بتنسيق عجيب، بحيث إننا لا نجد دولة أو قطرًا في العالم من إفريقيا إلى أوروبا إلى آسيا وأمريكا، تخلو من خلية عاملة لهذه الجماعة.

---

١ - راجع ص٤٠٧ من كتاب الجماعة والجماعات.

٢ - راجع ص٩٩ وما بعدها من كتاب «نظرة علمية في جماعة التبليغ» في هذا الكتاب ملحق به عدد كبير من الفتاوى التي أصدرها كبار العلماء، ودافعوا فيها عن منهج الجماعة.

وأخيراً فإن الحركة هي عمل بشري واجتهاد إنساني، ولا يخلو أي عمل بشري من الخطأ، ولكن المهم هو الاستعداد للمراجعة وقبول النصح، وعلينا دائما ونحن نُقوم هذه الجماعات الكبرى أن نوازن بين الحسنات والسيئات، وبين المنافع والمضار ولاشك أن حسنات الجماعة وفضائلها أعظم وأكبر بكثير مما أخذ عليها، وقد قمت بدراسات حالة بعض أعضاء الجماعة من نصارى أوروبا وأمريكا، وإتمامًا للفائدة أذكر بعض هذه الحالات.

الحالة الأولى:

مسلم أمريكي.. اسمه الشيخ عبدالبديع، سألته عن اسمه الحقيقي قبل إسلامه، قال لا أحب أن أتذكره، لقد دفنته بعد إسلامي، سألته عن أسباب دخوله في الإسلام.

فقال هناك عدة أسباب:

أولها: أن الله أراد لي الهداية.

والثاني: هي الظروف الاجتماعية التي كنت أعيشها، فأنا من أسرة مخلطة: أمي أمريكية بيضاء، وأبي هندي ملون، فكنا نعاني من التفرقة العنصرية، فكنت أسأل نفسي لماذا هذا التفريق بين الناس على أساس الجنس واللون ما دام أبونا واحد هو آدم.

والثالث: شكي في العقيدة المسيحية، كنت كثير السؤال عن التثليث، وكيف يكون الثلاثة واحدًا، وكان القسيس يعطيني الإجابة التي يعطيها لكل الناس، صدّق واعتقد، فقلت له أنا لا أصدق ولا أعتقد فطردني من الكنيسة، ولم أدخل في أي دين آخر درست الفن وكنت فنانًا كبيراً، وصلت في الشهرة إلى درجة العالمية، وكنت أشعر من خلال الفن التنسيق والإبداع والوحدة، فكنت أقول إن هذا العالم قد خلقه إله واحد.

بدأت أبحث عن الحقيقة والصدق والوحدانية، لجأت إلى البوذية، اليوجا، الفلسفة، الموسيقى، ولكنني لم أجد ضالتي.

قرأت كتابًا لكاتب عربي مسلم، وكان يهاجم الإسلام، وأنا أقرأ الكتاب حدثت لي حادثة عجيبة نظرت إلى كلمة معينة، فوجدتها تكبر في عيني، وتفتح قلبي لهذه الكلمة أنا لم أسمع عنها من قبل ظلت الكلمة تكبر وتكبر، إنها كلمة (الله) أنا أقرأ من قبل كلمة (God)، ولكنني لم أقرأ لفظ (الله) من قبل حتى هذه اللحظة، أنا لم أغير نمط حياتي، وإنما واصلت مسيرتي الفنية حتى وصلت إلى درجة الشهرة.

وفي يوم ما تركت العاصمة وذهبت إلى مسقط رأسي فوجدت جماعة من الهند يلبسون لباسًا لم أره من قبل، دعوني إلى الإسلام وأنطقوني الشهادتين وعلموني شعائر الإسلام، وذهبت معهم إلى المسجد، وعرضوا علي الخروج في سبيل الله فوافقت على الفور، ولم ألقِ بالاً لاعتراضات عائلتي التي وقفت ضدي، وذهبت إلى الهند لمدة أربعة أشهر، ظهر التغير في حياتي بعد الخروج، ليس فقط في مظهري ولكن في أسلوب حياتي.. حتى أنني رفضت العودة إلى أمريكا وطلبت أن أظل في الهند، ولكن مجلس شورى الجماعة قال إن أمريكا في حاجة إليك، عدت إلى أمريكا وكنت سببًا في هداية جدتي الهولندية، ثم أبي وأمي، وابتدأت أتحرك بالدعوة في السجون وأماكن التجمع، فكنت سببًا في هداية ألفين من الأمريكان.

ثم قال: لقد اكتشفت أن أفضل طريق للدعوة هو أن المسلم يطبق الإسلام عمليًا على حياته أولاً، بحيث يكون قدوة لغيره، وأن المسلم الذي لا يطبق إسلامه عمليًّا يتسبّب في إلحاق الضرر بالإسلام، فكأنه

واقف على باب يمنع الناس من الدخول رغم حاجتهم إليه.

سألته: هل تعلم أن الإسلام عقيدة وشريعة؟

قال نعم أعرف ذلك جيدًا، ولكني أبحث عن الهدف ووسيلة الوصول إليه كيف تكون دولة الإسلام إن لم أقمها في بيتي أولاً.. إذًا فالدعوة أولاً، ثم الإسلام الكامل الشامل. والعكس غير ممكن.

سألته: هل تعلمت شمولية الإسلام من شيوخ الجماعة، أو من قراءاتك الخاصة؟

قال: تعلمته من قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

الحالة الثانية: مسلم فلبيني الجنسية اسمه مصطفى.

سألته: كيف دخلت الإسلام؟

قال: عن طريق واحد باكستاني من جماعة التبليغ.

سألته: هل تعلمت من الجماعة أن الإسلام نظام شامل؟ قال: أنا أعلم ذلك ولكن بجهدي الخاص وليس من الجماعة، فالجماعة علمتني العبادات.. ولكن هناك للدعوة أصولاً. **فنحن نبدأ أولاً: بالإيمانيات. ثانيًا: العبادات. ثالثًا: المعاملات، وبالمعاملات تصلح المعاشرات.. ثم بعد ذلك تأتي الخلافة حين نكون مؤهلين لذلك.**

حالة ثالثة: مسلم أمريكي التقيت به في أحد المساجد في مدينة العين بدولة الإمارات، ليلة عيد الأضحى سنة ١٩٩٩م، وقد لفت نظري أنْ تَخْرُجَ جماعة في سبيل الله ليلة العيد ويتركون أهلهم وأولادهم في هذا اليوم، وقد طرقوا علي الباب عصر وقفة العيد وأخبروني بأنهم موجودون في المسجد، وأنني إذا رغبت في سماع كلام الدين والإيمان فهم في انتظاري، ذهبت إلى المسجد فوجدت

هذا المسلم الأمريكي يحكي عن قصة دخوله الإسلام عن طريق الجماعة.

فقال: رأيت جماعة من الناس بمظهر غريب يحملون أغراضهم على ظهورهم ويدخلون قريتنا، وهي قرية بعيدة عن المدينة، سألناهم من أنتم ومن أين أتيتم؟ قالوا: نحن من بنجلاديش، ونحن نعلم أنها دولة فقيرة.

لماذا أتيتم إلى أمريكا؟ ونحن نسأل هذا السؤال كنا نظن أنهم جاءوا للبحث عن عمل، أو أنهم يطلبون حاجة مادية، خاصة وأن العالم كله ينظر إلى أمريكا على أنها المثل الأعلى!!

فقالوا: نحن لم نأت لأننا محتاجون إليكم، وإنما جئناكم، لأنكم في حاجة إلينا، جئنا لننقذكم من الهلاك، فضحكنا، وتعجبنا، إن شعب بنجلاديش شعب فقير، فكيف ضحوا بأموالهم ووقتهم حتى جاءوا إلى أمريكا، وأي شيء نحتاجه من هؤلاء المساكين.

لقد لفت هؤلاء الرجال نظري، ثم نصبوا خيمتهم في طريق عام فذهب إليهم قسيس القرية، وراح يراقب تصرفاتهم، وأحوالهم، فأثاروا انتباهه، فطلب منهم أن يأتوا معه إلى الكنيسة، حيث إن الجو شديد البرودة، فطلبوا منه فرصة للتشاور، وجلسوا للمشورة وكان مع الجماعة أحد النصارى الذين أسلموا حديثًا، فرفض بشدة وقال: أنا ما دخلت الإسلام إلا فرارًا من هذا المكان، فكيف تطلبون مني أن أعود إليه مرة ثانية، ثم انتهوا من مشورتهم إلى عدم الموافقة وأبلغوا القسيس بذلك.

وإذا برجال البوليس يحضرون، ويوجهون إليهم نفس الأسئلة من أنتم ولماذا أتيتم؟ وكيف تجلسون في الطريق العام؟ فأجابوا بنفس

الإجابات السابقة، ولكن رجال البوليس لم يقتنعوا، فقاموا بتفتيشهم بحثًا عن أسلحة أو مفرقعات، فوجدوا معهم أكياس عدس وفول، وخبز، وصابون وأغراض شخصية، فتركوهم ونبهوهم إلى أنه لا يحق لهم أن يجلسوا في الطريق العام.

فجاء القسيس وقال لهم: توجد مساحة فضاء بجوار الكنيسة، وهي ملكي فتعالوا وأقيموا فيها خارج الكنيسة، فقبلوا وأقاموا هناك ثلاثة أيام، يسيرون أمور حياتهم بطريقة عجيبة، يوزعون أوقاتهم وجهودهم في اليوم والليلة، ويخدمون أنفسهم. فقال لهم القسيس: إن هذه الأخلاق وهذه التصرفات أقرؤها في الإنجيل، وأدعو أهل القرية إليها ليلاً ونهارًا فلا يسمع مني أحد، فما هو دينكم، فقالوا له الإسلام ودعوه إلى الدخول فيه، فأسلم. . ومن هذه اللحظة أسلمت وخرجت معهم في سبيل الله، وأسلم على يدي رجال كثيرون.

بعد أن انتهى من عرض قصة إسلامه، وجهت إليه نفس السؤال الذي يهمني أن أعرف الإجابة عليه وهو: ماذا تفهم عن الإسلام كنظام شامل؟

فقال: الإسلام نظام كامل، ولا يمكن أن نقتطع جزءًا من الإسلام ونقول: إن هذا هو الإسلام، فالإسلام لا يتم إلا بالعمل بكل ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بنسبة ١٠٠٪.

لقد استنبطت من دراسة هذه الحالات أن أتباع الجماعة حتى وإن لم يتحدثوا في المسائل التشريعية **إلا أنهم يعلمون عنها الكثير**، منهم من يعلمها بجهده الخاص ومن يعلمها من شيوخ الجماعة.

إلا أنهم يضعون للدعوة أولويات تبدأ بإدخال الناس في الإسلام أولاً، ثم تعليمهم العبادات والشعائر، ويؤجلون الحديث في النظم التشريعية والمطالبة بتطبيقها إلى حين يتهيأ المجتمع لذلك.

ـ كما استطعت أن أستنبط مدى العمل العظيم الذي تقوم به هذه الجماعة فهي تنشر الإسلام في كل مكان بجهودها الفردية، وهذا عمل ينبغي أن تقوم به دول العالم الإسلامي وحكام المسلمين، كما تقوم دول الغرب بحركة التبشير التي ترصد مليارات الدولارات، أما وقد قامت به جماعة من خلال جهود أتباعها وعلى نفقتهم الخاصة، فإنه يجب علينا، إن لم نشجعهم ونندرج في صفوفهم، أن نكف ألسنتنا عنهم، ويكفي أن هذه الجماعة تقوم بعملين في غاية الأهمية والخطورة.

الأمر الأول: أنها تفتح قلوب أهل الغرب للإسلام.

الأمر الثاني: في داخل المجتمعات الإسلامية، تقوم بتمهيد الأرض السبخة لبناء مجتمع مسلم.

فهذا هو اجتهاد الجماعة، وهذه هي قناعتها، سواء أصابت أو أخطأت فهي مأجورة.

فعلى الجماعات الأخرى أن تكف ألسنتها عن نقدها، خاصة وأن جماعة التبليغ لا تصادر على أحد، ولا تنتقد أحداً، ومع ذلك فالتناصح بين الإخوة مطلوب، ولكن فرق بين النصح والتشهير».

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقرير الحافظ ابن حجر لمذهب أهل السنة في رده على المعتزلة حيث قال: «وظاهر الآية أن يعطي الملك من يشاء سواء كان متصفا بصفات من يصلح للملك أم لا من غير رعاية استحقاق ولا وجوب ولا أصلح بل يؤتي الملك من يكفر به ويكفر نعمته حتى يهلكه ككثير من الكفار مثل نمرود والفراعنة»..	٢١
قول الحافظ ابن حجر مقررا مذهب أهل السنة: «ويؤتيه إذا شاء من يؤمن به ويدعو إلى دينه ويرحم به الخلق مثل يوسف وداود وسليمان، وحكمته في كلا الأمرين علمه وأحكامه بإرادته تخصيص مقدوراته»..	٢١
قول الإمام النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿أن آتاه الله الملك﴾ يعني أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر فحاج لذلك. وهو دليل على المعتزلة في الأصلح..	٢١
بيان الإمام القرطبي في تفسيره لمذهب أهل السنة والجماعة في إيتاء الملك وأن السبب الأقوى فيه هو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق..	٢٢
تعجب الإمام القرطبي من حال المتعنتين على الأنبياء، الحائدين عن أمر الله تعالى في سنن التمكين والنصرة..	٢٢
بيان الإمام القرطبي لحال المعترضين على تمكين واستخلاف غيرهم، مع كونهم مستحقين لأسباب التملك..	٢٢
تأكيد الإمام الشوكاني على أن اختيار الله هو الحجة القاطعة في إيتاء الملك فلا اعتراض من المخلوق على اختيار الخالق..	٢٣
الله تعالى هو الحاكم في ملكه، يفعل ما يشاء بعلمه وحكمته، وهو المقرر من يليق بالملك، ممن لا يليق﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون﴾ وتقرير الإمام ابن كثير لمذهب أهل السنة في ذلك..	٢٤
قول الإمام الآلوسي في تفسيره أنه تعالى مالك الملك على الإطلاق وللمالك أن يمكن من شاء من التصرف في ملكه بإذنه..	٢٥
رد الإمام القرطبي على المعتزلة والخوارج شبهتهم في قصر الإمامة والملك على أهل العدل والإحسان..	٢٦

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة
قول الحسن رحمه الله عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله سبحانه وتلا الآية	٤١
ما أورده الإمام السيوطي في الدر المنثور عن الحسن رضي الله عنه قال إن الحجاج عقوبة فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف ولكن استقبلوها بتوبة وتضرع واستكانة..	٤٢
فصل: جميع الموعودات من الله تعالى على الإيمان والأعمال..	٤٤
الله تعالى بين في قصة الكليم موسى عليه السلام مع قومه أننا لا نشكو للناس..	٤٥
بنو إسرائيل سألوا موسى عليه السلام، أن يدعو على فرعون لأنهم أبناء الأنبياء وهو كافر بقولهم ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.	٤٦
أجابهم موسى عليه السلام بتغيير حياتهم أولاً، من جهة المعصية إلى جهة الطاعة، وعندما فعلوا نصرهم الله..	٤٦
وهذا ما أكده القرآن، أن الله تعالى لا يغير ما بقوم من النعم والمنن، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الامتثال والطاعة، قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . .	٤٦
إذا وجدت المصائب والعقوبات فهذا سببه التحول من جهة الطاعة إلى جهة المعصية تقرير الإمام القرطبي والإمام الرازي والإمام الطبري لذلك..	٤٧
بنو إسرائيل تعلموا بسرعة، فجاءت معية الله معهم، بعد أن تغيروا ولكننا نحتاج إلى فترة طويلة﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾..	٤٨
نحن نحتاج إلى مدة، حتى نعلم أن تغيير أحوالنا، مترتب على تغيير أعمالنا..	٤٨
لما تركنا أمر الله تعالى وسنة النبي ﷺ ولو معنا جميع الأسباب نكون أسفل من الآخرين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ . .	٤٩
قول الإمام القرطبي: «وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى إنك أنت الأعلى وقال لهذه الأمة وأنتم الأعلون»..	٤٩
لابد من تغير حياة الأمة كلها، إلى حياة النبي ﷺ عند ذلك تتغير الأحوال..	٥٠
فصل: المصائب تقع على أي أمة لترك أعمال الإيمان..	٥٣
في منهج النبوة، تكون موعودات الله الغيبية موافقة لنا، والكون مسخر لخدمتنا، إذا كنا موافقين لأمر الله تعالى، وعلى سنن النبوة..	٥٤

الموضوع	الصفحة
الذين لا يعلمون ضلوا عن سبيل الهدى، وجهد الإيمان والأعمال، وانقطعوا بالوسائل عن المقاصد..	٧٧
فصل: منهج النبوة نفي لتأثير المخلوق في قدرة وإرادة الخالق..	٧٨
والآن لإحياء حقائق الإيمان والأعمال، لابد من تحقق الالتزام بالتابعية لسنن النبي ﷺ، ومن تغيير مقاصدنا والمسلمين، من الدنيا إلى الآخرة..	٧٩
الآن في كل الدنيا صارت التحولات في الإرادة، لليقين والتوكل على كل ما سوى الله تعالى، وصارت الإرادة لليقين بالمال، والكثرة والمادة والقوة..	٨٠
في كل الدنيا هناك العمل على تعظيم المخلوق، والتأثر والخوف من المخلوق..	٨٠
قوم موسى عليه السلام لما قالوا «إنا لمدركون» كان ذلك ضعفا في إيمانهم، حيث رأوا قدرة المخلوق، وقوة المخلوق، بخلاف الكليم عليه الصلاة والتسليم..	٨١
أصحاب موسى عليه السلام عندما قالوا «إنا لمدركون»، خافوا على أنفسهم لأنهم بين موتين، موت بيد فرعون أو الغرق في البحر..	٨٢
امتثل موسى عليه السلام الأمر من الله تعالى في أن يضرب بعصاه البحر على خلاف المعقول، فجاءت النصرة من الله تعالى مخالفة للمعقول..	٨٣
ما أورده الإمام ابن كثير والإمام الرازي والإمام الطبري في نصرة الله تعالى للكليم عليه الصلاة والتسليم..	٨٤
فصل: سنن النصرة في الصبر والقيام لتبليغ الرسالة..	٨٧
إشارة الإمام الطبري إلى أسباب النصرة والنجاه والعلو والتمكين التي أرشد الله تعالى إليها رسوله وحبيبه محمد ﷺ والتي بها نجى ونصر كليمه موسى عليه السلام..	٩٠
فصل: تأكيد الوحي أن أول طرق التمكين إقامة الإيمان في المسلمين..	٩١
الذي معه الإيمان المطلوب من الله عز وجل هو الذي يمكنه الله تعالى وينصره، ولو لم يطلب ذلك أو يسعى إليه..	٩٣
أصل القيام الآن لتكميل الإيمان، وتكميل التقوى، ونفي غير الله تعالى من الأشياء وجميع المخلوقات من القلوب، ويكون تأثر القلوب فقط بقدرة الله تعالى وقيوميته..	٩٣
إذا قامت أوامر الله تعالى في الأمة انفراديا، تأتيها نصرة الله تعالى الانفرادية، وإذا قامت أوامر الله تعالى في الأمة جماعيا، أتتها نصرة الله الجماعية...	٩٤

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
قول الإمام الشوكاني: «لا يعارض الثابت في شرعنا ما كان في شرع غيرنا فيمكن أن يكون الطلب في شرع يوسف عليه السلام سائغا..»..	٢٢٥
وقد أكد حجة الإسلام الإمام الغزالي في الوسيط «التحذير من الإقدام على طلب الولايات، لما تستخرجه من النفوس من خبايا الخبث»..	٢٢٦
هذا وقد كان وصول النبي يوسف عليه السلام إلى خزائن الأرض بطريق النبوة ومنهج النبوة..	٢٢٧
لقد أعطى الله تعالى بني إسرائيل ملك البلاد، وخزائن الأرض بطريق النبوة، فلما انشغلوا بالملك والمال أذلهم الله تعالى..	٢٢٧
مكن الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الأرض، وأضاف هذا التمكين إلى نفسه سبحانه حتى لا يغفل الغافلون، أو ينسى الذاكرون..	٢٣٢
هذا وإن من المقرر المعلوم، أن النبي يوسف عليه السلام ما طلب أن يُجعل على خزائن الأرض إلا بعد أن ملَّكه الملك، وقلَّده الإمارة حيث قال له: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾..	٢٣٢
قول الإمام القرطبي: «قال بعض أهل العلم في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر..»..	٢٣٣
هل نحن في هذه المرحلة كالنبي يوسف عليه السلام، الذي كان مطلوبا للملك والتمكين والامارة، في حقيقة الأمر، ولم يكن طالبا..	٢٣٦
هذا وقد علم النبي الكريم يوسف عليه الصلاة والتسليم أنه ليس في عصره مثله، علما وحفظا وأمانه، فلذلك طلب ما طلب، فهل المتكلم بمثل كلامه كذلك..	٢٣٦
قول الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فيجب على كل من ولى شيئًا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه..	٢٣٧
والطالبون لهذا الأمر استنانا بالنبي يوسف عليه السلام، هلا تابعوا من استنوا به، فهو ما طلب منازعة الحاكم في سلطانه، ولا نزعه من مكانه..	٢٣٩
لذلك كان أهل الدعوة على منهج النبوة، دعوتهم النصح والإصلاح، والعفو والصفح، برحمة من الله تعالى لانوا في أيدى الناس، فجمع الله تعالى القلوب عليهم، وانعطف المسلمون إليهم..	٢٤٠

الموضوع	الصفحة
﴿الخاتمة﴾. «ختم الله لنا بالحسنى».	٢٤٢
﴿فتاوى كبار العلماء في أهل التبليغ والدعوة﴾	٢٤٥
﴿فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز﴾..	٢٤٦
خطاب من الشيخ إبراهيم عبدالرحمن الحصين بالمدينة المنورة إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله..	٢٤٦
اطلعنا على رسائل كثيرة من سماحتكم نهجتم فيها أثابكم الله منهجه من تأييد الجماعة المذكورة والتنويه بفضلهم وجهودهم وتحمّلهم المشاق في سبيل الدعوة إلى الله احتسابا وما هدى الله بسببهم من منحرف، وأسلم على أيديهم من كافر مع الإهابة بمشاركتهم في الخروج معهم للدعوة إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولاسيما طلبة العلم لأن في مشاركتهم لهم من الخير ما لا يعلمه إلا الله..	٢٤٦
كما اطلعنا على كتابات كثيرة من علماء محققين متضلّعين في علوم التّوحيد وعقيدتهم فيه راسخة بحمد الله من المدرّسين بالجامعة الإسلامية بالمدينة وغيرهم من العلماء داخل المملكة وخارجها يثنون عليهم فيها، وينوهون بفضلهم، ويشيدون بما رأوا لهم من الآثار الحسنة العجيبة، حيث إنهم صاحبوهم في الحضر والسفر..	٢٤٧
وقد أرجف بعضهم في المدينة هذه الأيام بأن سماحتكم قد رجع عن رأيه السابق فيهم، لما سبّوهم عندكم، فلم نصدّق ذلك لكثرة ما قرأنا وسمعنا منكم مما ذكرنا سابقًا ولما منحكم الله ومن به عليكم من البصيرة النافذة وبعد النظر وسعة الاطلاع والتأني والحكمة، والحرص على تحصيل المصالح ودفع المضار..	٢٤٧
خطاب فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى إلى الشيخ/ إبراهيم عبدالرحمن الحصين حفظه الله تعالى بالمدينة المنورة..	٢٤٨
فأخبركم أني لازلت على رأيي في الجماعة المذكورة فيما كتبته عنهم قديمًا وحديثًا من الكتابات الكثيرة وما كتبه سلفي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ قدس الله روحه ونور ضريحه وما كتبه غيرنا من العلماء..	٢٤٨
لأنهم قد نفع الله بهم نفعًا كبيرًا وهدى بهم جمًا غفيرًا فالواجب شكرهم على عملهم وتشجيعهم وتنبيههم على ما قد يخفي عليهم، وذلك من باب التعاون على البرّ والتقوى والتناصح بين المسلمين..	٢٤٨

عنوان المراسلة : ١٣ ش بركات

طومان باي – الزيتون – القاهرة

يُطلب من المكتبات بجوار مركز الدعوة بالجيزة

ت : ٠١٠٦٥٣٣٢٧٦٨



﴿ من هم أهل الدعوة ﴾

كلمات مضيئة

فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز

(الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة و الإرشاد) :

أما ما نسبه المعارضون لهم عني من الرجوع عن رأيي فيهم فهو كذب علي ، بل أني نصحتهم ووبختهم على عملهم وقلت لهم فيما قلت متمثلا بقول الشاعر :

أقلو عليهم لا أبا لأبيكمو من اللوم   أو سدوا المكان الذي سدوا

وحرضتهم على كثرة الإجتماع بهم والخروج معهم وأوضحت لهم ما فيه من الفوائد ، وطلبت منهم أن يتهموا الرأي وينظروا في العواقب ، وبينت لهم ما في إنشقاقهم وخلافهم من الشر العظيم وسوء العواقب في الدنيا والآخرة ، وأن ذلك من الشيطان ، أعاذنا الله منه ليصرف الناس عن الدعوة إلي الله ويشغلهم عنها بفساد ذات البين وكثرة القيل والقال . هذا ما أدين الله به واعتقده وأسأل الله أن يرينا الحق حقا ويمنحنا الثبات عليه والباطل باطلا ويمن علينا بإجتنابه ولا يجعله ملتبسا علينا فنضل ، إنه وليي فى ذلك والقادر عليه . وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الذي بعثه رحمة للعاملين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

انظر ملحق الفتاوى بآخر الكتاب .